

المِنْهَاجُ السَّنِيُّ
فِي
شَرْحِ السَّعَادَاتِ وَاللَّذَائِظِ

الحقوق جميعها محفوظة للمؤلف - الطبعة العاشرة ١٤٢٢هـ -

الصفحة والإخراج بقسم الصحف بدار بلنسية

دار بلنسية للنشر والتوزيع - المملكة العربية السعودية - الرياض

ص.ب ٥٧٢٤٢ - الرمز البريدي ١١٥٧٤ - هاتف وفاكس: ٤٥٤٧٥٤٩ (٠١)



المبتهج الأسنى في سيرة السما واللة الحسن

تأليف
وزي بن محمد شحاته
أستاذ مشارك بكلية التربية
جامعة الملك سعود

تقديم
الدكتور عبد الرحمن بن صالح المحمود
أستاذ العقيدة بـحاجية أصول الدين
بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

الجزء الثاني

مكتبة دار العلوم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكريم - الأكرم - الجواد - المحسن - البر

٥٥ ٥٦ ٥٧ ٥٨ ٥٩

الكريم في كلام العرب: الجواد، والكريم: العزيز، والكريم: الصفوح. هذه ثلاثة أوجه كلها جائز وصف الله عز وجل بها.

فإذا أريد بالكريم الجواد أو الصفوح تعلق بالمفعول به لأنه لا بد من متكرم عليه ومصفوح عنه موجود، وإذا أريد به العزيز كان غير مقتضى مفعولاً. ويقال: «فلان يتكرم على أصحابه أي يجود عليهم ويتسخى» لله وفلان يكرم على الله أي يعز على وشاة كريمة» إذا كانت عند الحلب تستقر وتولى على الحالب صفحة وجهها لأنها تعرض عنه ولا تمنعه من الحلب، فكذلك الكريم من الرجال الصفوح كأنه يعرض عن ذنب صاحبه (١).

والكرم إذا وصف به الله تعالى فهو اسم لإحسانه وإنعامه، ومعناه أيضاً نفى الدناءة عنه عز وجل لا استحقاقه صفات الجلال، فهو سبحانه لم يزل كريماً، ولا يزال كريماً.

فالله (سبحانه وتعالى) كريم كثير الإحسان، والعطايا، لا يخيب رجاء أحد، ولا يضيع من توسل به، ولا يترك من التجأ إليه.

وهو سبحانه وتعالى كريم ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً، كثير العطاء، دائم الإحسان، واسع الكرم، يعطي ما شاء لمن يشاء وكيف يشاء بغير سؤال، ولا يحتاج إلى وسائط ولا شفعاء في وصول النوال.

(١) الزجاجي، مرجع سابق، ص (١٧٦ - ١٧٧).

فهو سبحانه وتعالى كريم إذا أعطى أجزل، وإن عصي أجمل، وإذا أبصر خللاً جبره وما أظهره، وإذا أولى فضلاً أجزله ثم ستره.

فالكريم اسم لكمال إحسانه وإنعامه، يبتدئ بالنعمة من غير استيجاب، ويتبرع بالإحسان من غير سؤال ويعفو عن السيئات، ويغفر الذنوب، ويخبيء العيوب، ويكافئ بالشواب الجزيل على العمل القليل.

فالكريم إذا وصف الله تعالى به فهو اسم لإحسانه وإنعامه المتظاهر نحو قوله ﴿فَإِنَّ رَبِّيَ غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ (١) وإذا وصف به الإنسان فهو اسم للأخلاق والأفعال المحمودة التي تظهر منه، ولا يقال: هو كريم حتى يظهر ذلك منه. والكرم لا يقال: إلا في المحاسن الكبيرة كمن يتفق مالا في تجهيز جيش في سبيل الله أو تحمل حمالة ترقىء دماء قوم، وكل شيء شرف في بابيه فهو كريم (٢).

أما الأكرم فقد جاء بصيغة التفضيل والتعريف، ليدل على أنه سبحانه وتعالى هو الأكرم وهذا بخلاف ما لو قال «ربك» «أكرم» فإنه لا يدل على الحصر، وقوله (الأكرم) يدل على الحصر، ولم يقل «الأكرم من كذا» بل أطلق الاسم، ليبين أنه الأكرم مطلقاً غير مقيد فدل على أنه متصف بغاية الكرم الذي لا شيء فوقه ولا نقص منه (٣) فهو سبحانه أكرم الأكرمين، لا يوازيه كريم، ولا يعادله فيه نظير.

فالكريم - إذا أريد به الشرف والطهارة - غير حاصل إلا لله (سبحانه

(١) سورة النمل آية ٤٠.

(٢) الراغب الأصفهاني، مرجع سابق، ص ٤٢٩.

(٣) ابن تيمية، الفتاوى، ح ١٦، ص (٢٩٣-٢٩٦).

وتعالى لأنه هو الموجود الواجب لذاته، المنزه عن قبول العدم بوجه من الوجوه. وإذا أريد على به العزة فالعزیز المطلق هو الله. وإن فسر بالذئ تكثر منافعه وفوائده فهذا لا يصدق إلا على الحق سبحانه لأنه هو الموجد لجميع المخلوقات الممد لجميع الكائنات، وإذا فُسر بمعنى الصّبح والعفو فليس أحد أكثر ولا أقدر على ذلك منه (سبحانه وتعالى) ويقول الداعى في دعائه: يا كريم العفو، فقيل: إن من كرم عفوهُ أن العبد إذا تاب عن السيئة، محاها عنه وكتب له مكانها حسنة.

وقد ذكر اسم الكريم (سبحانه وتعالى) مرتين في القرآن الكريم، في سورة النمل قال تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌ كَرِيمٌ﴾ (١). وفي سورة الانفطار قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ (٢).

أما اسم الله الأكرم فقد ذكر مرة واحدة في سورة العلق، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَىٰ وَرَبِّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (٣).

وقد ورد في القرآن الكريم ذو الجلال والإكرام. قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (٤).

أى ذو العظمة والكبرياء، وذو الرحمة والجود، والإحسان العام والخاص، فهو المكرم لأوليائه الذين يجلبونه ويعظمونه ويحبونه (٥).

أما اسم الله الجواد فمعناه كثير العطايا، فهو الجواد المطلق الذي عم

(١) سورة النمل آية: ٤٠

(٢) سورة الانفطار آية ٦

(٣) سورة العلق آية ٣

(٤) سورة الرحمن آية ٧٨

(٥) عبد الرحمن السعدى، تيسير الكريم الرحمن، ٦٢٦/٥.

بجوده جميع الكائنات ، وملاها من فضله وكرمه ونعمه المتنوعة ،
وخص بجوده السائلين بلسان المقال ، أو لسان الحال من بر وفاجر
ومسلم وكافر ، ومن جوده الواسع ما أعده لأوليائه في دار النعيم مما لا
عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

قال ابن القيم :

وهو الجواد فجوده عمّ الجور دّ جميعه بالفضل والإحسان
وهو الجواد فلا يخيب سائلا ولو أنه من أمة الكفران

وقد ورد اسم الجواد في الحديث القدسيّ الجليل ، الذي يقول فيه
الله عزّ وجلّ «يا عبادي كلّم ضال إلا من هديته، فسلوني الهدى
أهدكم... إلى قوله تعالى... وذلك بأنّي جواد واجد ما جد أفعل ما
أريد...» (١).

وفى الحديث النبويّ قال رسول الله (ﷺ): «إن الله جواد يحبُّ
الجود» (٢).

أما اسم الله المحسن فقد ورد في الحديث الصحيح ، عن سمرة عن
النبي (ﷺ) قال : «إن الله تعالى محسن فأحسنوا» (٣).

وعن شدّاد بن أوس عن النبي (ﷺ) قال : «إن الله محسن يحبُّ

(١) رواه الترمذی ، ورقمه (٢٤٩٥) ، وقال عنه : حديث حسن مع أن في شهر بن حوشب
كلاماً ، وقد روى مسلم هذا الحديث بلفظ مغاير (انظر جامع العلوم والحكم حديث رقم
٢٤٤).

(٢) أخرجه الألباني في حجاب المرأة المسلمة / ١١ ، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة
حديث / ١٦٢٢٧ م ٤ : ص ١٧ .

(٣) صحيح الجامع الصغير ، حديث رقم ١٨١٩ .

الإحسان، فإذا قتلتم فأحسنوا القتل، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحد أحدكم شفرته، ثم ليرح ذبيحته»^(١).

والإحسان يقال على وجهين: أحدهما الإنعام على الغير يقال: أحسن إلى فلان.

والثاني في فعله وذلك إذا علم علماً حسناً أو عمل عملاً حسناً، وعلى هذا قول أمير المؤمنين على بن أبي طالب (رضي الله عنه) «الناس أبناء ما يحسنون، أي منسوبون إلي ما يعلمونه وما يعملونه، من الأفعال الحسنة... والإحسان أعم من الإنعام، قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أُحْسِنْتُمْ لَأَنْفُسَكُمْ﴾^(٢) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾^(٣) فالإحسان فوق العدل، وذلك أن العدل هو أن يعطى ما عليه ويأخذ ماله، والإحسان يعطى أكثر مما عليه ويأخذ أقل مما له، فالإحسان زائد على العدل فتحري العدل واجب وتحري الإحسان ندب وتطوع^(٤).

والله سبحانه وتعالى محسن في إنعامه فيعطى النعم الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى... ومحسن في فعله فهو سبحانه وتعالى أحسن كل شيء خلقه.

قال تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾^(٥).

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾^(٦).

أما اسم الله البر، فهو فاعل البر (بالكسر)، والبر هو الإحسان والاتساع والصلة والخير، وقيل: البر هو خير الدنيا والآخرة.

(١) صحيح الجامع الصغير، حديث رقم ١٨٢٠.

(٢) سورة الإسراء، آية: ٧. (٣) سورة النحل، آية: ٩٠.

(٤) الراغب الأصفهاني، مرجع سابق، ص ١١٩.

(٥) سورة السجدة آية ٧. (٦) سورة المائدة آية ٥٠.

فهو سبحانه برعباده أى يحسن إليهم، ويوسع عليهم بالخير، ويعطف عليهم، ولا يقطع الإحسان بسبب العصيان.

قال الراغب الأصفهاني: «البرُّ التوسع في فعل الخير، وينسب ذلك إلى الله تارة نحو، إنه هو البر الرحيم: وإلى العبد تارة فيقال: برَّ العبدُ به أى توسع في طاعته فمن الله تعالى الثواب ومن العبد الطاعة...» (١).

فالله عز وجل هو البر بعباده أى العطوف عليهم، المحسن إليهم، عم برّه جميع خلقه، فلم يخل عليهم برزقه - وهو البرّ بالمحسن في مضاعفة الثواب له، والبرّ بالمسئء في الصفح والتجاوز عنه.

وقد ورد هذا الاسم مرة واحدة في القرآن الكريم في سورة الطور، قال تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَّانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ (٢).

قال الشاعر:

وآثار الكريم (سبحانه وتعالى) في الوجود لا تعد ولا تحصى، يقول الشهيد سيد قطب مفسراً قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ (٣).

إن هذا الخطاب: «يا أيها الإنسان» ينادى في الإنسان أكرم ما في كيانه، وهو إنسانيته التي بها تميز عن سائر الأحياء، وارتفع إلى أكرم مكان، وتجلّى فيها إكرام الله له، وكرمه الفائض عليه. ثم يعقبه ذلك

(١) الراغب الأصفهاني، مرجع سابق، ص ٤٠.

(٢) سورة الطور آية (٢٥-٢٨).

(٣) سورة الإنفطار آية (٦-٨).

العتاب الجميل الجليل: «ما غرك بربك الكريم؟» . . . يا أيها الإنسان ما الذي غرّك بربك، فجعلك تقصر في حقه، وتتهاون في أمره، ويسوء أدبك في جانبه؟ وهو ربك الكريم، الذي أغدق عليك من كرمه وفضله وبره . .

ثم يفصل شيئاً من هذا الكرم الإلهي، الذي أجمله في النداء الموحى العميق الدلالة . . يفصل شيئاً من هذا الكرم الإلهي المغدق على الإنسان المتمثل في إنسانيته التي ناداه بها في صدر الآية . فيشير في هذا التفصيل إلى خلقه وتسويته وتعديله، وهو القادر على أن يركبه في أي صورة وفق مشيئته . فاختياره هذه الصورة له منبثق من كرمه وحده، ومن فضله وحده، ومن فيضه المغدق على هذا الإنسان الذي لا يشكر ولا يقدر بل يغتر ويسدر!

فخلق الإنسان على هذه الصورة الجميلة السوية المعتدلة الكاملة الشكل والوظيفة أمر يستحق التدبر الطويل، والشكر العميق والأدب الجم، والحب لربه الكريم الذي أكرمه بهذه الخلقه، تفضلاً منه، ورعاية منه (١) .

فالجمال والسواء والاعتدال في خلق الإنسان إنما هي آثار من كرم الكريم سبحانه وتعالى . وتبدو هذه الآثار في تكوين الإنسان الجسدي وفي تكوينه العقلي، وفي تكوينه الروحي .

فهذه الأجهزة العامة التي يتكون منها جسد الإنسان . . . الجهاز العظمي . والجهاز العضلي، والجهاز الهضمي، والجهاز الدوري، والجهاز التنفسي، والجهاز التناسلي، والجهاز العصبي . . الخ كلها

(١) سيد قطب في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٨٤٨.

عجائب متقنة الصنع تنطق بلسان الحال : أنا من فيض الكريم .

تقول مجلة العلوم الإنجليزية : إن يد الإنسان في مقدمة العجائب الفدّه ، وإنّ من الصعب جداً - بل من المستحيل - أن تبتكر آلة تضارع اليد البشرية من حيث البساطة والقدرة وسرعة التكيف . فحينما تريد قراءة كتاب تناوله بيدك ، ثم تثبته في الوضع الملائم للقراءة ، وهذه اليد هي التي تصحح وضعه تلقائياً . وحينما تقلب إحدى صفحاته تضع أصابعك تحت الورقة ، وتضغط عليها بالدرجة التي تقلبها بها ثم يزول الضغط بقلب الورقة ، واليد تمسك القلم وتكتب به . وتستعمل كافة الآلات التي تلزم الإنسان من ملعقة إلى سكين إلى آلة كاتبة ، وتفتح النوافذ وتغلقها ، وتحمل كل ما يريده الإنسان واليدان تشتملان على سبع وعشرين عظمه وتسع عشرة مجموعة من العضلات لكل منهما^(١) .

وجهاز الذوق في الإنسان اللسان ، ويرجع عمله إلى مجموعات من الخلايا الذوقية القائمة في حلقات غشائه المخاطي ، ولتلك الحلقات أشكال مختلفة فمنها الخيطية والفطرية والعدسية ويغذي الحلقات فروع من العصب اللسانى البلعومى ، والعصب الذوقى . وتتأثر عند الأكل الأعصاب الذوقية ، فينتقل الأثر إلى المخ . . . وهذا الجهاز موجود في أول الفم ، حتى يتمكن الإنسان من أن يلفظ ما يحس أنه ضار به ، وبه يحس المرؤ المرارة والحلاوة ، والبرودة والسخونة والحامض والمالح ، واللاذع ونحوه . . . ويحتوى اللسان على تسعة آلاف من نتوءات الذوق الدقيقة ، يتصل كل نتوء منها بالمخ بأكثر من عصب . فكم عدد الأعصاب ؟ وما حجمها ؟ وكيف تعمل منفردة ؟ وتتجمع بالإحساس

(١) انظر : الله والعلم الحديث لعبد الرزاق نوفل ، ص ٥٨ .

عند المخ (١).

ويتكون الجهاز العصبي الذي يسيطر على الجسم سيطرة تامة من خلال شعيرات دقيقة تمر في كافة أنحاء الجسم . وتتصل بغيرها أكبر منها، وهذه بالجهاز المركزي العصبي . فإذا ما تأثر جزء من أجزاء الجسم ، ولو كان ذلك لتغير بسيط في درجة الحرارة بالجو المحيط ، نقلت الشعيرات العصبية هذا الإحساس إلى المراكز المنتشرة في الجسم ، وهذه توصل الإحساس إلى المخ حيث يمكنه أن يتصرف . وتبلغ سرعة سريان الإشارات والتنبيهات في الأعصاب مائة متر في الثانية الواحدة .

ومن كرم الله عز وجل أن علّم الإنسان ما لم يعلم فشرّفه وكرّمه بالعلم ، وهو القدر الذي امتاز به أبو البرية آدم على الملائكة . والعلم يكون تارة في الأذهان ، وتارة يكون في اللسان ، وتارة يكون في الكتابة بالبيان ، وهو ما يُكْتَبُ وَيُدَوَّنُ ﷺ وهو أساس تقدم البشرية وارتقائها فهو من أجلّ النعم على الإنسان قال تعالى : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (٢) .

ومن آثار الكريم خلّق الإنسان في أحسن تقويم ، فإذا ما نظرنا إلى أبعاده أو شكله أو تركيبه الداخلي أو تركيب الأعضاء الخارجية نجده حقاً في أحسن تقويم ، فهو يقع في سلم الأحجام في منتصف المسافة بين الذره والمجرة ، أي ما بين ما يضرب به المثل في الصغر ، وما يضرب به المثل في الكبر ، وحجم الإنسان مناسب لحياته على وجه الأرض ، فطوله وعرضه يرتبطان بخصائص خلايا الأنسجة وطبيعة التغيرات

(١) المرجع السابق ، ص ٥٨ .

(٢) سورة العلق اية (٥٣) .

الكيمائية وعملية الهدم والبناء فيه . فالتيار العصبى ينتشر بسرعة معينة ، فطول الإنسان طويلاً بالغاً يجعله ذا إدراك بطيء للمؤثرات الخارجية ، ولذلك تكون استجابته الحركية متأخرة مما يسبب له الضرر قطعاً . وكذلك إذا قصر في طوله قصراً شديداً كان سريان الإحساس العصبى سريعاً بسرعة تفقده إمكان التحكم والتفكير المناسب .

والتفاعلات الكيمائية لدى أى كائن حتى ترتبط بحجمه فكلما زاد الحجم قلت هذه العمليات ، فلو كان طول الإنسان أكثر مما هو عليه لنجم عن ذلك نقص في شدة التفاعلات الكيمائية مما يفقد الإنسان قدراً كبيراً من سرعة التفاعلات الكيمائية مما يجعل الإنسان لا يستطيع حمل القلم أو الكتابة به .

وفى التركيب الداخلى ، فالقلب والرئتان معلقان فى داخل قفص عظمى يتكون من العمود الفقرى وضلوع الصدر فى حين نجد الأعضاء الرقيقة كالمنخ والنخاع تحتويها صناديق عظيمة مبطنة بأغشية ومواد سائلة ولزجة .

والأعضاء الزوجية على أبعاد متساوية تماماً سواء أكانت أعضاء ظاهره أم باطنة ، فالكليتان والمبيضان والخصيتان من الداخل والحاجبان وفتحتا العينين والأنف والأذنين واليدين والرجلين كل واحدة منها على بعد متساوٍ من منتصف الجسم ، فإذا ما مر خط وهمى رأسى من منتصف الجسم ومر فى الإنسان ليقسمه قسمين نرى كل عين على مسافة متساوية من هذا الخط مع العين الأخرى ، وكذلك الأنف والأذن وغير ذلك . أما الأعضاء الفردية فنرى أن الفم مثلاً فى منتصف هذا الخط . . وفى التركيب الداخلى نرى أن القلب فى ناحية يقابله فى الأخرى الكبد والطحال .

ومن آثار الكريم جعل الأعضاء في أفضل أماكنها، فالأذنان في مكان بحيث يسمع الإنسان أى صوت سواء أكان الصوت من اليمين أم من اليسار، فماذا لو كانت فتحتا الأنف في مكان الأذنين،؟ والأذنان في مكان الأنف وللعين جفن يحميها من الأذى وللجفن شعر يعكس الشمس عنها وفي الأنف . شعيرات تحجز الغبار والتراب وتدفع الهواء الداخل، وللعين ماء تفرزه غدد تجعلها لا تجف فكيف لو كانت هذه الغدد في الأنف . . . وشعيرات الأنف في العين؟ (١).

فسبحان الكريم الذي خلق الإنسان فسواه فعده، في أى صورة ما شاء ركبها؟!

ولا يقتصر كرمُ الكريم سبحانه على تسوية الإنسان وإبداع خلقه فقد كرمه سبحانه وتعالى وفضله على كثير من خلقه، كرمه بالاستعدادات التي أودعها فطرته، والتي استاهل بها الخلافة في الأرض، يغير فيها ويبدل، وينتج فيها وينشئ، ويركب فيها ويحلل، ويبلغ بها الكمال المقدر للحياة.

وكرمه بتسخير القوى الكونية له في الأرض وإمداده بعون القوى الكونية في الكواكب والأفلاك.

وكرمه بذلك الاستقبال الفخم الذي استقبله به الوجود، وبذلك الموكب الذي تسجد فيه الملائكة ويعلن فيها الخالق جل شأنه تكريم هذا الإنسان!

وكرمه بإعلان هذا التكريم كله في كتابه المنزل من الملأ الأعلى الباقي

(١) انظر القرآن والعلم الحديث لعبد الرزاق نوفل، ص ١٢١.

في الأرض . . القرآن» (١) .

ومن آثار الكريم سبحانه وتعالى مضاعفة جزاء الأعمال الصالحة .

عن ابن عباس (رضي الله عنه) عن النبي (ﷺ) فيما يرويه عن ربه - عز وجل - قال : إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بين ذلك، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، فإن هو هم بها فعملها، كتبها الله له عنده عشر حسنات، إلى سبعمئة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ومن هم بسيئة فلم يعملها، كتبها الله عنده حسنة كاملة، فإذا هو هم بها فعملها، كتبها الله سيئة واحدة» (٢) .

ففي الحديث السابق بيان سعة فضل الله وإكرامه لأمة محمد (ﷺ) حيث تضاعف الحسنات التي عملها العبد، ولا تضاعف السيئة، وحيث تكتب الحسنة التي هم بها حسنة كاملة وإن لم يعملها، ولا تكتب السيئة إلا إذا عملها . ولولا ذلك لكاد أن لا يدخل الجنة أحد لأن عمل العباد للسيئات أكثر من عملهم للحسنات .

ومن أفضل ما خلق الكريم لعباده الصالحين الجنة، وما فيها من نعيم : عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله ﷺ : قال الله (عز وجل) : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، واقرءوا إن شئتم : (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين) (٣) .

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ح ٤، ص ٢٢٤١ .

(٢) رواه الشيخان وغيرهما (البخاري ٢٧٧/١١، ٢٧٩، ومسلم (١٣١) .

(٣) رواه الشيخان وغيرهما (البخاري في بدء الخلق) (باب ما جاء في صفة الجنة) (ومسلم

في الجنة وصفه نعيمها) . (٣) السجدة آية ١٧ .

وعن أنس (رضي الله عنه) أن رسول الله (ﷺ) قال: «غدوة في سبيل الله أو روحه خير من الدنيا وما فيها، ولقاب قوس أحدكم أو موضع قدّه (سَوَطُهُ) في الجنة خير من الدنيا وما فيها، ولو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت إلى أهل الأرض لأضاءت الدنيا وما فيها ولملأت ما بينهما ريحاً ولنصيفها يعني خمارها خير من الدنيا وما فيها» (١).

ويظهر أثر كرم الكريم (سبحانه وتعالى) على عصاة الموحدين عندما يخرجهم من النار ويدخلهم الجنة. ففي الحديث عن ابن مسعود (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): «إني لأعلم آخر أهل النار خروجا منها، وآخر أهل الجنة، دخولا الجنة رجل يخرج من النار حبواً فيقول الله عز وجل له: اذهب فادخل الجنة، فيأتيها، فيخيل إليه أنها ملأى، فيرجع، فيقول: يارب وجدتها ملأى فيقول الله عز وجل له اذهب فادخل الجنة، فيأتيها، فيخيل إليه أنها ملأى، فيرجع. فيقول: يارب وجدتها ملأى! فيقول الله عز وجل له: اذهب فادخل الجنة. فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها أو أن لك مثل عشرة أمثال الدنيا، فيقول: أتسخر بي، وتضحك بي وأنت الملك، قال: فلقد رأيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ضحك حتى بدت نواجذه فكان يقول «ذلك أدنى أهل الجنة منزلة» (٢).

أما اسمه الجواد (سبحانه) فقد عمّ الوجود كله بجوده وإنعامه فهو يجود على الطائعين والعاصين، وعلى المؤمنين وعلى الجاحدين، لا يخيب سائلاً، ولا يرد متضرعاً، جوده شامل، وخيره إلى الجميع نازل.

(١) رواه الشيخان وغيرهما (البخاري ١٣٦ في الجهاد باب الغدوة، ومسلم ١٤٩٩/٣ في الامارة، فضل الغدوة والروحة في سبيل الله).

(٢) رواه الشيخان، البخاري ٣٨٦/١١، ومسلم (١٨٦).

ففى الحديث عن أبى ذر الغفارى -رضى الله عنه- قال : قال رسول الله (ﷺ) يقول الله تعالى : «يا عبادى كلّكم ضال إلا من هديته، فسلونى الهدى أهدكم..» إلى قوله تعالى : «ولو أن أولكم وآخركم وحيكم وميتكم، ورطبكم ويابسكم اجتمعوا فى صعيد واحد، فسأل كل إنسان منكم ما بلغت أمنيته، فأعطيت كل سائل - منكم ما سأل، ما نقص ذلك من ملكى، إلا كما لو أن أحدكم مرّ بالبحر، فغمس فيه إبرة، ثم رفعها إليه، ذلك بأنى جواد ماجد، أفعل ما أريد عطائى كلام، وعذابى كلام، إنما أمرى إذا أردته أن أقول له: كن فيكون»^(١).

فالجود السخاء، والمجد نيل الشرف والكرم، والمجيد الرفيع والشريف الفعال، والإسمان جواد وماجد جمعا كل صفات الكرم والعطاء والرحمة والإحسان، وكلّها صفات ثابتة لله تعالى، واجبة لذاته تعالى، لا يعترىها نقص ولا فناء.

ومهما يجود الجواد سبحانه ويعطى فإنّ ذلك لا ينقص من خزائنه شيئا؛ لأنّ النقص يدخل على الشئ المحدود الفانى، وجود الله وعطاؤه من رحمته وكرمه، وهما صفتان قديمتان - لا يتطرق إليهما نقص.

ويتجلّى إحسان الخالق سبحانه فى خلق كل شئ على الصورة التى خلق بها بإتقان وإحسان ثم هدايته للوظيفة التى خلق لها. وحينما يجول الإنسان ببصره وبصيرته - فى حدود ما يطيق - فى جنبات هذا الوجود الكبير تتجلّى له آثار تلك القدرة المبدعة المدبرة فى كل كائن صغير أو كبير من الذرة المفردة إلى أضخم الأجسام ومن الخلية الواحدة

(١) سبق تخريجه.

إلى أرقى أشكال الحياة في الإنسان .

هذا الوجود الكبير المؤلف مما لا يحصى من الذرات والخلايا والخلايق والأحياء، وكل كائن فيه يتفاعل أو يتعامل مع الكائنات الأخرى وكلها تعمل منفردة ومجتمعته داخل إطار النواميس المودعة في فطرتها وتكوينها بلا تعارض ولا خلل ولا فتور في لحظة من اللحظات . . .

وكل كائن بمفرده كون وحده وعالم بذاته، تعمل في داخله ذراته وخلاياه وأعضاؤه وأجهزته وفق الفطرة التي فطرت عليها، داخل حدود القاموس العام في توافق وانتظام ^(١) .
فسبحان الذي أحسن كل شيء خلقه .

فالأرض أحسن الله خلقها بأن مهدها البشر في كل مكان وزمان فهي ممهدة كمهد الطفل، وما البشر إلا أطفال هذه الأرض يضمهم حضنها ويغذوهم درها! وهي ممهدة لهم كذلك للسير والحرث والزرع والحياة .

وقد جعلها الخالق المحسن تبعد عن الشمس بثلاثة وتسعين مليوناً من الأميال وذلك حتى تكون الحرارة على ظهرها مناسبة لحياة النبات، كما أحسن خلقها بأن جعلها منحرفة عند الدوران بزاوية قدرها ثلاث وعشرون درجة مما يسمح بحدوث الفصول الأربعة . . . وأحسن خلقها بأن وزّع على سطحها البحار والمحيطات ولم يجعلها في مكان واحد، وجعلها تشغل أكبر مساحة من هذا السطح حتى يتبخّر ما يكفي لإرواء اليابس وأعطاهما خلقها بأن جعل جلّ هذا الماء مالحاً، ولولا هذه الملوحة

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج ٤، ص ٢٣٣٨ .

لتعفن الماء ومن ثمّ تعذرت الحياة على سطحها . . .

ولنأخذ الإنسان كمثال لنرى ، كيف أحسن الخالق (سبحانه) خلقه؟ وحتى تستمر حياة هذا الإنسان إلى أجل مسمى لا بد من التغذية ، فكيف يشعر الإنسان أنه بحاجة إلى تغذية؟ إلى طعام وشراب؟

إن الخالق المحسن جعل في تركيب جسده ما يشعره بالإحساس بالجوع عن طريق تقلصات في أعماق المعدة ، أما الإحساس بالعطش فيتم عن طريق جفاف الحلق والفم من الريق ، فيقوم المركز المختص في الدماغ بترجمة هذه الإحساسات والتنبيهات إلى ما يعرف بإحساس الجوع والعطش ، وعندما يتم الشبع أو الريق ، تصل الإشارات إلى مركز الشبع والري فيترجمها المركز في صورة إحساس بالإمتلاء . فماذا لو لم يعطه الخالق هذه المراكز وتلك الأحاسيس؟!

فكل عضو من أعضاء الإنسان أحسن الخالق سبحانه وتعالى خلقه وهيبته . فالجلد الذي يغطي السطح الخارجي خلقه الله (سبحانه) غير قابل للاختراق بواسطة الماء والغازات ، كما أنه لا يسمح للجراثيم التي تعيش على سطحه بالدخول إلى الجسم ، فضلاً عن أنه قادر على تحطيم هذه الجراثيم بمساعدة المواد التي تفرزها غده ، وقد خلقه الخالق سبحانه وتعالى مرناً ، قابلاً للتمدد ، قوى الاحتمال ليقوم بوظائفه خير قيام .

وقد جعله الله سبحانه وتعالى مأوى كمية هائلة من أعضاء الاستقبال يسجل كل منها التغيرات التي تحدث في البيئة فالحلايا القابلة للمس والمبعثرة على سطحه تحس بالضغط والألم والحرارة والبرد ،

وتلك الموجودة في الغشاء المخاطي للفم تتأثر بالطعام والحرارة، وشبكة أعصاب الشم تتأثر بالروائح وهكذا..

ولنأخذ مثلاً آخر لعضو آخر من أعضاء الجسد إنه العضو الذي جعله الخالق (سبحانه وتعالى) مسؤولاً عن بقاء الجنس البشري إنه الخصية فكيف أحسن الخالق خلقها؟

لقد خلقها الخالق سبحانه وتعالى غدة بيضاوية الشكل تزن حوالي (١٥) غراماً.

وهي على حجمها الضئيل شديدة التعقيد فهي تحتوي على ما يناهز ألف أنبوب أدق من خيط الحرير الرقيق. ويبلغ طول كل أنبوب ما بين (٣٠) و(٦٠) سم أي ما مجموعه (٥٠٠) متر، وتلتقي هذه الأنابيب جميعها في «(١٢) أو (٢٠) قناة تتصل بدورها في مجمع فرد أضخم من الأنابيب ويراوح طوله بين (٦) و(٧) أمتار. في هذا الجهاز يتكون كل يوم (٥٠) مليون حيوان منوي. ويستطيع الرجل الواحد - خلال شهرين - أن ينتج ما يكفي لإنجاب ذرية تملأ الأرض كلها!

والى جانب جهاز القنوات حيث يتم تكوين النطف، توجد خلايا (ليدغ) التي تنتج التستوستيرون، والغريب المدهش أن هذه المادة متوفرة أيضاً في جسم الأنثى حيث تفرزها الغدد الكظرية. وهذا الهرمون يساعد علي نمو العضلات والعظام وبعض الأنسجة وإذا افتقر جسم الرجل إليه تحول الرجل إلى شخص أمرد، رخو، بليد، أما المرأة فنقص هذا الهرمون لديها يؤدي إلي البرود الجنسي كما أن الزيادة فيه تفضي بها إلى اكتساب مظاهر رجولية^(١).

(١) ج. د. راديكيلف، تعرف إلى أعضاء جسمك، ترجمة يوسف شكري، ص ١٧٩.

فسبحان الذي أحسن كل شيء خلقه .

فكل شيء قد فصل على قَدَّ قامة ماهيته تفصيلاً متقناً، ووزن بميزان دقيق كامل . . . ونظم تنظيماً تاماً ونسق تنسيقاً بارعاً، وصنع بمهاره، وألبس أجمل صورة، وألطف ثوب، وأبهى طراز من أقرب طريق إليه . . . وأسهل شكل يعينه على أداء مهمته . . . ووهب له وجوداً ينضج حكمه . . . لا عبث فيه ولا إسراف . . . (١) .

خذ مثلاً: الطيور لباسها الريش الناعم الخفيف . . . فهل يمكن أن تلبس ثوباً أنسب لها ولحكمة خلقها منه؟ . . . لقد أعطاها الخالق خلقها في إتقان وإحسان فجعل جسمها خفيفاً ذا عظام مسامية ومجوفة، وخاصة عظام الصدر والبطن، تجاوبها كثيرة، ودائماً مليئة بالهواء، وهى كبيرة وأقوى من بقية العظام لكون سندا للعضلات التي تحرك الجناحين، ومثل ذلك عظام الحوض حتى تدعم مشى الطائر على رجليه . . . يقول عالم الطيور (روبرت مورفى) «إن الهيكل العظمى للطائر المعروف باسم (فريجيت بيرو) أى البارجة الطائر والذي يبلغ ما بين جناحيه المبسوطتين سبعة أقدام يزن أربع أوقيات فقط أى أقل من وزن ريشه . . . إلا أنه متين ومرن جداً، وتركيب جمجمة الطير رقيق ومتين جداً ومجوف بشكل عجيب، وصفه أحد العلماء بقوله: إنها شعر منظوم في عظام . . . ويملك الشاهين (نوع من الصقور) سرعة تزيد على (١٨٠) ميلاً في الساعة عند انقضاضه على فريسته ويطيّر الصقر (٣٦٠) كيلو متر في الساعة الواحدة، . والطائر الخطاف بسرعه (١١٠) كيلو متر في الساعة . . . ولذا فقد زودها الخالق المحسن (عزّ

(١) سعيد النورسى، النوافذ، ترجمة إحسان الصالحى، ص ٦٥ .

وجلّ) بجهاز إضافي يتكون من خمسة أزواج، أو أكثر من الأكياس الهوائية تتصل بالرئتين وتتفرع منتشرة انتشاراً واسعاً في الجسم كله، وتمتد فروع من هذه الأكياس في العظام المجوفة، وتصل أحياناً إلى العظام الصغيرة في أصابع القدمين، وهذا الجهاز من الأكياس الهوائية لا يساعد على خفة وزن الطير فحسب بل إنه أيضاً يضيف إلى الرئتين جهازاً إضافياً لجلب الهواء، أي أنه يزيد كفاءة التنفس، ويقوم بوظيفة التبريد ليخفف من حرارة الطائر في أثناء سرعته، وقد قدر أن الحمامة الطائرة تستخدم ربع ما يدخل جسمها من الهواء في التنفس، والثلاثة الأرباع الباقية للتبريد (١).

بالإضافة إلى ما سبق نجد الخالق قد جعل للطائر جسماً مغزلياً فلماذا؟ إن الجسم المغزلي ضرورة للطائر لأنه يسهل طيرانه في الهواء.

وللريش الذي يغطي جسم الطائر مزايا هامة تساعد على الطيران، فهو خفيف، وصلب، وناعم الملمس، مما يخفف نسبة الاحتكاك بالهواء إلى الحد الأدنى، كما توجد فيه فراغات هوائية مما يجعله خفيفاً مما يساعد الطائر على الطيران، كما يشكل الريش عازلاً يمنع تسرب الحرارة من جسم الطائر، ويمنع الماء من التسرب إلى جسمه إذا طار في جو ممطر أو سبح في الماء، والمتأمل في مناقير الطيور يجد عجباً فقد أعطى الخالق (سبحانه وتعالى) كل طائر منقاراً يلبي حاجته في الحصول على طعامه. فالطيور آكله الحشرات أعطاه منقاراً رقيقاً طويلاً كي تتمكن به من الوصول إلى الحشرات التي تختبئ في الشقوق الصغيرة في الأشجار وبين الصخور. أما الطيور التي تعيش حول الماء كالبط

(١) جون هـ. طرائف من عالم الحيوان، ترجمة عبد الحافظ حلمي، ص ١٥٨.

مثلاً، فغالباً ما تكون أطراف مناقيرها مثلثة على شكل منشار؛ مما يجعل منقارها بمثابة مصفاة تستعمل لفصل الماء عن مواد الطعام، أما الطيور آكلة اللحوم، كالصقور والبوم، فلها مناقير معقوفة وحادة جداً تمكنها من تمزيق قطع اللحم، بينما الطيور الآكلة للبذور والحبوب لها مناقير عريضة مخروطية الشكل.

وتشبه الأسماك الطيور في إنسيابية جسمها. وقد زودها الخالق (سبحانه وتعالى) بسائل مخاطي لزج يفرزه جلدها مما يجعلها تتحرك بسهولة في الماء. فالشكل الإنسيابي ولزوجة الجلد يقللان من مقاومة الماء لحركة السمك. وهناك عامل آخر يساعد على الحركة وهو وجود كيس هوائي يعرف بكيس العوم، فعندما تريد السمكة السباحة على مستوى قريب من سطح الماء يتنفخ الكيس، فتقل كثافة السمكة، ويسهل عليها أن تتحرك إلى أعلى، أما إذا أرادت أن تسبح على مستوى أعمق فتتقلص عضلات بطنها ضاغطة على الكيس، فيتقلص الكيس، وتزداد كثافة السمكة، فيسهل تحريكها إلى أسفل!

فسبحان الذي أحسن كل شيء خلقه.

وأحسن عطاء أعده المحسن لعباده الصالحين الجنة وما فيها من نعيم قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ (٤٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣) مُتَكِيمِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٥) فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطُّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٥٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَانَهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (٥٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩)

هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿١﴾ .

وقال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا﴾ (٢).

وقال رسول الله (ﷺ): قال الله تعالى: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت. ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. واقروا إن شئتم:

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٣) (٤).

وقال رسول الله (ﷺ): «أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم على أشد كوكب دري في السماء إضاءة، لا يبولون ولا يتغوطون، ولا يتفلون ولا يتمخضون، أمشاطهم الذهب، ورشحهم المسك، ومجامرهم الألوة - عود الطيب - أزواجهم الحور العين، على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً في السماء» (٥).
وأجل عطاء وأشرف إحسان في الجنة رؤية الحق (سبحانه وتعالى).

عن صهيب (رضي الله عنه) أن رسول الله (ﷺ) قال: «إذا دخل أهل الجنة، الجنة يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ فيكشف

(١) سورة الرحمن (٤٦ - ٦٠).

(٢) سورة النبأ (٣١ - ٣٦).

(٣) سورة السجدة آية ١٧.

(٤) متفق عليه (البخاري في أحاديث الأنبياء ومسلم في الجنة وصفه نعيمها).

(٥) متفق عليه (البخاري في أحاديث الأنبياء ومسلم في الجنة وصفه نعيمها).

الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم» (١).

والآيات والأحاديث في هذا الباب كثيرة.

ويقف المؤمن مشدوداً أمام عطاء الكريم وجوده وإحسانه، فهى عطاءات ونعم لا تعد ولا تحصى تسبغ حياته وتملأ وجوده وكيانه ولا يملك المرء إلا أن يلهج لسانه بشكر هذه النعم.

وقد بين لنا رسول الله (ﷺ) أن تكريم الإنسان وإحسان خلقه له شكر خاص يتمثل في التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وصلاة الضحى، والعدل بين الناس، وإعانتهم، والكلم الطيب، وكثرة الخطا إلى المساجد، وإمالة الأذى عن الطريق. والأحاديث التالية تبين ذلك:

عن أبى ذر (رضى الله عنه) أن رسول الله (ﷺ) قال: «يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة، فكل تسبيحة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تكبيرة صدقة وأمر بالمعروف صدق ونهى عن المنكر صدقة، ويجزىء من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى» (٢).

وعن أبى هريرة (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): «كل سلامى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس: تعدل بين الاثنين صدقة، وتعين الرجل في دابته، فتحمله عليها، أو ترفع له عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة» (٣).

(١) رواه البخارى (فى التفسير) ومسلم فى الإيمان).

(٢) رواه مسلم (٧٢٠).

(٣) متفق عليه، البخارى ٢٢٦/٥، ومسلم (١٠٠٧/١٠٠٩).

وعن عائشة (رضي الله عنها) قالت: قال رسول الله (ﷺ) «إنه خلق كل إنسان من بنى آدم علي ستين وثلاثمائة مفصل، فمن كبر الله، وحمد الله، وهلل الله، وسبح الله، واستغفر الله، وعزل حجراً عن طريق الناس أو شوكة أو عظماً عن طريق الناس، أو أمر بمعروف أو نهى عن منكر، عدد الستين والثلاثمائة، فإنه يمشى يومئذ وقد زحزح عن النار» (١).

وجود الله عز وجل وإنعامه وإحسانه علي الإنسان بالأموال والأرزاق تستوجب شكر هذه النعم بالبذل والإنفاق منها، ومع أن البذل والإنفاق شكر من الإنسان للكريم الجواد إلا أن الله عز وجل رتب أجراً للإنسان علي هذا البذل وذلك أيضاً من كرمه وجوده وإحسانه . فهو يقابل الشكر بالشكر والمزيد.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (٣).

وفي البذل والسخاء فلاح الدنيا والآخرة، قال رسول الله (ﷺ): «السخي قريب من الله، قريب من الناس، قريب من الجنة، بعيد من النار، والبخل بعيد من الله، بعيد من الناس، بعيد من الجنة، قريب من النار، ولجاهل سخي أحب الله تعالى من عابد بخل» (٤).

والكرم والسخاء يفتحان باب السعة والنماء، قال رسول الله (ﷺ): «ثلاثة أقسم عليهن. ما نقص مال عبد من صدقة، ولا ظلم عبد مظلمة

(١) رواه مسلم . (٢) سورة البقرة آية ٢٧٤ .

(٣) سورة إبراهيم آية ٧ .

(٤) رواه مسلم .

صبر عليها، إلا زاده الله بها عزاء، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر» (١).

فمن يئذل اليوم القليل يعود بذلة عليه بالخير الكثير.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (٢).

وفى الحديث النبوى الشريف قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً» (٣).

والانفاق والبذل يمحو الذنوب ويمسح الخطايا، فإذا انزلق المسلم إلى ذنب وشعر بالبعد عن خالقه، فطهوره من ذلك بالجوود والسخاء فيعطى من ماله الفقراء والمحتاجين حتى يعود إليه نقاء وضياء.

قال تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٤).

وعن أبى ذر (رضى الله عنه) أن رسول الله ﷺ قال: «تعبد عابد من بنى إسرائيل فعبد الله في صومعته، فقال: «لو نزلت فذكرت الله فازددت خيراً فنزل معه رغيف أو رغيفان، فبينما هو في الأرض لقيته امرأة فلم يزل يكلمها وتكلمه حتى غشيها، ثم أغمى عليه. فنزل الغدير يستحم، فجاءه سائل، فأوما إليه أن يأخذ الرغيفين، ثم مات.. فوزنت عبادة ستين سنة بتلك الزنية فرجحت الزنية بحسناته ثم وضع الرغيف أو الرغيفان مع

(١) رواه ابن ماجه والترمذى فى كتاب الزهد ٥٦٢/٤، وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) سورة سبا آية ٣٩.

(٣) رواه البخارى (١٤١/٦) ومسلم (١٠١٠).

(٤) سورة البقرة آية ٢٧١.

حسناته، فرجحت حسناته، فغفر له» (١).

والصدقة والبذل لهما أثر طيب في معاش الإنسان ومعاذه، ففي الحديث النبوي الشريف قال رسول الله ﷺ: «إن الصدقة لتطفيء غضب الرب وتدفع ميتة السوء» (٢).

وروى عن عائشة (رضي الله عنها) أنهم ذبحوا شاة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ما بقي منها؟ قالت: ما بقي منها إلا كنفها. قال: بقي كلها إلا كنفها» (٣).

وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ (٤). وأجدر الناس بالتصدق عليهم أقرباء المسلم وذوو رحمة.

قال رسول الله ﷺ: «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذوي الرحم ثنتان: صدقة وصل» (٥).

وعن حكيم بن حزام (رضي الله عنه) أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: عن الصدقات أيها أفضل؟ قال: على ذي الرحم الكاشح» (٦).

والكاشح هو الذي يضمّر عدواته في كشحه، وهو خصمه، والحديث يعني أن أفضل الصدقة على ذي الرحم القاطع المضمّر العداوة في باطنه.

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (٢٩٨/١).

(٢) رواه الترمذي (في الزكاة) وابن حبان في صحيحه في الإحسان وقال الترمذي: حديث حسن غريب من هذا الوجه ورواه الطبراني وإسناده حسن.

(٣) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

(٤) سورة النحل آية ٩٦.

(٥) رواه الترمذي وحسنه.

(٦) رواه أحمد والطبراني، وإسناده أحمد حسن.

«اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وأرضنا وارض عنا»^(١).

«اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت، المنان، بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم»^(٢)، إني أسألك الجنة وأعوذ بك من النار.

اللهم منّ علينا، وقنا عذاب السموم، إنك أنت البر الرحيم.

* * *

(١) رواه الترمذى والحاكم وصححه، وحسنه عبد القادر الأرناؤوطى فى تحقيقه لجامع الأصول برقم / ٨٨٤٧.

(٢) رواه أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود وفى صحيح النسائى ٨٩/١.

القابض الباسط

٦٠ ٦١

القابض اسم الفاعل من قبض يقبض فهو قابض ، « والله يقبض ويبسط » أى يقتدر على من يشاء ويتوسع على من يشاء على حسب ما يرى من المصلحة لعباده . فالقبض ههنا : التقتير والتضييق . والبسط التوسعه في الرزق والإكثار منه . فالله عز وجل القابض الباسط يقتدر على من يشاء ويوسع على من يشاء .

والباسط أيضاً : باسط الشيء الذي ليس بمفروش يبسطه ويفرشه كما بسط الله الأرض للأنام وبث فيها أقواتها (١) .

فالقَبْض هو التضييق والبسط هو التوسيع والنشر فالله يقبض ويبسط أى يسلب تاره ويعطى تاره أو يسلب قوماً ويعطى قوماً أو يجمع مرة ويفرق أخرى أو يميت ويحيى (٢) .

ويحسن أن يقرن بين هذين الاسمين وأن يوصل بينهما ليكون ذلك أنبأ عن القدرة وأدل على الحكمة . كقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَبْضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٣) .

وإذا ذكرت القابض مفرداً عن الباسط كأنك قد قصرت بالصفة على المنع والحرمان ، وإذا وصلت أحدهما بالآخر فقد جمعت بين الصفتين منبئاً عن وجود الحكمة منهما (٤) .

(١) أبو القاسم الزجاجي ، مرجع سابق ، ص ٩٧ ، ص ٩٩ .

(٢) الراغب الأصفهاني ، مرجع سابق ، ص ٣٩١ .

(٣) سورة البقرة آية ٢٤٥ . (٤) الخطابي ، شأن الدعاء ، ص ٥٨ .

فالله سبحانه وتعالى يقبض بعدله وحكمته، ويبسط برحمته ولطفه.

قال ابن القيم :

هو قابضٌ هو باسطٌ هو خافضٌ هو رافعٌ بالعدل والإحسان

والله عز وجل يقبض الأرواح عن الأشباح عند الممات، ويبسط الأرواح في الأجساد عند الإحياء، ويقبض الصدقات من الأغنياء ويبسط الأرزاق للضعفاء، ويقبض القلوب قضيقتها. ويبسطها بما يتقربه إليها من برّه ولطفه وجماله. فهو القابض للأرزاق والأرواح والنفوس الباسط للأرزاق والرحمة والقلوب.

وقد ورد هذان الاسمان في الحديث النبوي قال رسول الله ﷺ «إن الله تعالى هو الخالق، القابض الباسط الرزاق المسعر» (١).

والله عز وجل يبسط الأرزاق ويبسطها بمقتضى حكمته ولصالح العباد. وفي القرآن الكريم قصتان تبيان أن بسط الأرزاق وسعتها قد يكون نعمة لا نعمة.

القصة الأولى قصة صاحب الجنتين قال تعالى : ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا

رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لَأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كَلَّمَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أَكْلَهُمَا وَلَمْ يُظْلَمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي

(١) أخرجه الترمذي في كتاب البيوع وقال : حديث حسن صحيح كما أخرجه أبو داود وابن ماجه وأحمد من حديث أنس بن مالك، وانظر : صحيح الجامع للألباني حديث /

لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتُ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَيُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاءُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ (١).

فصاحبُ الجنتين أمّودجٌ للرجل الثرى الذى بسط الله له في الرزق فأذهلته الثروة وأبطرته النعمة حتى نسى الباسط الذى بسط له كل هذا الرزق . فقد أعطاه الباسط سبحانه وتعالى جنتين مثمرتين من الكروم ، ومحفوفتين بسياج من النخيل تتوسطها الزروع ويتفجر بينهما نهر . فامتلأت نفسه بما في الجنتين وتعالى على صاحبه الفقير ، ونسى الله عز وجل ، ونسى أن يشكره على ما أعطاه ثم أنكر قيام الساعة وفي ظنه لو قامت فهو لا بد أن يجد رعاية في الآخرة كما بسط له في رزقه في الدنيا ! .

إن بسط الرزق هنا اختبار وامتحان ، وقد رسب الرجل في هذا الاختبار بجداره ، فصار الرزق الكثير والمال الوفير محنة لا منحه ، وشقاء لا سعادة . فعندنا يقبض الله عز وجل الرزق ويضيقه على هذا وأمثاله فلا شك أن ذلك نعمة من الله عز وجل .

أما القصة الثانية فقصه قارون : وقد جاءت في سورة القصص قال تعالى : ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ (١).

فالقصة تبدأ يتعين اسم بطلها «قارون» وتحدد قومه «قوم موسى» وتقرر مسلكه مع قومه ، وهو مسلك البغى «فبغى عليهم» وتشير إلى سبب هذا البغى إنه الشراء :

﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ ثم تمضى القصة بعد ذلك في استعراض الأحداث والأقوال والانفعالات التي صاحبها في النفوس .

لقد كان قارون من قوم موسى ، فآتاه الله مالا كثيرا ، فبغى على قومه . ووجد من قومه من حاول أن يرده عن هذا البغى ، ويرجعه إلى النهج القويم :

﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ (٧٦) وَأَبْغَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَسْ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٢).

فجاء رده جملة واحدة تحمل في طياتها الفساد والإفساد ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ (٣) . لقد نسى مصدر النعمة وحكمتها ، وفتنه المال وأعماه الشراء . فهذا المشهد من القصة يتجلي فيه البغى والتطاول ،

(١) سورة القصص : آية ٧٦ .

(٢) سورة القصص آية ٧٧ .

(٣) القصص ٧٨ .

والإعراض عن النصيح والإصرار على الفساد، والاعتزاز بالنعمة، والكفر بواهبها ومانحها.

ثم يجيء المشهد الثاني حين يخرج قارون على قومه وهو في كامل زينته وترفه.

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ (١).

لقد تهاوت نفوس طائفة من الناس وطارت قلوبهم أمام ما أوتي قارون، وتمنوا مثله واستيقظ الإيمان في قلوب فريق آخر فاعتزوا بإيمانهم ويقينهم. فثواب الله خير من هذه الزينة، وما عند الله خير مما عند قارون.

وعندما تبلغ فتنة المال ذروتها، وتتهاوي أمامها النفوس، تتدخل القدرة الإلهية لتضع حداً للفتنة، وترحم الضعفاء من إغرائها، وتحطم الغرور والكبرياء تحطيماً:

﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ (٢).

هكذا في لمح البصر ابتلعت الأرض وابتلعت داره؟ وهوى في بطنها بعد أن علا فيها واستطال فوقها. فهوى فيها ضعيفاً عاجزاً لا ينصره أحد، ولا ينتصر بجاه ولا مال.

(١) سورة القصص آية (٧٩-٨٠).

وهوت معه الفتنة الطاغية التي جرفت كثيراً من الناس فردتهم الضربة القاضية إلى الله فوقفوا يحمدون الله أن لم يستجب لهم، ولم يؤتهم مثل ما أوتى قارون:

﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَآنَ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بَنَاهُ وَيَكَآنَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ (١).

فالشراء ليس آية على رضى الله . فهو يوسع الرزق على من يشاء من عباده ويضيقه لأسباب أخرى غير الرضى والغضب ولو كان دليل رضاه ما أخذ قارون هذا الأخذ الشديد العنيف . إنما هو الابتلاء الذي قد يعقبه البلاء والفناء .

ويسدل الستار على هذه القصة، وقد انتصرت القلوب المؤمنة بتدخل القدرة السافرة، وقد رجحت قيمة الإيمان في كفة الميزان: فيأتى هذا التعقيب في أنسب أوان (٢) .

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٣) .

فقبض الرزق ليس دليلاً على الغضب، وبسطه ليس دليلاً على الرضا، وإنما هى الحكمة العليا التي تبتلى هذا بالقبض وذاك بالبسط .

﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلَا

(١) سورة القصص آية ٨٢

(٢) سيد قطب . فى ظلال القرآن، ح ٥، ص ٢٧١٠، ص ٢٧١٤ .

(٣) سورة القصص آية ٨٣ .

تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا (١٩) وَتَحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (١).

وقد يكون في القبض الخير الكثير للعبد، فالقبض وأن كان شراً في ظاهره إلا أنه يكون سبباً في الخير وكثيراً ما نسمع هذه العبارات : الإخفاق أساس النجاح، الشدائد تخلق لرجال، الألم يصوغ الإنسان.

فقبض الصحة عن الإنسان، وابتلاؤه بالمرض قد يكون فرصة عظيمة ترد الإنسان عن شرور كثيرة قد تؤدي بحياته كلها.

يقول أحد الأطباء الكبار: «إنَّ المرض يتيح لنا أن ندر ما في الدنيا، إنه يمنحنا فرصة ثانية للانتفاع بالصحة وحدها، بل بالحياة نفسها، إن المرض يطرد من رؤوسنا سخافات كثيرة، ويردنا إلى التواضع والتطامن ويرينا أنفسنا على حقيقتها، وبأقدارها الصحيحة، وأبرز ما يكون الأثر النافع للمرض حين يعترينا منه جزع، وكثيراً ما أصلح التيفود أو الالتهاب الرئوي حال السكيرين واللصوص والقتلة (٢).

وكثير من الناس لا يهتدي إلى نفسه ولا يعرف ربه ولا يفطن إلى هدف حياته إلا حين يضيق عليه الباب فيبتلى بالمرض ويلزم الفراش، فحينئذ يقول: «بعد أيام قليلة تقضى في الفراش يصبح الزمن ترفاً لم نكن نتصوره، فهناك وقت للتفكير، ووقت للاستمتاع، ووقت للإبداع والابتكار، وأخيراً وقت للتفكير في خير ما في الطبيعة الإنسانية وأعمقه، المرض من أعظم مزايا الحياة، فهو يهمس في الأذن بأن مصير

(١) سورة الفجر آية (١٥ - ٢٠).

(٢) عبد الرزاق نوفل: القرآن والعلم الحديث، ص ٤٤.

الإنسان مرتبط بأسمى القوى» (١).

وكم قى الحياة من قادة وأدباء وعلماء كان مرضهم سبباً في نجاحهم المنقطع النظير. ولدى كل منا الكثير من القصص في هذا الميدان. فالمرض قد يكون خيراً من الصحة للعبد، والفقر قد يكون خيراً من الغنى.

قال تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٢).

فالمؤمن يرضى بما قدره الله عز وجل له؛ لأنه لا يعرف مصلحة نفسه من كل وجه، والله عز وجل يعلم ما يصلح عبده، ومن ثم فلا يجوز اتهامه سبحانه وتعالى في قضائه. وإذا رضى العبد بما قدره الله عز وجل له انقلبت الشدة نعمة، وتحولت المحنة إلى منحة.

وإذا رضى العبد بالرزق القليل رضى الله منه بالعمل اليسير، وسلامة القلب مع الرضا؛ والسخط يزرع في القلب الحسد والغش والدغل والغل مع تلون العبد وعدم ثباته مع الله (عز وجل)، بل قد يفتح السخط باب الشك في الله (عز وجل) وقضائه وقدره وحكمته وعلمه، فقل أن يسلم الساخط من شك يداخل قلبه ويتغلغل فيه وإن كان لا يشعر به.

والشيطان يظفر بالإنسان غالباً عند السخط والشهوة. فهناك يلقي عليه حباله ويصطاده، وكلما ازداد سخطاً تمكن الشيطان من ناصيته وسلس له قيادة. فنجد العبد يقول مالا يرضى الرب، ويفعل مالا

(١) المرجع السابق، ص ٤٤

(٢) سورة البقرة آية ٢١٦.

يرضيه . بل وينوى ما لا يرضيه ، ولهذا قال النبي ﷺ عند موت ابنه إبراهيم «إِنَّ الْعَيْنَ لَتَدْمَعُ . وَإِنَّ الْقَلْبَ لَيَحْزَنُ . وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يُرْضِي رَبَّنَا» فإن موت البنين من العوارض التي توجب للعبد السخط على القدر فأخبر النبي ﷺ : أنه لا يقول في هذا المقام إلا ما يرضي ربه تبارك وتعالى .

والذنوب والمعاصي كلها أساسها عدم الرضا ، والطاعات كلها أساسها الرضا ، فمن رضى بما قسم الله له من مال اطمأنت نفسه وشكر ربه ، ومن سخط بقسمة الله له . جنح إلى المعاصي وتغلغل في نفسه الأحقاد ، فإبليس لم يرض بحكم الله ولم يسجد لآدم . وآدم لم يرض بما أبيح له من الجنة فأكل من الشجرة . وانبثقت من هنا كل المعاصي .

والذي يتأمل ما قدره الله عز وجل ويكرهه العبد يجده لا يخلو إما أن يكون عقوبة على ذنب ، ومن ثم فهو دواء لمرض لولا تدارك الحكيم إياه بالدواء لترامى به المرض إلى الهلاك . أو يكون سبباً لنعمة لا تنال إلا بذلك المكروه . فالمكروه ينقطع ويتلاشى . وما يترتب عليه من النعمة يدوم ولا ينقطع .

فالراضى عن الله عز وجل واقف مع اختيار الله له ، وما أجمله من اختيار لو عرف العبد ربه ، وعرف نفسه :

وقد اجتمع وهيب بن الورد ، وسفيان الثوري ، ويوسف بن أسباط .

فقال الثوري : قد كنت أكره موت الفجاءة قبل اليوم : فوددت أني ميت .

فقال له يوسف : ولَمْ؟ فقال : لما أتخوف من الفتنة .

فقال يوسف : لكنني لا أكره طوال البقاء .

فقال الثوري: ولم تكره الموت؟

قال: لعلني أصادف يوماً أتوب فيه وأعمل صالحاً.

ف قيل لو هيب: أي شيء تقول أنت؟

فقال: أنا لا أختار شيئاً، أحبّ ذلك إلىّ أحبّة إلى الله.

فقبل الثوري بين عينيه. وقال: روحانية ورب الكعبة^(١).

ولله درّ القائل:

العبد ذو ضجر والرب ذو قدر * والدهر ذو دول والرزق مقسوم

والخير أجمع فيما اختار خالقنا * وفي اختيار غيره اللوم والشوم

وكان عمران بن حصين (رضي الله عنه) قد استسقى بطنه، فبقى ملقى على ظهره مدة طويلة، لا يقوم ولا يقعد، وقد نقب له في سريره موضع لحاجته، فدخل عليه مطرف بن عبد الله الشخير. فجعل يبكي لما رأى من حالته. فقال له عمران: لم تبك؟ فقال: لأنني أراك على هذه الحال الفظيعة. فقال: لا تبك. فإنّ أحبه إلىّ أحبّه إليه. وقال: أخبرك بشيء، لعل الله أن ينفعك به. وأكنتم علىّ حتى أموت. إن الملائكة تزورني فأنس بها. وتسلم علىّ فأسمع تسليمها^(٢).

ولما قدم سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه) إلى مكة. وقد كُفّ بصره. جعل الناس يهرعون إليه ليدعوا لهم. فجعل يدعو لهم. قال عبد الله بن السائب: فأتيته وأنا غلام. فتعرفت إليه فعرفني، فقلت، يا عم، أنت تدعو للناس فيشفون. فلو دعوت لنفسك لرد الله عليك بصرك. فتبسم. ثم قال: يا بني، قضاء الله أحبّ إلىّ من بصرى.

(١) ابن القيم الجوزية، مدارج السالكين، ج ٢، ص ٢٥، ص ٢١٥ (بتصرف).

(٢) ابن الجوزي، صفه الصفوة، ج ١، ص ٦٨٢.

ففضاءُ الله لعبده كلّ خير ساءه ذلك القضاء أم سره ففضاؤه لعبده المنع عطاء، والمحنة نعمة، والبلاء عافية وإن كان في صورة بلية.

عن عثمان بن الهيثم قال : كان رجل بالبصرة من بنى سعد، وكان قائداً من قواد عبيد الله بن زياد فسقط عن السطح فانكسرت رجلاه. فدخل عليه أبو قلابة يعودُه فقال له : أرجو أن تكون خيرَه . فقال له : يا أبا قلابة وأى خير في كسر رجلني جميعاً؟ فقال : ما ستر الله عليك أكثر.

فلما كان بعد ثلاث ورد عليه كتاب ابن زياد أن يخرج فيقاتل الحسين . فقال للرسول : قد أصابني ما ترى فما كان إلا سبعاً حتى وافى الخبر بقتل الحسين : فقال الرجل رحم الله أبا قلابة لقد صدق، إنه كان خيرة لي^(١).

وأعظم ما في الرضا أنه يثمر رضا الله عز وجل عن العبد، ففي الحديث، قال رسول الله ﷺ: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضى فله الرضى، ومن سخط فله السخط»^(٢).

«اللهم لك الحمد كلّهُ، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لمن أضللت ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت ولا مقرّب لما باعدت، ولا مباعد لما قرّبت، اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك، اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول، اللهم إني أسألك النعيم يوم العيلة، والأمن

(١) المرجع السابق، ج ٣، ص ٢٣٨.

(٢) رواه الترمذی وقال : حديث حسن (برقم / ٢٣٩٨).

يوم الخوف، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين» (١).

«اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق أحيني ما علمت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا علمت الوفاة خيراً لي، اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب، والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الرضا والغضب، وأسألك القصد في الغنى والفقر، وأسألك نعيماً لا ينفد، وأسألك قرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضا بعد القضاء، وأسألك برد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك، في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين» (٢).

* * *

(١) رواه أحمد والحاكم، والبخاري في الأدب المفرد وصححه الألباني في تخريج فقه السيرة ص ٢٨٤، وفي صحيح الأدب المفرد للبخاري برقم ٥٣٨.

(٢) رواه النسائي وأحمد ٣٦٤/٤ وإسناده جيد، وانظر صحيح النسائي ١/٢٨٠، ٢٨١.

الحكيم

٦٢

الحكيم من أحكم الأفعال وأتقنها فلا تفاوت فيها ولا اضطراب، ومنه قيل: «بناء محكم» أى قد أتقن وأحكم. فالله (عز وجل) حكيم كما وصف نفسه بذلك لإتقان أفعاله واتساقها وانتظامها وتعلق بعضها ببعض (١).

فهو سبحانه وتعالى حكيم يحكم خلق الأشياء بإتقان التدابير فيها، وحكم التقدير لها، فالحكمة في حقه (سبحانه) هى معرفة الأشياء وإيجادها على غاية من الإحكام والإتقان والكمال.

قال الخطابى: «معنى الإحكام لخلق الأشياء، إنما ينصرف إلى إتقان التدبير فيها، وحسن التقدير لها، إذ ليس كل الخليفة موصوفاً بوثاقة البنية، وشدة الأسر كالبقعة، والنملة، وما أشبهها من ضعاف الخلق، إلا أن التدبير فيهما، والدلالة بهما على كون الصانع وإثباته ليس بدون الدلالة عليه بخلق السموات والأرض والجبال وسائر معازم الخليفة. وكذلك هذا في قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ (٢) لم تقع الإشارة به إلى الحسن الرائق في المنظر، فإن هذا المعنى معدوم في القرد والخنزير والدب وأشكالها من الحيوان، وإنما ينصرف المعنى فيه إلى حسن التدبير في إنشاء كل شئ من خلقه على ما أحب أن ينشئه عليه وإبرازه على الهيئة التى أراد أن يهيئه عليها كقوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ (٣).

(١) الزجاجى، مرجع سابق، ص ٦٠.

(٢) سورة الفرقان، آية: ٢.

(٣) سورة السجدة، آية: ٧.

فالله سبحانه وتعالى حكيمٌ موصوفٌ بكمال الحكمة يضع الأشياء في مواضعها وينزلها منازلها اللائقة بها في خلقه وأمره، فلا يتوجه إليه سؤال، ولا يقدر في حكمته مقال.

وحكمته نوعان:

أحدهما: الحكمة في خلقه، فإنه خلق الخلق بالحق، وكان غايته والمقصود به الحق، خلق المخلوقات كلها بأحسن نظام، ورتبها أكمل ترتيب، وأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به، بل أعطى كل جزء من أجزاء المخلوقات وكل عضو من أعضاء الحيوانات خلقته وهيئته، فلا يرى أحد في خلقه خللاً ولا نقصاً، ولا فطوراً.

النوع الثاني: الحكمة في شرعه وأمره، فإنه تعالى شرع الشرائع وأنزل الكتب وأرسل الرسل ليعرفه العباد، ويعبدوه، فأى حكمة أجل من هذا؟ وأى فضل وكرم أعظم منه؟! وقد اشتمل شرعه ودينه على كل خير يملأ القلوب علماً، وإيماناً ويشمر كل خلق جميل وعمل صالح.

وأوامره ونواهيها محتوية على غاية الحكمة والصلاح والإصلاح للدين والدنيا فإنه لا يأمر إلا بما مصلحته خالصة أو راجحة، ولا ينهى إلا عما مضرته خالصة راجحة^(١).

وقد جمع ابن القيم (رحمه الله) هذين النوعين في قوله:

(١) آل سعدى، مرجع سابق، ص ٤٨: ص ٥٤.

وهو الحكيمُ وذلك من أوصافه
والحكمة العليا على نوعين أيضاً
إحداهما في خلقه سبحانه
إحكام هذا الخلق إذ إيجاده
وصدوره من أجل غايات له
والحكمة الأخرى فحكمة شرعه
غاياتها اللائي حمدن وكونها
نوعان أيضاً ما هما عدمان
حصلاً بقواطع البرهان
نوعان أيضاً لا يفرقان
في غاية الإحكام والإتقان
وله عليها حمد كل لسان
أيضاً وفيها ذاك الوصفان
في غاية الإتقان والإحسان

وقد ذكر اسم الحكيم في القرآن الكريم أكثر من تسعين مرة اقترن في
أكثرها بالعزیز وبالعليم . مما يدل على أن حكمته صادرة عن عزة
وعلم .

قال تعالى ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (١) .

﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ (٣) .

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (٤) .

كما اقترن أيضاً هذا الاسم بالخبير ، وبالتواب ، وبالحميد ،
وبالعلی ، وبالواسع .

قال تعالى : ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ (٥) .

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ (٦) .

(١) سورة آل عمران / ١٢٦ . (٢) سورة الأنفال / ٤٩ . (٣) سورة النمل / ٦ .

(٤) سورة الفتح / ٤ . (٥) سورة الأنعام / ٨١ . (٦) سورة النور / ١٠ .

﴿ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (١).

﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ ﴾ (٢).

﴿ وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴾ (٣).

وأثار حكمته (سبحانه وتعالى) في مخلوقاته لا يحصيها العد :

١- عندما ينظر الإنسان إلى الأرض التي يعيش عليها يجدها كرة معلقة في الفضاء تدور حول نفسها، فيكون في ذلك تتابع الليل والنهار، وهي تسبح حول الشمس مرة في كل عام فيكون في ذلك تتابع الفصول، الذي يؤدي بدوره إلى زيادة مساحة الجزء الصالح للسكنى من سطح كوكبنا، ويزيد من اختلاف الأنواع النباتية أكثر مما لو كانت الأرض ساكنة، ويحيط بالأرض غلاف غازي يشتمل على الغازات اللازمة للحياة ويمتد إلى إرتفاع كبير (يزيد على ٥٠٠ ميل) ويبلغ هذا الغلاف الغازي من الكثافة درجة تحول دون وصول ملايين الشهب القاتلة إلينا، والغلاف الجوي الذي يحيط بالأرض يحفظ درجة حرارتها في الحدود المناسبة للحياة ويحمل بخار الماء من المحيطات إلى مسافات بعيدة داخل القارات، حيث يمكن أن يتكاثف مطراً يحيى الأرض بعد موتها.

وهذا الغلاف يحفظ الأكسجين اللازم للحياة، وهو موجود بنسبة مقدرة تقديراً (٢١٪ من الهواء)، ولو زادت هذه النسبة إلى ٤٠٪ مثلاً لاحتترقت كل المواد القابلة للاحتراق ولما استطاع الإنسان إن يطفئ حريقاً، ولو هبطت هذه النسبة إلى ١٠٪ مثلاً لانتهد الحياة من على سطح الأرض فسبحان الحكيم القدير.

(١) سورة فصلت / ٤٢ . (٢) سورة الشورى / ٥١ .

(٣) سورة النساء / ١٣٠ .

ولو نظرنا إلى الماء لوجدنا العجب العجيب فهو يمتاز بخواص تعمل على صيانة الحياة، وتدل على الحكمة والتدبير، فللماء درجة ذوبان مرتفعه، وهو يبقى سائلاً فترة من الزمن طويلة. وله حرارة تصعيد بالغة الارتفاع، وهو بذلك يساعد على بقاء درجة الحرارة فوق سطح الأرض عند معدل ثابت، ويصونها من التقلبات العنيفة ولولا كل ذلك لتضاءلت صلاحية الأرض للحياة إلى حد كبير، ولقلت متعة النشاط الإنساني على سطح الأرض بدرجة عظيمة.

وللماء خواص أخرى فريدة تدل على الحكمة فقد رسم وصمم بما يحقق صالح المخلوقات، فالماء هو المادة الوحيدة المعروفة التي تقل كثافتها عندما تتجمد، ولهذه الخاصية أهمية كبرى بالنسبة للحياة، إذ بسببها يطفو الجليد على سطح الماء عندما يشتد البرد بدلاً من أن يغوص إلى قاع المحيطات والبحار والأنهار، ويكون تدريجياً كتلة صلبة لا سبيل إلى إخراجها وإذابتها. ويكون الجليد الذي يطفو على سطح البحر طبقة عازلة تحفظ الماء الذي تحتها في درجة حرارة فوق درجة التجمد، وبذلك تبقى الأسماك وغيرها من الحيوانات المائية حية. وللماء - أيضاً - توتر سطحي موفع يساعد على نمو النبات بما ينقله إليه من المواد الغذائية التي بالتربة والماء أكثر السوائل المعروفة إذابة لغيره من الأجسام، وهو بذلك يلعب دوراً كبيراً في العمليات الحيوية داخل أجسامنا بوصفه مركباً أساسياً من مركبات الدم^(١).

وكل هذه الخواص العجيبة للماء ما هي إلا أثر قدرة الحكيم (سبحانه) وهي تدل على عناية الخالق سبحانه وتعالى بخلقه، واهتمامه

(١) نخبة من العلماء الأمريكيين، الله يتجلّى في عصر العلم، ترجمة الدمرداش سرحان، ص ٧، ص ٤، ص ٤٥.

بصالحهم ، وبما ينفعهم .

أما الأرض اليابسة فهي بيئة ثابتة لحياة كثير من الكائنات ، فالتربة تحتوى العناصر التى يمتصها النبات ، ويمثلها ويحولها إلى أنواع مختلفة من الطعام يفتقر إليها الحيوان ، ويوجد كثير من المعادن قريباً من سطح الأرض ، مما هيأ السبيل لقيام الحضارة الراهنة ونشأة كثير من الصناعات والفنون . فالأرض مهياة على أحسن صورة للحياة ، ولا شك أن ذلك من تيسير حكيم خبير^(١) .

٢- وإذا نظرنا إلى عالم الحشرات من حولنا نجد عجباً ، فتكاثر هذه الحشرات كفيل بالقضاء على الجنس البشرى ولكن الحكيم سبحانه وتعالى قد وضع ضوابط وموازين لكبح جماح هذه الحشرات ، فلم يجعل لهذه الحشرات رتتين مثل الإنسان وإنما جعل لها أنابيب تتنفس عن طريقها ، وحين تنمو هذه الحشرات وتكبر ، لا تقدر تلك الأنابيب أن تجاريها في نسبة تزايد حجمها ، ومن ثم لم توجد قط أطول من بضع بوصات ، ولم يطل جناح حشرة إلا قليلاً . وهذا الحد من نمو الحشرات منعها من السيطرة على العالم ، ولولا وجود هذا الضابط ، لما أمكن وجود الإنسان على ظهر الأرض ، وكيف يوجد الإنسان وأمامه الزناير في حجم الأسود ، والعناكب في حجم الفيلة^(٢) ! .

٣- وهذا التوازن الحكيم ليس قاصراً على الحشرات ، فالطائر المعروف باسم (كاسر العظام) تضع الأنثى زوجين من البيض لا غير وتضع أنثى النعام عشرين بيضة ومع ذلك فإن العديدين يبقيان متساويين تقريباً مع زيادة بسيطة في عدد كاسر العظام .

(١) المرجع السابق ، ص ٧ .

(٢) كريستى موريسون ، العلم يدعو للإيمان ، ترجمة محمود صالح الفلكى ، ص ١٦١ .

والطائر المعروف باسم (نورس فليمير البحرى) لا تضع أنثاه إلا بيضة واحدة، والعصفور الدورى تضع أنثاه من أربع إلى ست بيضات، ومع ذلك فإن عدد الطائر (نورس) أكثر الطيور في العالم كله.

وبعض أنواع الذباب تضع الأنثى مئات البيوض، مع أن ذبابة الخيل لا تضع إلا بيضة واحدة ومع ذلك فهي متساوية العدد مع الذباب.

فمن الذي أوجد هذا التوازن الدقيق المحكم؟!

٤. والواقعتين التاليتين مثال بارز علي هذا التوازن المحكم، فمنذ سنوات عديدة زرع نوع من الصبار في استراليا كسياج وقائي. ولكن هذا الزرع مضى في سبيله حتى غطى مساحة تقرب من مساحة إنجلترا، وزاحم الناس، وأتلف مزارعهم، ولم يجد الأهالي وسيلة لصد هذا الجيش الكاسح من الزرع الصامت، وطاف علماء الحشرات بنواحي العالم حتى وجدوا أخيراً حشرة لا تعيش إلا على ذلك الصبار، ولا تتغذي بغيره، وهي سريعة الانتشار وليس لها عدو يعوقها في استراليا، وما لبثت هذه الحشرة حتى تغلبت على الصبار، ثم تراجعت، ولم يبق منها سوى بقية قليلة للوقاية تكفى لصد الصبار من الانتشار إلى الأبد^(١).

وفي إحدى مناطق الجهات الجنوبية الغربية من الولايات المتحدة، كان يعيش نوع من الأيائل، يسمى (آيل البعل) طعامه الرئيسى، نوع من الورد البرى، أما الأيائل نفسها فهي طعام أسد الجبل، فإذا تركت هذه الثلاثة وشأنها، ظل عدد كل نوع منها ثابتاً دون أن يطرأ تغيير

(١) الموضع السابق، ص ١٦٠.

كبير، فلنفرض مثلاً أن عدد الأيائل قد زاد فجأة لسبب ما، فإن ذلك سوف يستتبع حتماً ازدياد عدد الأسود الجبلية، لأنها سوف تجد وفرة من الطعام الذي تأكله، ولكن سوف يحدث في نفس الوقت أن الورد البرى سوف يصبح شحيحاً في تلك المنطقة. ولذلك فإن عدد الأيائل سوف يعود إلى التناقص شيئاً فشيئاً.

وقد قررت حكومة الولايات المتحدة يوماً أن تحمى أيائل البعل، بقتل الأسود الجبلية في المنطقة. فسرعان ما تكاثرت الأيائل حتى أتت على الورود البرية كلها، ثم تحولت إلى الأشجار الصغيرة، وشجيرات الأرتيميزيا، وحتى هذه لم تكفها فمات آلاف منها جوعاً، وتعلمت الحكومة من هذا درساً واقعياً، وأخذت تدعو الناس إلى عدم الإخلال بتوازن الطبيعة^(١).

فمن الذي أوجد هذا النظام المحكم المتوازن؟

٥- وانظر إلى فم الحيوانات المفترسة كالأساد والذئاب تجد أن الحكيم (سبحانه) قد زودها بأنياب قاطعة، وأسنان حادة، وما ذاك إلا لأن طعامها هو ما تفترسه من كائنات لا بد من مهاجمتها، وقد زودت في أرجلها بعضلات قوية، وبأظافر ومخالب حادة لاستعمالها في الهجوم. أما معدتها فقد حوت الأحماض والمواد الهاضمة للهجوم.

أما الحيوانات التي تعيش على المراعى فقد صممت وأحكمت أجهزتها بما يتناسب مع حاجتها: فأفواهها واسعة نسيياً، وقد تجردت من الأنياب القوية والأضراس الصلبة، وأعطيت بدلاً منها الأسنان للقمض والقطع، فهي تأكل الحشائش والنباتات بسرعة، وتبتلعها دفعة

(١) ابن خليفة عليوى، مرجع سابق، ص ٢٠٧.

واحدة لتنزل إلى أعجب جهاز للهضم فالطعام الذي تأكله ينزل إلى الكرش وهو مخزن له ، فإذا ما انتهى عمل الحيوان وجلس للراحة ذهب الطعام من الكرش إلى تجويف آخر ، ثم عاد إلى الفم ليمضغ مضغاً جيداً ، حيث يذهب بعد ذلك إلى تجويف ثالث ثم رابع . وهذه العملية صممت لفائدة الحيوان ، لأن العشب من النباتات العسرة الهضم لما يحتويه من الألياف (السليولوز) ولو أن الحيوان مضغ هذه الأعشاب مضغاً جيداً فور تناولها لضاع اليوم كله دون أن يأكل ما يشبعه ومن ثم فهو يبلع سريعاً ، ويخزن في الكرش ، ثم يرجعه مرة ثانية أثناء راحته للمضغ على مهل بعد أن يكون قد حصل له شيء من التخمر .

٦- ولو نظرنا إلى أرجل هذه الحيوانات لوجدنا دقة التصميم وإحكام الصنعة ، فالحيوانات التي من خصائصها الجري والجر والحمل صممت أرجلها بحيث تكون قوية لتساعدها على الجري ، وتنتهي كل رجل بحافر صلب يحمي الرجل مما قد يصيبها من كثرة الجري أو وعورة الطريق .

أما البقر والجاموس فأرجلها قصيرة قوية تنتهي بأظلاف صلبة مشقوقة لتساعدها على السير في الأراضي الزراعية اللينة . بينما أرجل الجمل تنتهي بأظلاف مشقوقة تحتها وسادة لينة سميقة تسمى «الخف» لتمنع القدم من الغوص في الرمال ، وعلى أرجله كذلك أربطة من جلد خشن تحميه من الحصى والرمال عندما يترك .

٧- وفي عالم الطيور نجد اختلاف تصميم الأرجل تبعاً لحاجة الطير ، فالطيور التي تتغذى على اللحوم كالصقر والنسر نجد لقدمها مخالب قوية حادة ، وهي منثنية بما يساعدها في القبض على الفريسة .

أما تلك التي تتغذى على الحبوب كالدجاج والحمام فأقدامها ذات

أظافر مديبة تصلح للنش في الأرض . والطيور التي يستلزم أمر تغذيتها البحث عن غذائها في الماء تتصل أصابعها بغشاء جلدي تستعمله كالمجداف في سباحتها .

٨- ومن طريف ما نراه من حكمة في الخلق والتصميم أن معظم الحيوانات الشديدة تمتاز بحاسة شم قوية حادة ، وحاسة بصر ضعيفة ، بينما الطيور بخلاف ذلك ، فهي ذات بصر قوي ، وشم ضعيف ، وما ذاك إلا لأن الأولى تهتدي في غذائها الذي يكون دائماً على الأرض بحاسة الشم ، بينما الطير وهو في السماء بحاجة إلى حدة في بصره ليري غذاءه في أثناء طيرانه .

فسبحان الخالق الحكيم !

٩- وما لنا نذهب بعيداً وأماننا الإنسان الذي ينطق كل عضو فيه بل كل خلية بالإبداع والحكمة .

- انظر إلى الجنين في بطن أمه كيف يتغذى؟ وكيف يتنفس؟ وكيف يقضى حاجته؟ وكيف تفرز أجهزته؟ وكيف أحكم تصميم الحبل السرى له؟ فلا هو طويل مما يسبب تخمر الغذاء قبل وصوله إليه ، ولا هو قصير فيؤدى إلى اندفاع الغذاء إليه فيؤذيه ! إنه مصمم بحكمة وتقدير .

- وانظر إلى إحكام الصنعة في قلب الإنسان ، فهو كتلة من اللحم تزن حوالى ٣١٢ غراماً ، وحجمه في قبضة اليد ، ينبض حوالى ٧٠ مرة في الدقيقة وفى العام ٤٠ مليون مرة ، وفي كل نبضة يدخل القلب حوالى ربع رطل من الدم ، ويضخ في اليوم الواحد ٢٢٠٠ جالوم من الدم . وحوالى ٥٦ مليون جالون على مدى الحياة بأكملها !

فهل هناك محرك آخر يستطيع القيام بمثل هذا العمل الشاق ، دون

أن يحتاج إلى إصلاح؟!

والجهد الذي يبذله القلب في النبضة الواحدة يرفع ثقلًا مقداره رطلان إلى ارتفاع قدمين! .

- يحوي الجسم البشري أكثر من ٦٠٠ عضلة، وأكثر من ٢٠٠ عظمة وتحوي العضلة المتوسطة الحجم على ١٠ ملايين ليف عضلي، وتحوي عظمة الفخذ على أكثر من ٣٠ ألف عمود كلسى خاص . وعمل العضلات مجتمعة في اليوم الواحد يساوي ما حملته ٢٠ طن .
- في كل يوم يتنفس الإنسان ٢٥ ألف مرة، يسحب فيها ١٨٠ متر مكعب من الهواء، يتسرب منها ٦,٥ متر مكعب من الأكسجين إلى الدم .

- في الدم الكامل ٢٥ مليون كرية حمراء لنقل الأوكسجين، و ٢٥ مليار كرية بيضاء لمقاومة الجراثيم ومناعة البدن، ومليون مليون صفيحة دموية لحفظ الدم ضد النزف . وتتكون هذه الخلايا بصورة أساسية من مخ العظام الذي يصب في الدم بمعدل ٢,٥ مليون كرية حمراء في الثانية، و ٥ ملايين صفيحة، و ١٢٠ ألف كرية بيضاء! .

- في العين الواحدة ١٤٠ مليون مستقبل للضوء، وهى ما تسمى بالمخاريط والعصى، ويتحكم في حركات العين ستة عضلات، ويشرف على التوازن الدماغ والمخيخ والعضلة السيسائية ويخرج من العين وكمحصلة لعمل الشبكية نصف مليون ليف عصبى ينقل الصورة بشكل ملون .

- جهاز الاستقبال السمعى في الأذن الباطنة (عضو كورتى) يحتوى على حوالى ٣٠ ألف خلية سمعية لنقل كافة الأصوات، وحساسيتها عظيمة، وفى دهليز الأذن الوسطى نرى الأتنية نصف الدائرية المسؤولة

عن التوازن في الإنسان حيث يمثل التوازن أمراً معقداً جداً يشترك فيه الدماغ والمخيخ والأذن الباطنة . . والسؤال كيف يتم التوازن بمثال هذه الدقة؟

ويكفي أن نعلم أن الأذن الباطنة فيها قسم يسمى (التيه) لأن الباحث يكاد يتيه من أشكال الدهاليز والممرات، والجدر، والحفر، والغرف، والفوهات، والاتصالات وشبكة التنظيم والعلاقات الموجودة داخل هذا القسم!

- الدماغ مغلف بثلاثة أغلفة فضلاً عن التصفيح العظمي، بحيث يعتبر الرأس كصندوق محكم الإغلاق، وبين الأغلفة يتسرب سائل خاص هو السائل الدماغي الشوكي الذي يقوم بفعل ماص الصدمات. وما ذاك إلا لأن الدماغ يمثل حكومة البدن وباقي الجسم يمثل الشعب، ولا بد من التحصينات الشديدة، والحراسة المشددة لحماية الحكومة. وهذا الإتقان المحكم جعل علماء الفضاء يصممون نفس الطريقة لحماية القمر الصناعية بإيجاد الغلافات والسوائل علي نفس الطريقة! وتحتاج الحكومة المركزية (الدماغ) يومياً إلى ١١٥ غرام من الجلوكوز، وكمية من الفوسفات، و ١٠.١٥٪ من الأكسجين الذي يحتاجه الجسم، وكمية من الدم لا تقل عن ١٠٠٠ لتر فإذا نقصت هذه المواد تقاعس الدماغ عن القيام بعمله!

- ومن أعجب ما في الإنسان اللسان فهو كتلة من اللحم تقوم بالمضغ والبلع وذوق الطعام والتصويت، فيه ١٧ عضلة تحركه إلى كافة الجهات، وثلاثة أعصاب لتنظيم نقل الحس، وعلى سطح اللسان يوجد ٩٠٠٠ (تسعة آلاف) نتوء ذوقى لمعرفة طعم الحلو والحامض والمر والملح، وإن حركة اللسان في أى اتجاه ينتج حرفاً معيناً وبذلك يستطيع الإنسان أن ينطق بفصاحة، وأثناء المضغ والبلع تفرز ستة غدد اللعاب

إلى الفم لتطرية الطعام وتهيته المبدئية بالاشتراك مع الأسنان! .

- يعتبر الكبد أكبر غدد البدن إذ وزن (١٥٠٠) غرام، ويحوي ٣٠٠ مليار خلية يمكن أن تتجدد كلياً خلال أربعة أشهر وله وظائف مذهشة ما بين مستودعات السكر والدهن والفيتامين أو احتجاز السموم وقلبها إلى مواد غير ضارة، أو تحويل الفضلات إلى مواد غير ضارة، وهو مركز التموين الرئيسى لسكر الدم، وبروتينات الدم، كما يقوم بإفراز الأصبغة، وتكوين الكولسترول! .

- تزن الكلية الواحدة ١٥٠ غراماً، فيها مليون وحدة وظيفية لتصفية الدم تسمى (النفرونات)، ويرد إلى الكلية في مدى ٢٤ ساعة ١٨٠٠ لتر من الدم، ويتم رشح ١٨٠ لتر منه ويعاد امتصاص معظمه ويطرح منه حوالي ١,٥ لتر وهو المعروف بالبول. ويبلغ طول أنابيب النفرونات حوالي (٥٠) كيلو متراً، وبهذه الطريقة يتم تصفية الدم من كل شوائبه وبشكل مدهش، وكأننا نرى أمانة العاصمة وهي تنظف ليس مرة واحدة في اليوم بل ٣٦ مرة ويزيد. فهل تستطيع دولة من الدول أن تنظف مدنها ٣٦ مرة في اليوم^(١)!!

- يغلف الجسم ستار محكم بديع هو الجلد، وعلي الرغم من كونه ذا مسام تفرز الماء إلى خارج الجسم فإنها لا تمتص الماء إلى داخل الجسم مطلقاً. ولما كان الجلد معرضاً لهجمات الميكروبات والجراثيم التي تسبح في الجو فقد تم تسليحه بإفرازات قادرة على قتل تلك الميكروبات، وإذا تغلبت الجراثيم، واخترقت الحدود (منطقة الجلد) تلقتها حرس الحدود (كرات الدم البيضاء) فتضرب حصاراً حولها ثم تشتبك معها في معركة من أشرس المعارك فلما أن تهزمها وتطردها خارج الجسم، ولما أن تندحر وتموت هذه القوات فتتقدم قوات أخرى وأخرى وهكذا، فإذا رأيت بشرة حمراء وفيها صديد على

(١) خالص حليبي، الطب محراب الإيمان، ص ٢٩٧: ٣٠٧.

الجلد فاعلم أن صديدها ما هو إلا أشلاء قوات ماتت في سبيل الدفاع عنك، أما الإحمرار فهو (وطيس المعركة) أي القوات (كرات الدم) مازالت تقاتل العدو الغادر.

وتحت هذا الجلد يوجد حوالي ١٥.٥ مليون مكيف لحرارة البدن، والمكيف هنا هو الغدة العرقية، لأن تبخر العرق من الجلد يمتص معه نسبة عالية من حرارة البدن. فمن الذي أحكم هذه الأعضاء؟!

إنّ كلّ شيء فينا ومن حولنا مخطط ومنظم ومحكم ويسعى نحو تحقيق هدف رسمه له الحكيم (سبحانه وتعالى) عرفنا ذلك أم لم نعرف

فمثلاً ثمرة التفاح خلقت للإنسان، ولذلك نجدها تحمل فيتامين (C)، وكذا غرام من الحديد، وهذه المقادير هي التي يحتاجها جسم الإنسان يومياً.

ولو سألنا : لماذا الحديد مع فيتامين (C) لله لكان الجواب ميسوراً وهو حتي لا يتعفن فيتامين (C) لأنه مادة ذات تحمل ضعيف، بل هناك مزيد من التخطيط بإضافة أيونات الكربونات إلى محتوى التفاح. ولو سألنا لماذا؟

لكان الجواب : لأن الكمية الكبيرة من حامض الفاكهة الموجودة في التفاح تؤدي إلى زيادة الحموضة في المعدة، وهذه الأيونات تحد من ذلك ولذلك نتجشأ بعد أكل التفاح^(١) فهناك قدرة إلهية حكيمة ربت الأمور ونظمتها أحسن تنظيم.

وننظر الآن إلى جانب آخر من جوانب حكمته سبحانه وتعالى،

(١) خلوق نور باقى، مرجع سابق، ص ٣٣، ص ٣٤.

وهي حكمة شرعه، فأحكامه الشرعية في غاية الإحكام.

انظر مثلاً إلى العقوبات التي حددها الإسلام لجرائم الزنا والقذف والسرقة والسُّكْر والمُحاربة والردة والبغى، تجدد إقامة هذه الحدود فيها نفع للناس لأنها تمنع الجرائم، وتردع العصاة، وتكف من تحدثه نفسه بانتهاك الحرمات، وتحقق الأمن لكل فرد على نفسه، وعرضه، وماله، وسمعته، وحرية، وكرامته، فأى حكمة أعظم من ذلك؟

يقول عبدالقادر عوده مبيناً بعض أوجه هذه الحكمة :

«ففى جريمة الزنا مثلاً فرقت الشريعة بين المحصن والبكر، فخففت عقوبة البكر، وغلظت عقوبة المحصن، وعلة التخفيف على البكر، والتشديد على المحصن أن الإحصان يسد الباب على الجريمة، ويفتح للمحصن أبواب الحلال فانقطعت لذلك الأسباب التى تؤدى إلى الجريمة من ناحية العقل ولم تعد هناك معاذير لتخفيف العقوبة، وأصبح لا بد أن يؤخذ المحصن بعقوبة الاستئصال (الرجم)، لأنه مثل سئ لغيره، وليس للمثل السئ فى الشريعة الإسلامية حق البقاء.

والحكيم (سبحانه) عندما وضع هذه العقوبة إنما كان ذلك لحكمة وهى محاربة الدوافع التى تدعو للجريمة بالدوافع التى تصرف عنها، فالدافع الذى يدعو الزانى للزنا هو اشتهاؤ اللذة والاستمتاع بالنشوة التى تصحبها، والدافع الوحيد الذى يصرف الإنسان عن اللذة هو الألم، ولا يمكن أن يستمتع الإنسان بنشوة اللذة إذا تذوق مس العذاب، وأى شيء يحقق الألم، ويذيقه مس العذاب أكثر من الجلد مائة جلدة؟!

فالحكيم سبحانه وتعالى حينما وضع عقوبة الجلد ووضعها على أساس من طبيعة الإنسان، وفهم لنفسيته وعقليته، فهى تدفع العوامل النفسية التى تدعو إلى الزنا بعوامل نفسية مضادة تصرف عن الزنا.

وعقوبة الزنا في القوانين الوضعية الحبس وهي عقوبة لا تؤلم الزانى إيلاماً يحمله على هجر اللذة التى يتوقعها من وراء الجريمة ولا تثير فيه العوامل النفسية المضادة للعوامل النفسية الداعية.

أما التغريب فهو عقوبة تكميلية بالنسبة لعقوبة الجلد، وحكمته:

* التمهيد لنسيان الجريمة، بأسرع ما يمكن، وهذا يقتضى إبعاد المجرم عن مسرح الجريمة، لأن بقاءه بين ظهرانى الجماعة يحين ذكرى الجريمة، ويحول دون نسيانها بسهولة.

* إبعاد المجرم عن مسرح الجريمة يجنبه مضايقات كثيرة في المجتمع، وقد تصل إلى حد قطع الرزق، والمهانة، والتحقير، فالإبعاد يهئ الجانى ليحيا من جديد حياة كريمة.

فالتغريب شرع لمصلحة الجانى ولمصلحة الجماعة أيضاً، وكثيراً ما نشاهد من تصيبهم معرة الزنا يهجرون موطن الجريمة مختارين لينأوا بأنفسهم عن الذلة والمهانة التى قد تصيبهم في موطن الجريمة.

أما رجم المحصن فهو عين الرحمة به وبالمجتمع، . وكثيراً ما نرى بعض الناس يتصرفون تصرفات هوجاء مثل حرق الزانى، وتقطيع أوصاله، وإغراقه وتهشيم عظامه، والتمثيل به أشنع تمثيل. وأقل الناس جرأة على القتل يكتفى بدس السم للزانى فإذا كان هنا هو الواقع فما الذى نخشاه من عقوبة الرجم؟!

ويقول البعض: إن في عقوبة الرجم شيئاً من القسوة، ولهؤلاء نقول إن الرجم هو القتل لا غير، ولا فرق بين من يقتل شنقاً أو ضرباً بالفأس أو تسميماً بالغاز أو صعقاً بالكهرباء أو رجماً بالحجارة أو رمياً بالرصاص، فقد لا يصيب الرصاص مقتلاً من أول مرة وقد يصيب الحجر مقتلاً من أول مرة. وعادة رماة الرصاص عددهم محدود، وطلقاتهم معدودة، ورماة الأحجار عددهم غير محدود،

ومائة أو مئات يقذفون شخصاً في مقاتله بالأحجار فسيموت قطعاً أسهل وأسرع من قتل الرصاص ثم إن التفكير في مثل هذه المسألة لا يتفق مع طبيعة العقاب ، فالعقوبة إذا خلت من الألم لم تعد عقوبة وإنما تصير عبثاً ولعباً .

وفى جريمة القذف جعل الحكيم (سبحانه) العقوبة هي الجلد وعدم قبول شهادة القاذف ، ووصمه بالفسوق . وهذه العقوبة تحارب الغرض الذي يرمى إليه القاذف فالقاذف يرمى إلى إيلاام المقذوف نفسياً وتحقيره . فكان جزاؤه الجلد ليؤلمه إيلاًماً بدنياً ، لأن الإيلاام البدنى هو الذي يقابل الإيلاام النفسى ، ولأنه أشد منه وقعاً على النفس والحس معاً ، والقاذف يرمى من وراء قذفه تحقير المقذوف ، هذا التحقير فردى ، لأن مصدره فرد واحد هو القاذف فكان جزاؤه أن يحقر من الجماعة كلها ، وأن يكون هذا التحقير العام بعض العقوبة التي تصيبه فتسقط عدالتة ولا تقبل له شهادة ، ويوصم وصمة أبدية بأنه من الفاسقين . فأى حكمة أعظم من هذه ؟!

وعقوبة السرقة القطع ، ومن الحكمة في ذلك أن السارق حينما يفكر في السرقة إنما يفكر في أن يزيد كسبه من كسب غيره ، فهو يستصغر ما يكسبه عن طريق الحلال ، ويريد أن يكسب عن طريق الحرام ، وهو لا يكتفى بثمرة عمله فيطمع في ثمرة عمل غيره ، وهو يفعل ذلك ليزيد من قدرته على الإنفاق أو الظهور ليرتاح من عناء الكد والعمل أو ليأمن على مستقبله . فالدافع الذي يدفع إلى السرقة هو زيادة الكسب والثراء فحاربه الشريعة بتقرير عقوبة القطع لأن قطع اليد أو الرجل يؤدي إلى نقص الكسب إذ أن اليد والرجل كلاهما أداة العمل أيّاً كان ونقص الكسب يؤدي إلى نقص الثراء ، وهذا يؤدي إلى نقص القدرة على الإنفاق والظهور فالحكيم (سبحانه وتعالى) دفع بهذا الحد

العوامل النفسية التي تدعو إلى ارتكاب الجريمة بعوامل نفسية مضادة تصرف عن الجريمة .

ولو تأملنا عقوبة المحارب لرأيناها متدرجة حسب عمله ، فالقتل عقوبة قاطع الطريق إذا قُتلَ وهي حد لا قصاص ، فلا تسقط بعفو ولي المجنى عليه ، والقاتل في هذه الحال دفعه إلى القتل غريزة تنازع البقاء بقتل غيره ليبقى هو ، فإذا علم أنه حين يقتل غيره إنما يقتل نفسه امتنع في الغالب عن القتل .

وإذا قتل وأخذ المال ، قتل و صلب ، فالقتل والصلب عقوبة مركبة علي جريمة مركبة فتشديد العقوبة هنا لصرفه عن هذه الجريمة المزدوجة .
وإذا أخذ المال ولم يقتل قطعت يده اليمنى ورجله اليسرى دفعة واحدة . أى قطع يده ورجله من خلاف . فالقطع هنا ضعف ما يحدث في السرقة العادية ! لماذا؟

الجواب عن ذلك سهل ميسور وهو أن خطورة قاطع الطريق أشد من خطورة السارق العادي ، وفرصته في الإفلات قد تزيد على ضعف فرصة السارق العادي ، فهو في أغلب الأحوال علي ثقة من النجاح . . وهذا مما يقوى العوامل النفسية الداعية للجريمة فوجب من أجل ذلك تغليظ العقوبة حتى تتعادل العوامل الدافعة مع العوامل الصارفة في النفس .

وعقوبة النفس على قاطع الطريق إذا أخاف الناس ولم يأخذ مالاً ولم يقتل ، وذلك لأنه عندما يخيف ولا يأخذ مالاً ولا يقتل أحداً إنما يقصد من وراء ذلك تحقيق الشهرة والصيت فعوقب بالنفى الذي يؤدي إلى الخمول وانقطاع الذكر .

وعقوبة الردة القتل ، لأنها تقع ضد الدين الإسلامى ، وعليه يقوم

النظام الإجتماعى للجماعة، فالتساهل في هذه الجريمة يؤدى إلى زعزعة هذا النظام، ومن ثم جاءت العقوبة أشد العقوبات استئصالاً للمرتد من المجتمع، وحماية للنظام الإجتماعى.

وعقوبة البغى القتل، لأن هذه الجريمة موجهة إلى نظام الحكم والقائمين عليه، فلا بد من تشديدها، لأن التساهل فيها يؤدى إلى الفتن والاضطرابات وعدم الاستقرار وهذا بدوره يؤدى إلى تأخر الجماعة وانحلالها، ولا شك أن القتل أقدر العقوبات على صرف الناس عن هذه الجريمة التى يدفع إليها الطمع وحب الاستعلاء، وعقوبة شرب الخمر الجلد، لأن الدافع الذى يدفع الشارب هو رغبته في نسيان آلامه النفسية والهروب من عذاب الحقائق إلى سعادة الأوهام التى تولدها نشوة الخمر فكانت العقوبة الجلد لترده إلى ما هرب منه، ولتضاعف له الألم إذ تجمع له بين ألم النفس وألم البدن، وترده إلى العذاب الذى هرب منه، وتجمع له بين عذاب الحقائق وعذاب العقوبة.

وفى عقوبة القصاص نجد عين الرحمة والحكمة، وقد بين الحكيم سبحانه وتعالى حكمة مشروعية القصاص بياناً شافياً موجزاً في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١).

فالحكمة من وراء القصاص هى المحافظة على حياة بنى الإنسان، فإذا علم مريد القتل أنه سيقتل إذا قتل امتنع عن القتل خوفاً من العقوبة التى ستوقع عليه، وبذلك يحفظ حياته وحياة من كان يريد قتله.

ثم إن مشاهدة إيقاع القصاص على الجانى يؤدى إلى امتناع كثير من مريدى القتل من تنفيذ ما أرادوه إدراكاً منهم أن مصيرهم لن يكون أحسن حالاً من مصير ذلك الذى اقتص منه. والحكمة من مشروعية

القصاص ليست منحصرة في المحافظة على حياة الناس فحسب بل إن تحقيق العدالة بين الجاني والمجنى عليه مراعى عند إيقاع هذه العقوبة، فكما حرم الجاني المجنى عليه من التمتع بحياته، وجب أن يحرم الجاني من الحياة ليكون الجزاء من جنس العمل. وليس من المستساغ عقلاً أن يقتل شخص شخصاً بغير وجه حق ثم يرى أولياء المقتول القاتل حراً طليقاً يتمتع بحياته.

وفى القصاص أيضاً شفاءً لغيظ أولياء المجنى عليه، ومراعاة للجانب النفسى لهم لتهدأ نفوسهم، ويزول غيظ صدورهم فيمتنعوا بذلك عن الانتقام الذي يتجاوز الجاني إلى كل من له صلة به (١).

وبعد؛ ما سبق كان غيضاً من فيض من حكمة الحكيم سبحانه وتعالى في شرع العقوبات فأحكم سبحانه وجوه الزجر الرادعة عن هذه الجنايات غاية الأحكام، وشرعها على أكمل الوجوه المتضمنة لمصلحة الردع والزجر، مع عدم المجاوزة لما يستحقه الجاني من الردع. فلم يشرع قطع اللسان في الكذب، ولا في الزنا الخصاص ولا في السرقة إعدام النفس، وإنما شرع لهم في ذلك ما هو موجب أسمائه وصفاته من حكمته ورحمته ولطفه وإحسانه وعدله لتزول النوائب وتقطع الأطماع عن التظالم والعدوان، ويقتنع كل إنسان بما آتاه الله مالكة وخالقه، فلا يطمع في استلاب غيره حقه (٢).

فالحكيم (سبحانه وتعالى) لم يشرع دون حكمة وغاية وهدف، ولم يخلق شيئاً عبثاً، ولذلك مدح سبحانه وتعالى من يتفكرون في مخلوقاته.

(١) عبد القادر عوده، التشريع الجنائي الإسلامى، ج١، ص ٦٤٠: ٦٤٩ (بتصرف).

(٢) ابن القيم الجوزية، أعلام الموقعين، ج٢، ص ٩٥.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقَعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (٢).
وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ (٣).

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (٤).
فالمؤمن دائم التفكير في نفسه، وما في خلقه من آيات عظيمة وحكم كثيرة.

ودائم التفكير أيضاً في الكون المحيط به، وما في هذا الكون من آياته وسنن.

والأحكام الشرعية في الإسلام من لدن حكيم خبير، ولذلك فهي ما جاءت إلا لإسعاد البشرية، وأمنها ولذلك أنكر الحكيم (سبحانه) على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير الناهي عن كل شر، فقال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (٥).

فليس هناك أعدل من الله في حكمه لمن عقل عن الله شرعه وآمن به وأيقن وعلم أن الله أحكم الحاكمين، وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها،

(١) سورة آل عمران/ ١٩٠-١٩١.

(٢) سورة الغاشية/ ١٧-٢٠.

(٣) سورة الروم/ ٨. (٤) سورة الأعراف/ ١٨٥.

(٥) سورة المائدة/ ٥٠.

فإنه تعالى هو العالم بكل شيء القادر على كل شيء، العادل في كل شيء (١).

ولذلك كان الإعراض عن حكم الله عز وجل يتراوح بين الكفر الأصغر والكفر الأكبر. قال ابن القيم - رحمه الله - في بيان أنواع الحكم بما أنزل الله: «إن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله في هذه الواقعة وعدل عنه عصيانياً، مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة فهذا كفر أصغر، وإن اعتقد أنه غير واجب وأنه مخير فيه مع تيقنه أنه حكم الله فهذا كفر أكبر» (٢).

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ (٣).

فإفراد الله تعالى بالحكم من عبادته، وعبادته وحده هي الدين القيم.

والحكمة ضالة المؤمن وبغيته. ، وهي تعنى معرفة الحق والعمل به، والإصابة في القول والعمل. ولذلك امتن الله عز وجل على من يؤتيهم الحكمة، فقال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (٤).

قال ابن القيم - رحمه الله - «الحكمة في كتاب الله نوعان: مفردة، ومقترنة بالكتاب. فالمفردة: فُسِّرَتْ بالنبوة، وفُسِّرَتْ بعلم القرآن أو هي الإصابة في القول والفعل. . والمقترنة بالكتاب فهي السنة كما قال الشافعي وغيره من الأئمة (٥).

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص ٦٧.

(٢) ابن القيم، مدارج السالكين، ج١، ص ٣٦٥.

(٣) سورة يوسف/ ٤٠. (٤) سورة البقرة/ ٢٦٩.

(٥) ابن القيم، مدارج السالكين، ج٢، ص ٤٧٨.

اللهم آتني الحكمة التي من أوتيها فقد أوتي خيراً كثيراً (١).
 اللهم اجعلني من أوفر الناس نصيباً من الحكمة .
 اللهم اجعلني ممن يتفكرون في آلائك ونعمائك ليدرك حكمتك في
 الخلق والأمر .
 اللهم وفق ولادة أمور المسلمين للحكم بشريعتك يا رب العالمين .

* * *

(١) قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (البقرة ٢٦٩)

السمیع البصیر

٦٣ ٦٤

السمیع اسم من أسماء الله الحسنی . بمعنی السامع ، إلا أنه أبلغ في الصفة ، وبناء فعيل : بناء مبالغة ، كقولهم : علیم من عالم ، وقدير من قادر .

والله عز وجل سمیع یسمع السرّ والنجوى ، سواء عنده الجهر والخفوت ، والنطق والسكوت . فهو الذي یسمع دعوات عباده وتضرعهم إليه ، لا يشغله نداء عن نداء ، ولا یمنعه إجابة دعاء عن إجابة دعاء .

ویكون السماع أيضاً بمعنی القبول والإجابة ، كما في قول النبی (صلی الله علیه وسلم) : «اللهم إني أعوذ بك من قول لا یسمع»^(١) . أي دعاء لا یستجاب ، ومثله قول المصلی : «سمع الله لمن حمده» أي قبل الله حمد من حمده .

فهو سبحانه وتعالى السميع الذي یجیب الدعوة عند الاضطرار ، ویكشف المحنة عند الافتقار ، ویغفر المذلة عند الاستغفار ، ويرحم الضعف عند الذل والانكسار .

وقد ذكر السميع في القرآن الكريم أكثر من أربعين مرة ، اقترن في أكثر من ثلاثين منها بالعلیم .

كما اقترن في عشرة مواضع بالبصیر ، وجاء مقترناً بالقرب مرة واحدة .

(١) رواه أحمد ج ٣/ ١٩٢ .

قال تعالى : ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (١) .
 ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ (٢) .
 ﴿ وَإِنْ اهْتَدَيْتُمْ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ (٣) .
 ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ (٤) .

يقول ابن القيم :

وهو السميع يرى ويسمع كل ما
 ولكل صوت منه سمع حاضر
 والسمع منه واسع الأصوات لا
 يخفى عليه بعيدها والداني

فسمعه تعالى نوعان : أحدهما سمعه لجميع الأصوات الظاهرة
 والباطنة الخفية والجلية ، وإحاطته التامة بها .

الثاني : سمع الإجابة منه للسائلين والداعين والعابدين فيجيبهم
 ويثيبهم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنْ رَأَى لِسَمِيعِ الدُّعَاءِ ﴾ وقول المصلى
 « سمع الله لمن حمده » أى استجاب (٥) .

أما اسم الله البصير : فمعناه الذي أحاط بصره بجميع المبصرات في
 أقطار الأرض والسموات ، فيرى ديب النملة السوداء على الصخرة
 الصماء في الليلة الظلماء . وجميع أعضائها الباطنة والظاهرة ، وسريان

(١) سورة البقرة / ١٣٧ .

(٢) سورة الحج / ٧٥ .

(٣) سورة سبأ / ٥٠ .

(٤) سورة إبراهيم / ٣٩ .

(٥) عبد الرحمن آل سعدي ، الحق الواضح المبين ، ص ٣٥ .

القوت في أعضائها الدقيقة، ويرى سريان المياه في أغصان الأشجار وعروقها، وجميع النباتات على اختلاف أنواعها وصغرها ودقتها، ويرى نياط عروق النملة والنحلة والبعوضة وأصغر من ذلك^(١).

قال ابن القيم:

وهو البصير يرى ديب النملة السـوداء تحت الصخر والصوان
ويرى مجاري القوت في أعضائها ويرى نياط عروقها بعيان
ويرى خيانات العيون بلحظها ويرى كذلك ثقلب الأجفان

فهو سبحانه وتعالى البصير الذي يشاهد الأشياء كلها، ظاهرها وخفيها، يبصر خائنة الأعين وما تخفى الصدور. يشاهد ويرى ولا يغيب عنه ما فوق السموات العلا أو ما تحت الثرى.

وقد ورد اسم البصير في القرآن الكريم في أكثر من أربعين موضعاً، اقترن في أحد عشر موضعاً منها بالسميع.

قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٢).

﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (٣).

والاقتران بين هذين الاسمين له دلالة لأن كلا من السمع والبصر محيط بجميع متعلقاته الظاهرة والباطنة، فالسميع هو الذي أحاط سمعه بجميع المسموعات، فكل ما في العالم العلوي والسفلي من الأصوات يسمع سرها وعلنها وكأنها لديه صوت واحد لا تختلط عليه الأصوات، ولا تخفى عليه جميع اللغات. قال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ

(١) عبد الرحمن آل سعدى، المرجع السابق، ص ٣٤-٣٦.

(٢) سورة البقرة/ ٢٣٣.

(٣) سورة غافر/ ٥٦.

قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ .

قالت عائشة (رضي الله عنها) : تبارك الذي وَسَّعَ سَمْعُهُ الأصوات ، لقد جاءت المجادلة تشتكي إلى رسول الله (ﷺ) وأنا في جانب الحجرة ، وإنه ليخفى على بعض كلامها ، فأنزل الله ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ . والبصير الذي أحاط بصره بجميع المبصرات في أقطار الأرض والسموات . . . فسمعه أحاط بجميع المسموعات وبصره أحاط بجميع المبصرات لا يخفى عليه شيء في المخلوقات ولا في الأرض ولا في السموات !

قال تعالى : ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ (٢) .

فسمعه وبصره (سبحانه) صفتان من صفاته ، فلا يخرج مسموع عن سمعه ، ولا موجود عن بصره ، ولا يحجب الموجودات شيء فيسمع السر والنجوى ، ويبصر ما فوق السموات العلى ، وما تحت الثرى .

فإنه عز وجل يسمع ويبصر حقيقة على ما يليق به ، منزّه عن صفات المخلوقين ومماثلتهم . وقد جاءت الآيات صريحة في إثبات السمع والبصر لله (عز وجل) (٣) .

قال تعالى : ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (٤) .

(٢) سورة الرعد/ ١٠ .

(١) سورة المجادلة/ ١ .

(٤) سورة المجادلة/ ١ .

(٣) صالح الفوزان ، مرجع سابق ، ص ٦١ .

فأله (عز وجل) قد سمع قول خولة بنت ثعلبة عندما جاءت تجادل النبي (ﷺ) أى تراجعته في الكلام في شأن زوجها وهو أوس بن الصامت وذلك حين ظاهر منها.

وتشتكى إلى الله (عز وجل)، فقد قال لها الرسول (ﷺ): قد حرمت عليه. فقالت: والله ما ذكر طلاقاً. ثم تقول: أشكو إلى الله فاقتنى ووحدتنى وأن لى صبية صغاراً إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إلىّ جاعوا، وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتقول: اللهم إننى أشكو إليك. ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ أى تراجعكما في الكلام. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ يسمع كل الأصوات ويبصر كل المخلوقات. وقال تعالى: ﴿إِنِّى مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ (١).

يقول الله تعالى لموسى وأخيه هارون (عليهما السلام) لما أرسلهما إلى فرعون (إننى معكما) أى بحفظى وكلاءتى وبصرى لكما (أسمع وأرى) أى أسمع كلامكما وكلام عدو كما وأرى مكانكما، وما يجرى منكما ومنه.

وقال تعالى: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقْلَبُ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٢).

(الَّذِي يَرَاكَ) أى يبصرك (حين تقوم) للصلاة وحلك، (وتقلبك في الساجدين) أى ويراك إن صليت في الجماعة راکعاً وساجداً وقائماً (إنه هو السميع) لما تقوله (العليم) به (٣).

فأله (عز وجل) سميعٌ يسمع جميع الأصوات بصيرٌ يرى كل شيء

(١) سورة طه/ ٤٦.

(٢) سورة الشعراء/ ٢١٨ و ٢١٩ و ٢٢٠.

(٣) صالح الفوزان، مرجع سابق، ص ٦٢.

ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء .

قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ (١) .

فهو سبحانه وتعالى يسمع من ناداه ويجيب من دعاه : قال تعالى : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (٢) .

فكم من داع دعا السميع البصير فاستجاب له وأعطاه سؤاله ، والأمثلة على ذلك لا يحصوها حصر . فالأنبياء والصالحون بل والعصاة في كل عصر ومصر لا ملجأ لهم عند الكروب إلا السميع البصير القريب .

فهذا رسول الله محمد (ﷺ) يشتد عليه الأذى من قومه بعد موت عمه وزوجه خديجة (رضي الله عنها) ، فخرج إلى الطائف رجاء أن يؤوه وينصروه . فدعاهم إلى الله (عز وجل) ، فوجد أعينا عمياً وآذانا صماً ، بل وآذوه أشد الأذى فأغروا به سفهاءهم ، فوقفوا له صامطين ، وجعلوا يرمونه بالحجارة حتى دمت قدماه . . . فانصرف راجعاً من الطائف إلى مكة محزوناً ، وفي مرجعه دعا بالدعاء المشهور : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين . أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي ، إلى من تكلني ، إلى بعيد يتجهمني ؟ أو إلى عدو ملكته امرئ . ، إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ، غير أن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن يحل علي غضبك ، أو أن ينزل بي سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا وقوة إلا بك » (٣) . فاستجاب السميع البصير وأرسل إليه ملك

(٢) سورة البقرة / ١٨٦ .

(١) سورة آل عمران / ٦ .

(٣) أخرج القصة ابن هشام عن ابن اسحاق (انظر زاد المعاد ج ٣ ، ص ٣٢٢) .

الجبال ، يستأمره أن يطبق الأخشين على أهل مكة ، وهما جبلاها اللذان هما بينهما فقال «لا ، بل استأني بهم لعل الله يُخرج من أصلاهم من يعبده لا يشرك به شيئاً» (١) .

وموسى (عليه السلام) : ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَلْ لِّي زَيْرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَرُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ (٣٦) ۝ (٢) ۝

وزكريا (عليه السلام) : ﴿ هَٰذَاكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨) فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (٣٩) ۝ (٣) ۝

ويوسف (عليه السلام) : قال الله تعالى عنه وعن النسوة : ﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودَتْهُ عَن نَّفْسِهِ فَاَسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ (٤) ۝

والأمثلة من حياة الصالحين كثيرة ، روى التنوخي في الفرج بعد الشدة أن رجلاً حزن حزناً شديداً ، على شيء وأمر أهله وأقلقه فألح

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق ، ومسلم في الجهاد (١٧٩٥) .

(٢) سورة طه / ٢٥ : ٣٦ .

(٣) سورة آل عمران / ٣٨ - ٣٩ .

(٤) سورة يوسف / ٣٢ : ٣٤ .

في الدعاء، فهتف به هاتف، يا هذا قل:

«يا سامع كل صوت، وباريء النفوس بعد الموت، ويا من لا تغشاه الظلمات، ويا من لا يشغله شيء عن شيء»

قال: فدعأ بها، ففرج الله عنه، ولم يسأل الله تلك الليلة حاجة إلا أعطاه.

والمؤمن متيقن من أن الله سميعٌ بصيرٌ «فلذلك يعبد الله عز وجل كأنه يراه فوق سمواته على عرشه، مطلعاً على عبادته ناظراً إليهم، يسمع كلامهم، ويرى ظواهرهم وبواطنهم، وكأنه يسمعه وهو يتكلم بالوحى، ويكلم به عبده جبريل، ويأمره وينهاه بما يريد، ويدبر أمر المملكة، وأملاكه صاعدة إليه بالأمر، نازلة من عنده به.

وكانه يشاهده وقد جاء لفصل القضاء بين عبادته، فأشرقت الأرض بنوره ونادى وهو مستو على عرشه. بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب لله وعزتى وجلالى لا يجاوزنى اليوم ظلم ظالم وكأنه يسمع نداءه لآدم «يا آدم، قم فابعث بعث النار» بإذنه، وكذلك نداؤه لأهل الموقف ماذا أجبتم المرسلين وماذا كنتم تعبدون؟

وبالجملة: فيشاهد بقلبه رباً عرفت به الرسل، كما عرفت به الكتب... فيجرى إيمانه مجرى العيان، وإيمان غيره محض تقليد العميان (١).

فالعبد يستحضر قرب الله عز وجل منه، وأنه بين يديه يسمعه ويراه، فيبذل جهده في تحسين العبادة وإتمامها وإكمالها، ويعظم ربه ويخشاه ويهابه ويخافه.

(١) ابن القيم الجوزية، مدارج السالكين، ج٣، ص ١٥٤.

وقد ثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله (ﷺ) سُئِلَ عن الإحسان، فقال: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» (١).

فالإحسان أن يعبد المؤمنُ ربَّه في الدنيا علي وجه الحضور والمراقبة كأنه يراه بقلبه وينظر إليه في حال عبادته (٢).

وروى عن ابن عمر (رضي الله عنهما) قال: أخذ رسول الله (ﷺ) ببعض جسدي، فقال: «اعبد الله، كأنك تراه» (٣).

وخطب عروة بن الزبير إلى ابن عمر ابنته وهما في الطواف، فلم يجبه، ثم لقيه بعد ذلك، فاعتذر إليه، وقال: كنا في الطواف نتخايل الله بين أعيننا (٤).

قوله (ﷺ): «فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

«قيل: إنه تعليل للأول، فإن العبد إذا أمر بمراقبة الله في العبادة، واستحضر قربه من عبده، حتي كأن العبد يراه، فإنه قد يشق ذلك عليه، فيستعين على ذلك بإيمانه بأن الله يراه، ويطلع على سره وعلايته وباطنه وظاهره، ولا يخفى عليه شيء من أمره، فإذا حقق هذا المقام، سهَّلَ عليه الانتقال إلى المقام الثاني، وهو دوام التحديق بالبصيرة إلى قرب الله من عبده ومعيته، حتي كأنه يراه. وقيل: بل هو إشارة إلى أن من شق عليه أن يعبد الله كأنه يراه، فليعبد الله على أن الله يراه ويطلع عليه، فليستح من نظره إليه، كما قال بعض العارفين: اتق الله أن يكون أهون الناظرين إليك... وقد قيل: من عمل لله على المشاهدة، فهو

(١) رواه مسلم حديث رقم (٨) كما أخرجه أبو داود والنسائي والترمذي ٢٦١٣.

(٢) ابن رجب، جامع العلوم والحكم، ج١، ص ١٢٦.

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية ١١٥/٦، وإسناده صحيح.

(٤) المرجع السابق، ج١/٣٠٩.

عارف، ومن عمل على مشاهدة الله إياه، فهو مخلص. وفي هذا إشارة إلى المقامين اللذين تقدم ذكرهما: أحدهما: مقام الإخلاص، وهو أن يعمل العبد على استحضار مشاهدة الله إياه، وإطلاعه عليه، وقربه منه، فإذا استحضر العبد هذا في عمله، وعمل عليه، فهو مخلص لله، لأن استحضاره ذلك في عمله يمنعه من الالتفات إلى غير الله وإرادته بالعمل.

والثاني: مقام الشهادة، وهو أن يعمل العبد على مقتضى مشاهدته لله بقلبه، وهو أن يتنور القلب بالإيمان، وتنفذ البصيرة في العرفان، حتي يصير الغيب كالعيان وهذا هو حقيقة مقام الإحسان المشار إليه في حديث جبريل (عليه السلام)، ويتفاوت أهل هذا المقام فيه بحسب قوة نفوذ البصائر^(١).

وقد كان السلف الصالح يستحضرون قرب الله عز وجل منهم وإطلاعه عليهم في عبادتهم وفي كل أحوالهم وقد وردت الأحاديث الصحيحة بالندب إلى استحضار هذا القرب كقوله (ﷺ): «إن أحدكم إذا قام يصلي، فإنما يناجي ربه، أو ربه بينه وبين القبلة»^(٢).

وقوله للذين رفعوا أصواتهم بالذكر: «إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً قريباً» وفي رواية: «هو أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»، وفي رواية: «هو أقرب إلى أحدكم من حبل الوريد»^(٣).

(١) ابن رجب الحنبلي، مرجع سابق، ج١، ص ١٢٩.

(٢) رواه أحمد والبخاري ومسلم (٥٤٧)، وابن حبان (٢٢٦٧).

(٣) رواه البخاري (٢٩٩٢)، ومسلم (٢٠٧٤) وغيرهما.

وقوله: « يقول الله (عز وجل): أنا مع عبدى إذا ذكرنى، وتحركت بين شفتاه » (١).

وكان حبيب أبو محمد يخلو في بيته، ويقول: من لم تقر عينه بك، فلا قرّت عينه، ومن لم يأنس بك، فلا أنس.

وقيل لمالك بن مغول وهو جالس في بيته وحده: ألا تستوحش؟ فقال: ويستوحش مع الله أحدا؟

وقال مسلم بن يسار: ما تلذذ المتلذذون بمثل الخلوة بمناجاة الله (عز وجل) (٢).

وكتب ابن السماك الواعظ إلى أخ له: أما بعد، فأوصيك بتقوى الله الذي هو نجيك في سريرتك ورقيبك في علانيتك، فاجعل الله من بالك على كل حالك في ليلك ونهارك، وخف الله بقدر قربه منك، وقدرته عليك، واعلم أنك بعينه ليس تخرج من سلطانه إلى سلطان غيره ولا من ملكه إلى ملك غيره، فليعظم منه حذرک، وليكثر منه وجلک والسلام.

وقال أبو الجلود: أوحى الله تعالى إلى نبي من الأنبياء: قل لقومك: ما بالكم تسترون الذنوب من خلفى، وتظهرونها لى، إن كنتم ترون أنى لا أراكم، فأنتم مشركون بى، وإن كنتم ترون أنى أراكم فلم جعلتمونى أهون الناظرين إليكم. ورأى محمد بن المنكدر رجلاً واقفاً مع امرأة يكلمها فقال: إن الله يراكمما سترنا الله وإياكما (٣).

(١) رواه أحمد والبخارى في خلق أفعال العباد (٤٣٦)، وصححه ابن حبان (٨١٥)، والحاكم ٤٩٦/١ ووافقه الذهبي.

(٢) أبو نعيم، حلية الأولياء، ٢٩٤١٢.

(٣) ابن رجب الحنبلى، مرجع سابق، ج١، ص ٤٠٨، ص ٤٠٩.

وكان الإمام أحمد ينشد:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقلُ
ولا تحسبن الله يغفلُ ساعة
خلوتُ ولكن قلْ على رقيبُ
ولا أن ما تخفيه عنه يغيبُ

وروى التنوخي في الفرج بعد الشدة: قال عبد الله بن أحمد بن داسه المقرئ البصري إن بعض الجند اغتصب امرأة من الطريق، فعرض له الجيران يمنعون منها، فقاتلهم هو وغلماناه حتى تفرقوا، وأدخل المرأة إلى داره، وغلق الأبواب، ثم راودها عن نفسها، فامتنعت، فأكرهها، ولحقها منه شدة، حتى جلس منها مجلس الرجل من المرأة.

فقالت: يا هذا، اصبر حتى تغلق الباب الذي بقى عليك أن تغلقه.

قال: أي باب هو؟

قالت: الباب الذي بينك وبين الله.

فقام عنها، وقال: اخرجي، قد فرج الله عنك.

فخرجت، ولم يتعرض لها.

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (١).

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٢).

«اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي، ومن شر بصرى، ومن شر لساني، ومن شر قلبي، ومن شر مني» (٣).

(١) سورة آل عمران/ ٣٨.

(٢) سورة البقرة/ ١٢٧.

(٣) رواه أبو داود والترمذي والنسائي، وغيرهم، وانظر صحيح الترمذي ١٦٦/٣.

«اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع، ومن دعاء لا يسمع، ومن نفس لا تشبع، ومن علم لا ينفع، أعوذ بك من هؤلاء الأربع» (١).

* * *

(١) رواه الترمذى وأبو داود، انظر صحيح الجامع ٤١٠/١٠.

العالم العليم الخبير

٦٥ ٦٦ ٦٧

العليم والعالم اسمان متضمنتان صفة العلم، فالعالم اسم الفاعل من علم يعلم فهو عالم، والعليم من أبنية المبالغة في الوصف بالعلم، وهو بمنزلة قدير من القادر.

والعالم بمنزلة عليم في المبالغة في الوصف بالعلم إلا أن علاماً يتعدى إلى مفعول (١). وبناء فعال بناء تكثير وزيادة.

والله عز وجلّ عالمٌ وعليمٌ أى علمه سبحانه وتعالى بالغٌ شاملٌ لجميع المعلومات محيط بها، سابق علي وجودها، لا تخفى عليه خافية، ولا يعزب عن علمه شيء. فقد أحاط علماً بكل شيء: ظاهره وباطنه، دقيقه وجليله، أوله وآخره، يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

قال ابن القيم - رحمه الله - :

وهو العليم أحاط علماً بالذى	في الكون من سر ومن إعلان
وبكل شيء علمه سبحانه	فهو المحيط وليس ذا نسيان
وكذاك يعلم ما يكون غداً وما	قد كان والموجود في ذا الآن
وكذاك أمر لم يكن لو كان كيـ	ف يكون ذا إمكان

فالله (عز وجلّ) هو العليم المحيط علمه بكل شيء: بالواجبات

(١) الزجاجي، مرجع سابق، ص ٥٧، ٥٠.

والممتنعات والممكنات . فيعلم تعالى نفسه الكريمة ونعوته المقدسة وأوصافه العظيمة وهى الواجبات التى لا يمكن إلا وجودها ويعلم الممتنعات حال امتناعها، ويعلم ما يترتب على وجودها لو وجدت كما قال تعالى : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (١).

فهذا وشبهه من ذكر علمه بالممتنعات التى يعلمها، وإخباره بما ينشأ عنها لو وجدت على وجه الفرض والتقدير .

ويعلم (تعالى) الممكنات، وهى التى يجوز وجودها وعدمها ما وجد منها وما لم يوجد، مما لم تقتض الحكمة إيجاده، فهو العليم الذى أحاط علمه بالعالم العلوى والسفلى لا يخلو عن علمه مكان ولا زمان، ويعلم الغيب والشهادة والظواهر والبواطن والجلي والخفى . قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٢).

والنصوص فى ذكر إحاطة علم الله وتفصيل دقائق معلوماته كثيرة جداً لا يمكن حصرها وإحصاؤها، ولأنه لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، وأنه لا يغفل ولا ينسى، وأن علوم الخلائق على سعتها وتنوعها إذا نسبت إلى علم الله اضمحلت وتلاشت، كما أن قدراتهم إذا نسبت إلى قدرة الله لم يكن لها نسبة إليها بوجه من الوجوه، فهو الذى علمهم ما لم يكونوا يعلمون، وأقدرهم على ما لم يكونوا عليه قادرين (٣).

فعلم الله (عز وجل) لا نهاية له . ومعلومات العبد قليلة محصورة

(١) سورة الأنبياء/ ٢٢ . (٢) سورة الأنفال/ ٧٥ .

(٣) عبد الرحمن آل سعدى، الحق الواضح المبين، ص ٣٧، ٣٨ .

لها نهاية . وعلم الله (عز وجل) مستفادة منه الأشياء أي أن علمه سابق للأشياء وسبب لها . وعلم العبد مستفاد من الأشياء . وعلم الله (عز وجل) لا يتغير بتغير المعلومات ، وعلم العبد يتغير . وعلم الله (عز وجل) ثابت لا يزول ، ولا يزيد بالإضافة ولا ينقص بالنسيان . ﴿وما مكان ربك نسياء﴾ ، ﴿لا يضل ربي ولا ينسى﴾ ، وعلم العبد جائز الزوال عرضه للنسيان والله (عز وجل) لا يشغله علم عن علم ، والعبد يشغله علم عن علم فسبحان من :

علمه قد أحاط بالكون قدماً	قبل خلق الأرواح والجسمان
خط في اللوح ما أراد، ولما	يبد للنور هيكلاً الإنسان
كل شيء أحصاه علماً وعداً	في إمام مفصل التبيان

أما اسم الخبير فهو العالم بالشيء ، يقال : «خبرت الشيء واختبرته» إذا علمته (١) .

والله (عز وجل) خبير بالأشياء أي عالم بكنهها مطلع على حقيقتها . يعلم دقائقها ، فلا تخفى عليه خافية ، ولا تعزب عنه الأخبار الباطنة ، ولا يجرى في الملك والملكوت شيء ، ولا تتحرك ذرة ولا تسكن ، ولا تضطرب نفس ولا تطمئن إلا ويكون عنده خبر ذلك .

فهو سبحانه وتعالى خبير لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، ولا تتحرك حركة ولا تسكن ساكنة في السموات والأرض إلا يعلم مستقرها ومستودعها . فالفرق بين لفظي الخبير والعليم أن الخبير

(١) الزجاجي ، مرجع سابق ، ص ١٢٧ .

يفيد معني العليم المتصل علمه بكنه الأشياء وخفاياها الباطنة .

عَلِمَ اخْبِيرُ بَوَاطِنَ الْأَشْيَاءِ عِلْمًا يُحِيطُ بِهَا بِغَيْرِ خَفَاءٍ

مَا ذَرَّةٌ سَكَنْتُ بِهَا وَتَحَرَّكَتُ إِلَّا بَعْلَمَ سَابِقٍ وَقَضَاءِ

وقد ورد اسم عالم ثلاث عشرة مرة في القرآن الكريم أضيف في عشر منها إلى الغيب والشهادة ، وأضيف في ثلاث منها إلى الغيب وحده .

قال تعالى : ﴿ثُمَّ تَرُدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (٢) .

كما ورد هذا الاسم مرتين في صورة الجمع :

قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ (٤) .

أما اسم الله العليم فقد ورد في القرآن الكريم أكثر من مائة وخمسين مرة .

قال تعالى : ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (٥) .

وقال تعالى : ﴿مَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (٦) .

(١) سورة التوبة/ ٩٤ . (٢) سورة الجن/ ٢٦ . (٣) سورة الأنبياء/ ٥١ .

(٤) سورة الأنبياء/ ٨١ . (٥) سورة البقرة/ ٣٢ . (٦) سورة لقمان/ ٣٤ .

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١).
وقد ورد في القرآن الكريم «علام الغيوب» أربع مرات ثنتان منها في
سورة المائدة (١٠٩، ١١٦):

قال تعالى: ﴿قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ (٢).
وقال تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ
الْغُيُوبِ﴾ (٣).

وفي سورة التوبة:
قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ
الْغُيُوبِ﴾ (٤).

وفي سورة سبأ:
قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ (٥).
ويلاحظ إضافة «علام» إلى الغيوب في هذه المواضع، والغيوب
جمع غيب.

فالزيادة والتكثير في هذا الاسم «علام» تشاكل الجمع في غيوب.
أما اسم الخبير فقد ورد في أكثر من أربعين موضعاً في القرآن
الكريم.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٦).
وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ (٧).

- | | | |
|-----------------------|-------------------------|--------------------------|
| (١) سورة الفتح/ ٤ . | (٢) سورة المائدة/ ١٠٩ . | (٣) سورة المائدة/ ١١٦ . |
| (٤) سورة التوبة/ ٧٨ . | (٥) سورة سبأ/ ٤٨ . | (٦) سورة آل عمران/ ١٨٠ . |
| | (٧) سورة الأنعام/ ١٨ . | |

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَسْطُرُ الرَّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ (١).

فالله (سبحانه وتعالى) عليمٌ خبيرٌ يعلمُ ما ظهرَ وما بطنَ وما غابَ وما حضرَ لا يند عن علمه شيء في الزمان ولا في المكان، في الأرض ولا في السماء، في البر ولا في البحر، في جوف الأرض ولا طباق الجو.

قال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ (٢).

فهذه الآية تبين صورة لعلم الله الشامل المحيط الذي يشمل آماد الزمان وآفاق المكان، وأغوار المنظور، والمحجوب والمعلوم والمجهول. العلم علي كل شيء، المحيط بكل شيء، الحافظ لكل شيء: الصغير والكبير والحقيق والجليل، والمخبوء، والظاهر، والمجهول والمعلوم، والبعيد والقريب.

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ (٣) آماد وآفاق وأغوار في المجهول المطلق في الزمان والمكان، وفي الماضي والحاضر والمستقبل وفي أحداث الحياة وتصورات الوجدان.

﴿ويعلم ما في البر والبحر﴾ آماد وآفاق وأغوار في المنظور على استواء وسعة وشمول. تناسب في عالم الشهود المشهود تلك الآماد والآفاق والأغوار في عالم الغيب المحجوب.

(٢) سورة الأنعام/ ٥٩.

(١) سورة الإسراء/ ٣٠.

(٣) سورة الأنعام/ ٥٩.

﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها﴾ حركة الموت والفناء، وحركة السقوط والانحدار من علو إلى سفلى، ومن حياة إلى اندثار. ﴿ولا حبة في ظلمات الأرض﴾. . حركة البزوغ والنماء، المنبثقة من الغور إلى السطح، ومن كمون وسكون إلى اندفاع وانطلاق ﴿ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾. . التعميم الشامل الذي يشمل الحياة والموت، والازدهار والذبول، في كل شيء على الإطلاق^(١).

ومن الأمور التي اختص الله بعلمها ما ورد في آخر سورة لقمان . قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(٢). فهذه مفاتيح الغيب التي استأثر الله تعالى بعلمها فلا يعلمها أحد إلا بعد إعلامه تعالى له بها، فعلم وقت الساعة لا يعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب ﴿لا يجليها لوقتها إلا هو﴾ وكذلك إنزال الغيث لا يعلمه إلا الله، ولكن إذا أمر به علمته الملائكة الموكلون بذلك ومن شاء الله من خلقه، وكذلك لا يعلم ما في الأرحام مما يريد أن يخلقه تعالى سواء، ولكن إذا أمر بكونه ذكراً أو أنثى أو شقيماً أو سعيداً علم الملائكة الموكلون بذلك ومن شاء الله من خلقه.

وكذلك لا تدري نفس ماذا تكسب غداً في دنياها وأخرها وما تدري نفس بأي أرض تموت، في بلدها أو غيره من أي بلاد الله كان لا علم لأحد بذلك^(٣).

وقد روى ابن عمر (رضي الله عنهما) قال : قال رسول الله ﷺ :

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد الثاني، ص ١١١٣.

(٢) سورة لقمان / ٣٤.

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، المجلد الثالث، ص ٥٣.

«مفاتيح الغيب خمسة لا يعلمها إلا الله : إن الله عنده علم الساعة، وينزل الغيث، ويعلم ما في الأرحام، وما تدرئ نفسٌ ماذا تكسب غداً، وما تدرئ نفسٌ بأى أرض تموت، إن الله عليمٌ خبير»^(١).

والله عزّ وجلّ قد جعل الساعة غيباً لا يعلمه سواه، ليبقى الناس على حذر دائم، وتوقع دائم، ومحاولة دائمة أن يقدموا لها، وهم لا يعلمون متى تأتى، فقد تأتاهم بغتة في أى لحظة، ولا مجال للتأجيل في اتخاذ الزاد، وكتر الرصيد، والله ينزل الغيث وفق حكمته، بالقدر الذي يريده، وقد يعرف الناس بالتجارب والمقاييس قرب نزوله، ولكنهم لا يقدرّون على خلق الأسباب التي تنشئه والنص يقرر أن الله هو الذي ينزل الغيث، لأنه سبحانه هو المنشئ للأسباب الكونية والتي تنظمه فاختصاص الله في الغيث هو اختصاص القدرة . . ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ اختصاص بالعلم كالاختصاص في أمر الساعة فهو سبحانه الذي يعلم وحده علم اليقين ماذا في الأرحام في كل لحظة وفي كل طور . . من فيض وغيض . ومن حمل حتى حين لا يكون للحمل حجم ولا جرم . . ونوع هذا الحمل ذكر أو أنثى، حين لا يملك أحد أن يعرف عن ذلك شيئاً في اللحظة الأولى لاتحاد الخلية والبويضة، وملامح الجنين وخواصه وحالته واستعداداته . . فكل أولئك مما يختص الله بعلمه . . ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ ماذا تكسب من خير وشر، ومن نفع وضرر، ومن يسر وعسر، ومن صحة ومرض، ومن طاعة ومعصية، فالكسب أعم من الربح المالي وما في معناه، وهو في

(١) أخرجه البخارى في كتاب الاستسقاء وفي كتاب التفسير .

ما تصيبه النفس في الغداة . وهو غيب مغلق عليه الستار . .
وكذلك ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ فذلك أمر وراء الستار المسبل
السميك الذي لا تنفذ منه الأسماع والأبصار . والسياق القرآني يعرض
هذه الغيبات في رقعة فسيحة هائلة .

رقعة فسيحة في الزمان والمكان وفي الحاضر والواقع ، والمستقبل
المنظور والغيب السحيق ، وفي خواطر النفس ، ووثبات الخيال ما بين
الساعة البعيدة المدى ، والغيب البعيد المصدر ، وما في الأرحام الخافي
عن العيان ، والكسب في الغد ، وهو قريب في الزمان ومغيب في
المجهول . . وموضع الموت والدفن وهو مبعد في الظنون إنها رقعة
فسيحة الآماد والأرجاء تجتمع أطرافها كلها عند نقطة الغيب المجهول ،
وتظل هذه الأشياء مغلقة في وجه الإنسان لأنها فوق مقدور الإنسان
وراء علم الإنسان . . فهي خالصة لله لا يعلمها غيره ، إلا بإذن منه
ولا بمقدار . ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ وليس غيره بالعليم ولا بالخبير^(١) .

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تبرز إحاطة علم العليم
الخبير (سبحانه) ، فقد نبأت هذه الآيات بأمور لم يكن أحد يعلمها وقت
نزول القرآن . ثم وقعت مطابقة تماماً لما نزل في القرآن .

فقد نص القرآن الكريم من أخبار الماضي والمستقبل ما يعجز عنه
البشر

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ
يَمْكُرُونَ﴾ (٢) .

(١) سيد قطب ، في ظلال القرآن ، المجلد الخامس ، ص ٢٧٩٨ ، ص ٢٧٩٩ .

(٢) سورة يوسف / ١٠٢ .

﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَفَلَا مَعَهُمْ أَيْتُهُمْ يَكْفُلُ مَرِيماً وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (١).

ومن هذه الأخبار التي أخبر بها العليم الخبير:

*ذكر القرآن الكريم قصة رسولين، وفدا إلى مصر وكان لهما شأن فيها، وهم يوسف وموسى عليهما السلام، أما يوسف فقد ذكر أنه قابل حاكم مصر، وكان له معه شأن فقد أول له رؤياه، وصار مقرباً منه ممكناً في الأرض. وقد أطلق القرآن الكريم على هذا الحاكم لقب «ملك» وجاء ذلك اللقب خمس مرات في سورة يوسف. أما موسى عليه السلام فقد ولد في مصر، ثم تركها، ثم عاد إليها، بعد إعلامه بالرسالة ليدعو حاكمها. وقد لقب الحاكم في أيامه بلقب فرعون، ولم يطلق عليه لقب الملك أبداً. وقد ذكر هذا اللقب أربعاً وسبعين مرة في سبع وعشرين سورة من القرآن الكريم. فلماذا لُقّب الحاكم أيام يوسف (عليه السلام) بالملك، ولُقّب أيام موسى (عليه السلام) بالفرعون؟

الإجابة على هذا السؤال لم يعرفها علماء الآثار إلا منذ عهد قريب بعد انكشاف حجر رشيد ومعرفة الكتابة المصرية القديمة. فلقب فرعون اختص به الحكام المصريون فقط ومعناه الباب العالي. أما الحكام الأجانب فقد كانوا يلقبون بلقب ملك. وعندما جاء يوسف (عليه السلام) إلى مصر لم يكن حاكم مصر من المصريين، وإنما كان من الرعاة الهكسوس، ولذلك لقب بالملك. أما في أيام موسى - عليه السلام - فقد كان مصرياً، ولم يكن أجنبياً، ولذلك لقب بالفرعون.

فالقرآن الكريم وضع كل لقب في موضعه ليكون ذلك من دلائل

إعجازه بعد اثني عشر قرناً من الزمان. ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ (١).

* وقد أخبر العليم الخبير المسلمين بمستقبل الدين الإسلامي، وأنه سيتمكن في الأرض، وسيظهره على ما سواه، مع أن المسلمين وقتها كانوا قلة مستضعفين في الأرض.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (٢).

وصدقت هذه النبوءة، وعلا الإسلام وانتشر وهو في علو وانتشار إلى قيام الساعة، في كل يوم يدخل فيه أفراد وجماعات ممن شرح الله صدورهم.

* وأخبر العليم الخبير عن مستقبل القرآن الكريم، وذكر (سبحانه وتعالى) أن هذا القرآن سيحفظ إلى قيام الساعة قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاحِفُونَ﴾ (٣).

والعجيب أن هذه النبوءة تصدق كل يوم، فالقرآن الكريم منذ أن نزل على خاتم المرسلين ﷺ ما زال كما هو لم تقترب منه يد بشر، فهو محفوظ بحفظ الله له. وعلى الرغم من كثرة أعداء الإسلام، واتحاد كلمتهم على كراهيته، فإنهم قد سخرُوا من حيث لا يدرون لخدمة هذا القرآن. فهم الذين اخترعوا ماكينات الطباعة، والتي طبعت بها الكتب المختلفة، وطبع بها القرآن الكريم ليسهل تداوله، وليكثر في أيدي

(١) سورة هود/ ٤٩.

(٢) سورة التوبة / ٣٣.

(٣) سورة الحجر/ ٩.

الناس . وهم الذين اخترعوا أجهزة الكمبيوتر التى سطرت على شاشاتها الآيات القرآنية . ، وعدت بها حروفه وكلماته . وأخبر العليم عن مستقبل بنى الإسلام وفى أنه سيحفظه ويعصمه من الناس .

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ (١) ل

وهذا ضمان لا يملكه بشر ، لأن محمداً ﷺ كان مستهدفاً من قبل الكثيرين من أعدائه من اليهود والمشركين والمنافقين وبلغ من ثقة الرسول بهذا الوعد كما يروى أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه : أنه كان يُحرس بالليل ، فلما نزلت هذه الآية قال : ﴿ يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمنى الله ﴾ (٢) .

* أخبر العليم الخبير عن مستقبل جماعة المسلمين فنزل القرآن الكريم على رسول الله ﷺ بمكة والمسلمون يومئذ قلة يعدمهم الأمن والنصر والغلبة .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَإِنْ جُنَدُنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (٣) . فلما هاجروا إلى المدينة ، ظنوا أنهم قد وجدوا مأمهم في مهاجرهم ، ولكنهم ما لبثوا أن هاجمتهم الحروب وتكالب عليهم الأعداء من كل جانب فانتقلوا من خوف إلى خوف أشد .

وأصبحت كل أميتهم أن يجيء يوم يضعون فيه السلاح . في هذه

(١) سورة المائدة / ٦٧ .

(٢) رواه الطبري ٤٦٩ / ١٠ والترمذي (٣٠٤٩) فى التفسير عن عائشة ، وصححه الحاكم ٣١٣ / ٢ ووافقه الذهبي .

(٣) سورة الصافات / ١٧١ - ١٧٣ .

الفترة العصبية يخبرهم العليم الخبير بما سيكون من الخلافة والمملك، علاوة على الأمن والاطمئنان^(١).

قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾^(٢).

* ومنع المسلمون من دخول مكة عام الحديبية، واشترطت قريش عليهم إذا جاءوها في العام المقبل أن يدخلوها بدون سلاح إلا السيوف في القرب. فكيف يأتمنون قريشاً، ويدخلون مكة بدون عدة حربية كاملة؟! وماذا لو رشقهم أهل مكة بالنبال والسهام؟! في هذا الوقت العصيب يأتيهم وعد من الله العليم الخبير بثلاثة أشياء: الدخول والأمن وقضاء الشعيرة.

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾^(٣) فدخلوها في عمرة القضاء آمنين، ولبثوا فيها ثلاثة أيام حتى أتموا عمرتهم وقضوا مناسكهم.

* وأخبر العليم (سبحانه وتعالى) عن: مستقبل الكافرين، فعندما استعصى أهل مكة على رسول الله ﷺ دعا عليهم بسنين كسنى يوسف فاستجاب الله له، وأصابهم القحط والفقر حتى أكلوا العظام، وحتى جعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد.

(١) انظر تفسير ابن كثير، ج ٢، ص ٣٠١.

(٢) سورة النور / ٥٥.

(٣) سورة الفتح / ٢٧.

﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ (١٠) يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ .

فاستعطفوا فنزل: ﴿إِنَّا كَاشَفُوا الْعَذَابَ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ (١٥) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿٢﴾ . . وفي ذلك ثلاث نبوءات :

١- كشف العذاب قليلاً .

٢- عودتهم إلى مكرهم السيء .

٣- الانتقام منهم بعد ذلك .

فعندما تضرعوا، وقالوا: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ (٣) . سقاهم فأخصبوا، ولكنهم عادوا إلى مكرهم السيء، فبطش بهم البطشة الكبرى في يوم بدر حيث قُتل من صناديدهم سبعون، وأسر سبعون .

﴿وقد أخبرهم العليم الخبير عن هزيمتهم الحربية في يوم بدر﴾ ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ (٤) . ونزلت هذه الآية في مكة ولم يكن أحد يومها يفكر في اللقاء الحربي، فضلاً عن فرارهم ﷺ حتى إن عمر (رضي الله عنه) لما نزلت هذه الآية جعل يقول: أي جمع هذا؟ قال: فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب في الدرع وهو يقول ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ فعرفت تأويلها يومئذ (٥) .

﴿وأخبر العليم الخبير عن معركة حربية تقع بين الروم والفرس،

(١) سورة الدخان / ١٠، ١١ (٢) سورة الدخان / ١٥، ١٦ .

(٣) سورة الدخان / ١٢ . (٤) سورة القمر / ٤٥ .

(٥) انظر تفسير ابن كثير، ج ٤، ص ٢٢٦ .

وحدد نتيجة المعركة قبل وقوعها ببضع سنين . بل حدد يوم وقوعها ، وأشار إلى أنه في هذا اليوم سيفرح المؤمنون . وتحققت النبوءة بالكامل . والتقت في هذا اليوم الروم ، والفرس ، وانتصرت الروم على الفرس ، والتقي أيضاً المسلمون مع الكافرين في بدر ، وانتصر المسلمون في اليوم نفسه كما أخبر القرآن .

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ غَلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾ (٣) فِي بضع سنين لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿ (١) .

فقد كان المشركون في مكة يجادلون المسلمين قبل الهجرة ، ويقولون لهم : إن الروم يشهدون أنهم أهل كتاب ، وقد غلبهم المجوس ، وأنتم تزعمون أنكم ستغلبوننا بالكتاب الذي أنزل عليكم ، فسنغلبكم كما غلبت فارس الروم ، فنزلت الآيات السابقة .

وفي الآيات السابقة تحديد دقيق ﴿ فِي بضع سنين ﴾ كما أن هناك ربطاً بين هذا النصر نصر الروم على الفرس وانتصار المسلمين على المشركين في بدر ويكون ذلك في يوم واحد .

وهذا يستحيل أن يتنبأ به بشر ، لأنه ربط لأمر في الغيب ، ولحوادث لا صلة لإحداها بالأخرى . فلا توجد أسباب ووسائل تربط بين معركة المسلمين مع قريش ، ومعركة الفرس مع الروم . والعجيب أن الروم كانوا قد بلغوا من الضعف حداً كبيراً ، حتى غزوا وهزموا في عقر دارهم ، وهذا يجعل التنبأ يحجم عن الكلام في انتصارهم على الفرس فسبحان العليم الخبير .

وقد يسأل البعض لماذا قال في بضع سنين ولم يحدد الوقت تحديداً أدق من هذا في يوم كذا في شهر كذا في عام كذا، وهو سبحانه وتعالى العليم الخبير؟

والجواب على ذلك يسير، وهو أن هذا الأمر يرجع إلى المتلقين للنبا، فالناس في حساباتهم لا يجرون على وتيرة واحدة، فمنهم من يحسب بالشمس، ومنهم من يحسب بالقمر، ومنهم من يكمل الكسور، ومنهم من يلغيها. فكان مقتضي الحكمة التعبير باللفظ الصادق على كل تقدير ليكون أقطع للشبهة وأبعد عن الجدل. وربما امتدت الحرب أياماً وشهوراً، ولذلك لم يقل ﴿بعد بضع﴾ وإنما قال ﴿في بضع﴾ وفي الآية لمحة طريفة في قوله تعالى: ﴿في أدنى الأرض﴾ ويقصد بها المنطقة المحيطة بالبحر الميت، وقد ثبت علمياً أنها أدنى بقعة أى أخفض بقعة على اليابسة.

هذا غيض من فيض من إخبار العليم الخبير في القرآن الكريم عن أنباء الغيب ولا يتسع المجال هنا لذكر أكثر من ذلك. وهناك مؤلفات عن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم ذكرت كثيراً من هذه الأمور. فمن أراد الاستزادة فليراجعها.

وكل علم يتعلمه الإنسان مصدره العليم الخبير فهو سبحانه وتعالى الذي يمد الإنسان بكل علم، وكل فتح، فمنه وحده التعليم والمعرفة، وأجل علم علمه الله عز وجل للإنسان هو القرآن الكريم، فهو النعمة الكبرى التي تتجلى فيها رحمة الله بالإنسان، هذا القرآن الذي يعتبر الأساس الثابت الذي يقيم عقيدة أهل الأرض وتصوراتهم وموازينهم وقيمهم وأحوالهم على الحق، ويرشداهم إلى سعادة الدارين الدنيا والآخرة.

والعلم بصفة عامة له مكانة عظيمة فهو الضياء الذي يشرق على

العقول فيحيها بعد موتها، وينيرها بعد ظلمتها، ولذلك حفل القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة بما يحض علي العلم ويرغب فيه .

فأول آية نزلت من السماء في القرآن الكريم بدأت بالفعل ﴿اقرأ﴾ لتحض علي القراءة والتعلم، ثم ذكر بعدها القلم كأداة من أدوات العلم لا غنى عنها .

وثاني سورة نزلت في القرآن الكريم بعد السورة السابقة سورة القلم، وبدأت بالقسم بأداتين من أدوات العلم وهما : نون : وهي الدواة علي ما ذهب إليه بعض المفسرين ، والقلم، قال تعالى : ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ (١) . وليست هناك إشادة بالعلم أعظم من رفع الحق لمكانة حامله قال تعالى : ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ (٣) .

وقد استشهد الحق (سبحانه) في الآية السابقة بأولي العلم علي أجل مشهود عليه وهو توحيده، وهذا يدل علي فضل العلم وأهله لأن الله (عز وجل) لا يستشهد من خلقه إلا العدول، ولذلك قال تعالى : ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٤) .

فحامل العلم له مكانته وفضله، وهو لا يستوي مع غيره من سائر الناس، عن أبي أمامة (رضي الله عنه) قال : ذكر لرسول الله ﷺ

(٢) سورة المجادلة / ١١ .

(٤) سورة الزمر / ٩ .

(١) سورة القلم / ١ ، ٢ .

(٣) سورة آل عمران / ١٨ .

رجلان: أحدهما عابد، والآخر عالم، فقال عليه الصلاة والسلام: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم، ثم قال: إن الله وملائكته، وأهل السموات والأرض حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير»^(١).

والعلماء مغبوطون بنعمة العلم، لأنها أجل نعمة وأعظم منحة. عن ابن مسعود (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حسد إلا في اثنين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه علىهلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها»^(٢).

والعلماء يكرمون بعلمهم في الدنيا، ويؤجرون عليه في الآخرة فكم من رجل لم يكن شيئاً مذكوراً، ثم رفعت مكانته بعلمه ومن أجمل ما ورد في ذلك قصة ابن أبرئ فيروى أن نافع ابن الحارث لقي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بعسفان وكان عمر ولاء على مكة فسأله: من استخلف علي أهل الوادي؟ فقال: ابن أبرئ. قال عمر: فاستخلفت عليهم مولى؟ قال: إنه قارئ لكتاب الله (عز وجل)، وإنه عالم بالفرائض (الموارث) قال عمر: أما إن نبيكم ﷺ، قد قال: «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع الآخرين»^(٣).

وطالب العلم لا حد لطموحه في الإسلام فهو أبداً يطلب المزيد من العلم.

قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾^(٤).

وقال تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾^(٥).

(١) رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح (رقم/ ٢٦٨٦).

(٢) رواه الشيخان (البخاري ١/ ١٥٢)، ومسلم (٨١٦).

(٣) رواه مسلم (٨١٧). (٤) سورة طه/ ١١٤.

(٥) سورة يوسف/ ٧٦.

وقد قال معاذ بن جبل (رضي الله عنه) : «تعلموا العلم فإنَّ تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يحسنه صدقة، وبذله لأهله قرية، به يعرف الله ويعبد، وبه يوحد، وبه يعرف الحلال من الحرام، وتوصل الأرحام، وهو الأنيس في الوحدة والصاحب في الخلوة، والدليل على السراء، والمعين على الضراء، والوزير عند الأخلاء والقريب عند الغرباء، ومنار سبل الجنة، يرفع الله به أقواماً فيجعلهم في الخير قادة وسادة يقتدي بهم، أدلة في الخير، تقتفى آثارهم وترمق أفعالهم، وترغب الملائكة في خلعتهم، وبأجنحتهم تمسحهم، يستغفر لهم كل رطب ويابس حتى حيتان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه، والسماء ونجومها، والعلم حياة القلوب من العمى، ونور الأبصار من الظلم، وقوة للأبدان من الضعف، يبلغ به العبد منازل الأبرار والدرجات العلى، التفكر فيه يعدل بالصيام ومدارسته بالقيام، وهو إمام للعمل، والعمل تابعه يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء^(١).

ومفتاح العلم النافع في الدنيا والآخرة تقوى الله (عز وجل).

قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(٢).

﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾^(٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي^(٢٦) وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِن لِسَانِي^(٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي^(٢٨)﴾^(٣).

﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾^(٤).

(١) رواه أبو نعيم والحطيب وغيرهم، انظر: مفتاح دار السعادة لابن القيم ص ١٥٣.

(٢) سورة البقرة / ٢٨٢. (٣) سورة طه / ٢٥ : ٢٨.

(٤) سورة طه / ١١٤.

- «اللهم إني أسألك علماً نافعاً، ورزقاً طيباً، وعملاً متقبلاً»^(١).
 «اللهم إني أسألك علماً نافعاً، وأعوذ بك من علم لا ينفع»^(٢).
 «اللهم انفعني بما علمتني، وعلمني ما ينفعني، وزدني علماً»^(٣).
 «اللهم فقهني في الدين»^(٤).

«يا من لا تراه العيون، ولا تخالطه الأوهام والظنون، ولا تغيره الحوادث، ولا يصفه الواصفون، يا عالماً بمشاقيل الجبال، ومكايل البحار، وعدد قطر الأمطار، وورق الأشجار، وعدد ما أظلم عليه الليل وأشرق عليه النهار، لا توارى منه سماء سماءً، ولا أرض أرضاً، ولا جبل ما في وعره، ولا بحر ما في قعره. أسألك أن تجعل خير عمري آخره، وخير عملي خواتمه، وخير أيامي يوم ألقاك، وخير ساعتى مفارقة الأحياء من دار الفناء إلى دار البقاء التى تكرم فيها من أحببت من أوليائك، وتهين فيها من أبغضت من أعدائك، أسألك إلهي عافية جامعة لخير الدنيا والآخرة مناً منك علىّ وتطولاً يا ذا الجلال والإكرام»^(٥).

* * *

(١، ٢، ٣) رواه ابن ماجه وانظر صحيح ابن ماجه ١/١٥٢، ٢/٣٢٧، ١/٤٧.
 (٤) مأخوذ من دعاء رسول الله ﷺ لابن عباس (رضى الله عنهما)، رواه البخارى ومسلم ٤/١٧٩٧.
 (٥) ابن الجوزى، مرجع سابق، ج ٤، ص ٤١٦.

الرقيب الشهيد الحافظ الحفيظ

٦٨ ٦٩ ٧٠ ٧١

الرقيبُ اسمٌ من أسماء الله الحسنى ، ومعناه الحافظ الذي لا يغيب عنه شيء ، الحفيظ الذي لا يغفل ، الحاضر الذي لا يغيب ، العليم الذي لا يعزب عنه شيء من أحوال خلقه ، يرى أحوال العباد ويحصي أعمالهم ويحيط بمكنونات سرائرهم ، فهو مطلع على الضمائر شاهد على السرائر ، يعلم ويرى ولا يخفى عليه السر والنجوى . من الأسرار قريب وعند الاضطرار مجيب .

إذا خلوت يوماً فلا تقل خلوت ولكن قل: على رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما تخفيه عنه يغيب

وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم ثلاث مرات .

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (١) .

﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (٢) .

﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ

(١) سورة النساء / ١ .

(٢) سورة المائدة / ١١٧ .

إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ﴿١﴾ .

فالرقيب (سبحانه) يراقب الأشياء ويلاحظها . فلا تفوته لفظة ناظر ، ولا فلتة خاطر ، ولا تغيب عنه ذرة في السموات ولا الأرض .

يقول ابن القيم :

وهو الرقيب على الخواطر واللوا حظ كيف بالأفعال والأركان

أما الشهيد فهو مشتق من الشهود بمعنى الحضور ، ويستلزم ذلك العلم ، قاله عز وجلّ شهيد أي مطلع على كلّ الأشياء ، يسمع جميع الأصوات ، خفيها وجليها ، يبصر جميع المخلوقات دقيقها وجليلها ، صغيرها وكبيرها ، وأحاط علمه بكل شيء .

فهو (سبحانه) شهيد أي حاضر مع كل مخلوق في كل زمان ومكان ، لا يغيب عنه شيء في ملكه ، وكل شيء داخل ملكه . مطلع علي كل شيء ، مشاهد له ، عالم بتفاصيله ، بالغ الغاية في علمه بالأمور الظاهرة المشاهدة .

وهو (سبحانه) شهيد يشهد على الخلق يوم القيامة بما علم وشاهد من أفعالهم . وهناك ارتباط بين أسماء العليم والخبير والشهيد ، فإذا اعتبر العلم مطلقاً فهو العليم ، وإذا أضيف إلى الغيب والأمور الباطنة فهو الخبير ، وإذا أضيف إلى الأمور الظاهرة فهو الشهيد .

والفرق بين الرقيب والشهيد أن الرقيب فيه زيادة حفظ ، فالشهيد مطلع علي جميع الأشياء لا يغيب عنه شيء في الوجود ، والرقيب مطلع عليها حفيظ لها .

وقد ورد اسم الله الشهيد في القرآن الكريم تسع عشرة مرة .
قال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ (٢). ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ (٣).

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (٤).

وتشترك الأسماء الثلاثة الرقيب والشهيد والمحيط في صفة العلم
بيد أن الرقيب يفيد مع العلم الحفظ، والشهيد يفيد مع العلم الحضور،
والمحيط يفيد مع العلم القدرة والشمول.

أما الحافظ الحفيظ فهو من الحفظ ، والحفظ معناه صون الأشياء عن الزوال .

قاله (سبحانه وتعالى) هو الحفيظ الذي يرعى خلقه ويصونهم ، وهو الحفيظ أيضاً العالم بجميع المعلومات علماً لا تغير له ولا زوال ، وهو المحيط بما في السموات والأرض .

وقد ذكر ابن القيم معنى الحفيظ فقال :

وهو الحفيظ عليهم وهو الكفـ
 سيل بحفظهم من كل أمر عان

«فللحفيظ معنيان : أحدهما أنه قد حفظ على عباده ما عملوه من

(۱) سورة آل عمران / ۹۸ .

(٢) سورة النساء / ٣٣ . (٣) سورة العنكبوت / ٥٢ .

(٤) سورة الفتح / ٢٨ .

خير وشر وطاعة ومعصية، فإن علمه محيط بجميع أعمالهم ظاهرها وباطنها، وقد كتب ذلك في اللوح المحفوظ، ووكل بالعباد ملائكة كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون، فهذا المعنى من حفظه يقتضى إحاطة علم الله بأحوال العباد كلها ظاهرها وباطنها، وكتابتها في اللوح المحفوظ وفي الصحف التي في أيدي الملائكة، وعلمه بمقاديرها وكمالها ونقصها ومقادير أجزائها في الثواب والعقاب ثم مجازاتهم عليها بفضله وعدله.

والمعنى الثاني للحفيظ: أنه تعالى الحافظ لعباده من جميع ما يكرهون، ولهذا قال: «وهو الكفيل بحفظهم من كل أمر عان» أى شاق مكروه. وحفظه لخلقه نوعان: عام وخاص.

فالعلم: حفظه لجميع المخلوقات بتيسيره لها ما يقيتها ويحفظ بنيتها، وتمشي إلى هدايته وإلى مصالحها بإرشاده وهدايته العامة التي قال عنها: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾^(١) أى هدى كل مخلوق إلى ما قدر له وقضى له من ضروراته وحاجاته كالهداية للمأكل والمشرب والمنكح، والسعي في أسباب ذلك، وكدفعه عنهم أصناف المكاره والمضار، وهذا يشترك فيه البر والفاجر بل الحيوانات وغيرها. فهو الذي يحفظ السموات والأرض أن تزولا، ويحفظ الخلائق بنعمه، وقد وكل بالآدمي حفظة من الملائكة يحفظونه من أمر الله، أى يدفعون عنه كل ما يضره مما هو بصدد أن يضره لولا حفظ الله.

والنوع الثاني: حفظه الخاص لأوليائه سوى ما تقدم، بحفظهم عما يضر إيمانهم أو يزلزل يقينهم من الشبه والفتن والشهوات، فيعافيهم منها ويخرجهم منها بسلامة وحفظ وعافية. ويحفظهم من أعدائهم من الجن والإنس، فينصرهم عليهم ويدفع عنهم كيدهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾^(٢) وهذا عام في دفع جميع ما يضرهم في

(١) سورة طه، آية: ٥٠.

(٢) سورة الحج، آية: ٣٨.

دينهم ودنياهم، فعلي حسب ما عند العبد من الإيمان تكون مدافعة الله عنه بلطفه، وفي الحديث: «احفظ الله يحفظك» أي الله فظ أو امره بالامتنال ونواهيه بالاجتناب، وحدوده بعدم تعديها، يحفظك في نفسك ودينك ومالك وولدك، وفي جميع ما آتاك من فضله» (١).

وقد ورد اسم الحفيظ في القرآن الكريم ثلاث مرات.

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ﴾ (٢).

﴿وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ﴾ (٣).

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيزٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ

بوكيل﴾ (٤).

وورد اسم الحافظ أيضاً ثلاث مرات في القرآن الكريم.

مرة بصيغة المفرد:

قال تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ خَيْرَ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (٥).

ومرتين بصيغة الجمع:

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (٦).

﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ (٧).

والله سبحانه وتعالى رقيب علي كل شيء، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

(١) عبد الرحمن آل سعدني، الحق الواضح المبين، ص ٥٩: ٦١.

(٢) سورة هود/ ٥٧. (٣) سورة سبأ/ ٢١.

(٤) سورة الشورى/ ٦. (٥) سورة يوسف/ ٦٤.

(٦) سورة الحجر/ ٩. (٧) سورة الأنبياء/ ٨٢.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ (١).

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ (٢).

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبَالْمُرْصَادِ﴾ (٣).

﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ (٤).

فهو سبحانه وتعالى رقيب ومطلع على كل شيء، وحاضر وشهيد لا يغيب، وهو بالمرصاد أي يرصد الأعمال والأفعال لا يفوته شيء، ولا يند عنه شيء. فهو سبحانه وتعالى رقيب شهيد حفيظ يحفظ بانتظام وميزان ما في السموات والأرض، وما في البر والبحر، من رطب ويابس فلا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فخالق هذا الكون يضبط كل شيء فيه ويرعاه، ويحفظه ولا ينساه.

ومن آثار رقابته ورايته وحفظه (سبحانه وتعالى) أن جعل ملائكة يكتبون ويسجلون أعمال العباد: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (٥).

وفي الحديث الصحيح عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم الله - وهو أعلم بهم - كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم

(١) آل عمران / ٥. (٢) سورة الحديد / ٤.

(٣) سورة الفجر / ١٤.

(٤) سورة غافر / ١٩.

(٥) سورة ق / ١٨.

وهم يصلون، وأتيناهم وهو يصلون»^(١).

قال ابن عباس (رضى الله عنه): وهؤلاء الملائكة يكتبون كل ما يتكلم به الناس من خير أو شر حتى أنه ليكتب قوله أكلت شربت ذهبت جئت رأيت حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله فأقر منه ما كان فيه من خير أو شر ما وألقى سائرته وذلك قوله تعالى: ﴿يُحَوِّثُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(٢).

وذكر عن الإمام أحمد أنه كان يثن في مرضه فبلغه عن طاوس أنه قال: يكتب الملك كل شيء حتى الأنين فلم يثن أحمد حتى مات رحمه الله^(٣).

فأقوال العبد وأفعاله تحفظ عليه .

وقد أثبت العلم الحديث إمكانية استرجاع ما يصدر عن الإنسان من الأصوات، ذلك أن كلام الإنسان يتحول إلى موجات هوائية وأن هذه الموجات تبقى كما هي في الأثير إلى الأبد بعد حدوثها، ومن الممكن سماعه مرة أخرى، ولكن علم البشر الآن قاصر عن إعادة هذه الأصوات أو حفظ تلك الموجات مرة أخرى، ولكن من ناحية علمية نظرية من الممكن التقاط هذه الأصوات مرة أخرى وسماع الأصوات القديمة إذا ما نجح الإنسان في اختراع آلة تقوم بذلك. وهذا يجعل ما أخبر به القرآن من تسجيل ما ينطق به الإنسان أمراً سهلاً ميسوراً.

(١) متفق عليه (البخارى ٢/ ٢٨، ٣١)، ومسلم (٦٣٢).

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٤، ص ٢٢٤.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٢٤.

«يقول الدكتور (باورز) الأمريكي: «إنَّ الكلمة إذا خرجت من فم القائل، مضت كالسهم لا ماح لأثرها، وأشد منها الفعلة، فإنها متى فعلت بقيت علي الأبد مفعولة. . كالكلمة وبقيت مسترسلة في فضاء الزمن اللانهائي، وسواء أكانت ظاهرة أو مستترة فستبقى فعالة تزكوا أبداً، وتنمو عنصراً جديداً لا يفنى ولا ينعدم».

ويقول (وليم جيوس) «إننا إذا ألقينا حجراً في وسط المحيط فإن هذا الحجر الملقى يحدث تموجات، وذبذبات في البحر إلى الأبد. إننا في كل مرة نحرك فيها يدنا نخلق تموجات في الأثير الكوني (الأشعة الكونية) لا تنقطع أبداً، وهذا يصدق على الأفعال والأصوات فإن الصوت يحدث أيضاً تذبذبات كهربائية لا تنقطع أبداً، ويمكن التقاط الأصوات للكائنات في مختلف العصور إذا وفقنا لجهاز التقاط مناسب، لأن أصواتهم لازالت تجول حول العالم في رحلات أبدية خلا الأثير (الإشعاع الكوني)»^(١).

فكل كلمة أو حركة أو فعلة محفوظة في الفضاء، ومسجلة في صحائف الكرام الكاتبين. وتمثل الطبقات الهوائية أي الغلاف الهوائي للأرض مظلة فولاذية واقية من الأخطار الفضائية، وهي مظلات في غاية الليونة واللطافة ولا تشاهد بالابصار. وهذا الغلاف يصل ارتفاعه إلى حوالي (١٠٠٠) كيلو متر، ويتكون هذا الغلاف من ٢١ ٪ أكسجين، ٧٨ ٪ نيتروجين، ١ ٪ غازات أخرى، وهو غلاف غازي، والغاز صورة من صور المادة، ولذلك سماه الحق - سبحانه - سقفاً.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرَضُونَ﴾^(٢).

(١) انظر ابن خليفة عليوي، مرجع سابق، ص ٧٢.

(٢) سورة الأنبياء / ٣٢.

وهذا السقف محفوظ بجاذبية الأرض له ، ولذلك لا يتسرب ولا يتلاشى في الفضاء ، وهو أيضاً حافظ لما فيه ولما يعيش في كنفه ، لما يلي :

١- به الأكسجين والتروجين وكلاهما لازم لحياة الإنسان والحيوان والنبات علي سطح الأرض .

٢- يحفظ دورة الماء التي تسير فيه من التبخر حتى التكثف .

٣- يحفظ الصوت ويرجعه مرة ثانية ، وقد أقسم بهذا المولى (عز وجل) ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ (١) .

٤- يحمي الحياة على ظهر الأرض من أهوال الفضاء من أشعة فتاكة وشهب ونيازك ، ومن درجة الحرارة المنخفضة جداً حوالي ٢٧٠ درجة مئوية تحت الصفر في الفضاء الكوني .

٥- ينظم هذا الغلاف درجات الحرارة على سطح الأرض .

فسبحان الحفيظ الذي خلق هذا السقف المحفوظ ليحفظ مخلوقاته !

وصدق الشاعر :

جلّ الحفيظُ فلولا لطفُ قدرته ضاع الوجودُ وضلّ النجم والفلكُ
حتى القطيرة من ماء إذا نزلت من السحب لها في حفظها ملكُ

أما آثار الحفظ والرعاية والعناية في داخل جسم الإنسان فلا يحصيها المقال .

ونددع الدكتور خلود نور باقى يحدثنا بأسلوبه العلمي الممتع عن

بعض الآثار والتي تتمثل في منظومة الدفاع في داخل الجسم، فيصف لنا أين تنشأ وتنمو هذه الكتائب؛ وأين تتدرب؛ ونوع التدريب الذي تتلقاه، وكيف تقوم بعلمها، ووصف لمعركة ميدانية بين هذه الكتائب والغزاة، وكيف تتصرف هذه الكتائب عندما تشعر بإنكسارها أمام هؤلاء الغزاة، وأين توجد قوات حرس الحدود في جسم الإنسان، والمناورات العسكرية التي تقوم بها.

يقول: «تتكون منظومة الدفاع عند الإنسان في العمود الفقري في نخاع العظام والحكمة أو السرف في ذلك، هو أن الخلايا الدفاعية تنمو بانقسامات عديدة ومعقدة، ولكي تحفظ هذه الخلايا التي تمر بكل هذه الانقسامات وتضان من التأثيرات الخارجية الضارة، ترى أن الخالق العليم قد وضعها في أبعد الأماكن عن التأثير الضوئي في أجسامنا، وأكثرها أمناً، ألا وهي نخاع العظام. . ونخاع العظام مختبر بيولوجي عجيب. . فهو مختبر يستطيع فيه النخاع بواسطة خلية واحدة صنع خلايا لا تعد ولا تحصى. خلايا ذات قابليات عديدة ومدهشة. وفي جميع الأحياء نجد الخلايا تستطيع تكرار نفسها فقط. . ولكن هناك استثناء واحد هو نخاع العظم ففي نخاع العظم وبواسطة خلية اعتيادية جداً يصنع كل نوع من أنواع الخلايا! فكيف تنتج خلية معينة خلية أخرى مختلفة عنها لا علاقة لها بها على الإطلاق؟! هذا سر إلهي؟! بعد أن يتم صنع الخلايا اللمفاوية في نخاع العظم ترسل هذه الخلايا إلى الغدة «العصنزيه» الموجودة قرب قاعدة العنق للتعلم والتدريب. . وفي هذا المركز التدريبي تتعلم ويطبع فيها ما يقارب ثلاثين ألفاً من الشفرات، لماذا؟ لأن جسم الإنسان يحتوي على ما يقارب ثلاثين ألف نوع من أنواع الخلايا، وكل خلية لها شفرة معينة وخاصة بها لذا يجب

علي الخلية للمفاوية تعلم وحفظ جميع هذه الشفرات في هذا المركز التدريبي .

وماذا بعد هذا التدريب الدقيق؟

تقوم الخلايا بالتجول في أنحاء الجسم في شبكة تحيط بكل جزء من أجزاء الجسم ابتداء من الشعرة في الرأس حتى أخمص القدمين . . وهذا النظام الشبكي ليست شبكة الأوعية الدموية التي نعرفها والتي تنقل الدماء النقية المحملة بالأكسجين وإنما شبكة الدم الأبيض والذي نلاحظه عندما نجرح جرحاً خفيفاً فتخرج مادة بيضاء ، هي دماء هذا النظام . . وتجول الخلايا للمفاوية ضمن هذه الشبكة مراقبة كل خلايا الجسم عشر مرات يومياً على الأقل . . فتقوم هذه الخلايا بفحص جميع الأنسجة والخلايا ، فإذا عثرت على خلية لا توافق شفرتها الشفرات التي تعلمتها وحفظتها فإنها تقوم بقتلها في الحال . . وهذا هو السبب في مشكلة نقل الأعضاء إلى الجسم . . ولذا يلجأ الأطباء إلى نقل أعضاء من الأب أو الأم أو الإخوة أو الأشخاص القريبين في محاولة لتمرير هذه الأعضاء من رقابة الخلايا للمفاوية . . فإذا كانت شفرات هذه الأعضاء مناسبة للشفرات في الخلايا للمفاوية فإنها تكون في مأمن منها . .

وإذا حدث واستطاعت جرثومة أو جسم غريب الانفلات من الخلايا للمفاوية فإن هذا سيكون نتيجة انحراف آخر أو قصور آخر فأضعفت الخلايا للمفاوية . . ولا شك أن ذلك يكون قدراً إلهياً .

فالخلايا الدفاعية التي نسميها الخلايا للمفاوية قد خلقت بشكل مناسب لكي تستطيع حفظ الإنسان وصيانه ضد الأخطار في كرتنا الأرضية ، لذا فإن مستوى تدريب هذه الخلايا وتعليمها عال جداً ودقيق

لدرجة يصعب معها خداعها .

ولكن ماذا يحدث عندما تدور حرب خاصة بين الخلايا اللمفاوية والجراثيم الغازية؟

عندما تتقابل الخلايا اللمفاوية مع الجراثيم تقوم بالاقتراب منها، ثم تنفث سمومها فيها وتقتلها . ولكن ماذا لو كانت هذه الجراثيم شراسة مثل جرثومة السل؟

فجرثومة السل جرثومة ذات بأس وقوة، لأنها تستطيع أن تفرز من غشائها مادة تكون لها درعاً واقية، فلا تؤثر فيها السموم التي تفرزها الخلايا اللمفاوية، تماماً كما يرتد الرصاص عن الدروع دون أن يؤثر فيها، كما أن الخلايا اللمفاوية لا تستطيع ابتلاع هذه الجراثيم لأنها كبيرة . إذن فما العمل؟

في هذه الحالة ترسل الخلايا اللمفاوية إنذاراً إلى الكبد، فيقوم الكبد نفسه أو بأمر من نخاع العظم (هذه المسألة غير معلومة تماماً حتى الآن) بصنع خلايا خاصة تحمل أجساماً تدعى «أجسام كوجي» وهي تشبه الخلايا اللمفاوية ولكنها أكبر منها حجماً بست مرات، فتقوم بابتلاع جراثيم السل التي لم تستطع الخلايا اللمفاوية ابتلاعها . . تبتلعها ولكنها لا تستطيع هضمها، فتقوم بصنع قبر لها، إذا تبدأ بغرز طبقة من الكالسيوم حولها، حتي تبني ما يشبه الهرم حول الجرثومة التي تموت وتهضم خلاياها . لذلك فلننا عندما نتطلع إلى صورة بالأشعة لرئة إنسان نري نقطاً جبسية صغيرة ، ما هي إلا مقابر لجراثيم السل .

وهناك منظومة دفاعية أخرى هي منظومة التجمعات اللمفاوية، وأهمها التجمعات اللمفاوية الموجودة في اللوزتين، ثم التجمعات الموجودة في الزائدة الدودية التي تقوم بحراسة الإنسان من الجراثيم

الداخلة عن طريق المدخل السفلى في الإنسان، وهذا هو السبب في مواجهة الكثيرين لمتاعب في هذين الموضعين، لأنهما بوابتا المراكز الدفاعية.

وهناك صفارة إنذار في الجسم تدعو إلى التأمل والإعجاب، وهي ارتفاع درجة الحرارة عند المرض. فهذه ظاهرة كيميائية خارقة في الجسد، ذلك لأن الخلايا الدفاعية، لاسيما الخلايا البالعة للميكروبات «الكريات البيضاء» إن خلقت بنشاط اعتيادي فإنها قد تهاجم إحدى خلايا الجسم أو قد تضررها، لذا نرى أنها غير نشطة في الحرارة الاعتيادية للجسم، ولكنها تصبح نشطة وفعالة عند درجة (٣٨م، ٥)، وكذلك المواد المضادة (أنتى كور) التي تجول في الدم فإنها لو كانت فعالة في درجة ٣٧م لكان من المحتمل أن تصيب إحدى خلايا الجسم بضرر عن طريق الخطأ. . فارتفاع درجة حرارة المريض ما هو إلا صفارة إنذار أو رفع درجة الاستعداد لتبدأ وسائل الدفاع عملها فوراً. . ولذلك لابد من مراعاة ذلك عند تخفيض حرارة جسم المريض فلا تقوم بتخفيضها عشوائياً حتى لا يؤثر ذلك على النظم الدفاعية الداخلية.

ولا يكتفى النظام الدفاعي بهذا إذ نرى أن الجسم يقوم بسحب مياه الخلايا الاعتيادية لكي يمنع الضرر، وهذا هو السبب في زيادة الحاجة إلى التبول عند ارتفاع درجة حرارة الإنسان حيث يبدأ الجسم بالتخلص من الماء تدريجياً، والهدف من تقليل المياه الموجودة داخل الخلايا هو لكون الخلية المنكمشة - نتيجة فقدانها الماء - أقل تعرضاً للخطر في أثناء المعركة الناشبة مع الجراثيم مما لو كانت في حالة امتلاء، وهذا النظام الدفاعي يعمل آلياً دون أن يحس به أحد. والجراثيم الداخلة عن طريق الفم تجد أمامها آلافاً من خلايا اللوكوسيت الموجودة ضمن اللعاب دون أن يشعر بها الإنسان. وكثير من الحيوانات تقوم بعلاج جروحها وذلك

بلعقتها، أي أنها تقوم في الحقيقة بسكب خلايا اللوكوسيت على هذه الجروح دون أن تدري ماهية عملها.

وتعتبر الخلايا «الملائنية» عنصراً من العناصر الدفاعية في الجسم، إذ لا توجد أية أشعة اعتيادية لا تستطيع هذه الخلايا تلافى أضرارها.

ومن العناصر الدفاعية المهمة أيضاً طبقة الأدمة الموجودة تحت البشرة. وهذه الطبقة ما زالت طبقة غامضة لا يعرف عنها الكثير من الناحية البيولوجية. . . ومن المشاهدات والتجارب نرى أن الجسم عندما يضطر إلى دخول معارك شديدة مع جراثيم قوية فإنه يجبر ساحة المعركة إلى هذه المنطقة الغامضة، أي إلى طبقات الأدمة، وأفضل مثال على ذلك الأمراض النافضة مثل الحصبة، وقد أظهرت الأبحاث الحديثة أن هناك خلايا خاصة جداً في هذه المنطقة، مهمتها قتل الجراثيم التي لا تستطيع الخلايا الدفاعية الاعتيادية القضاء عليها. وكثيراً ما يحاول الجسم سحب معركة القتل مع الجراثيم من ساحات المدن (أي من داخل الأعضاء) إلى الساحات الخارجية.

فالمنظومة الدفاعية في جسم الإنسان ابتداء من نخاع العظم والكبد وحتى طبقة الأدمة الغامضة. . . أكثر دقة من كل الأنظمة الدفاعية الموجودة في الدول المتقدمة، فهذه الإدارة الدفاعية تعرف من أين تأتي الجراثيم، وكيف تأتي، وما العمل الواجب القيام به، وكيف تحفظ وتضان حياة المدنيين (الخلايا الاعتيادية) وما هي الخطوة الأولى في مواجهة الجراثيم، وما هي الخطوة الثانية، وأخيراً كيف يتم التخلص من جثث القتلى في المعارك، كل ذلك بنظام دقيق يثير الإعجاب.

وبالإضافة إلى ما سبق هناك ضمانات أخرى أودعها الخالق الحفيظ في جسم الإنسان في كل عضو من أعضائه فمثلاً خلايا القلب تعمل

بعشر طاقتها، ذلك لأنه قد أخذ في الاعتبار أن الإنسان قد يهرول أو يركض . وكذلك الكبد والكليتان، كلاهما يعمل بعشر طاقتهما، أي أن الإنسان يستطيع العيش بشكل طبيعي بعشر قابليات بنيته أي أن الواهب الحفيظ قد وهب للإنسان فرصة حياة بطاقة معينة وجعل له تسع وحدات من الطاقة كوحدات احتياطية»^(١).

فحقاً ﴿وفى أنفسكم أفلا تبصرون﴾ .

قال الشاعر :

يا حافظاً لوجود العالمين فما يحيد عن غايته نقصاً وخسراناً
وحافظ الخلق أن يلقوا بياً نفسهم إلى الهلاك زرافات ووحدانا
خلقت فيهم عيوناً يبصرون بها وقد خلقت بهم للسمع آذاناً
لو لم تكن أنت يا رباه حافظهم لم يشهد الوجود فوق الأرض إنساناً^(٢)

أما آثار حفظه ورعايته لأوليائه من المؤمنين فلا تحصيها الكلمات ولا تحيط بها السطور .

قال تعالى : ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣) .

﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾^(٤) .

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَإِنِّ

جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾^(٥) .

(١) خلوq نور باقى، الإنسان ومعجزة الحياة، ترجمة أورخان محمد على، من ص ١٠٣

إلى ص ١١٩ (بتصرف يسير) .

(٢) الشاعر أحمد مخيمر .

(٣) سورة الروم / ٤٧ . (٤) سورة غافر / ٥١ .

(٥) سورة الصافات / ١٧١ - ١٧٣ .

فحفظ الله (عز وجل) ونصره لأوليائه يكون في الحياة الدنيا وفي الآخرة. والمتأمل في سيرة نبينا محمد ﷺ يجد رعاية الله عز وجل وحفظه من أعداءه من الوصول إليه.

قال الله (عز وجل) ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿١﴾.

قال الإمام الطبري في معنى هذه الآية: فاصدع بأمر الله، ولا تخف شيئاً سوى الله، فإن الله كافيك من ناصبك وأذاك، كما كافاك المستهزئين (٢).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (٣).

والمتأمل في حادثة هجرة الرسول ﷺ يجد أن أعداء الإسلام قد أحكموا خطتهم في دار الندوة، وأجمعوا على قتل رسول الله ﷺ للقضاء على دعوته وأسندوا هذه المهمة إلى شباب ذوى قوة وجلد من كل قبيلة من قبائلهم. وفي الجانب المقابل أخذ الرسول ﷺ يعد عدته فما إن جاءه الوحي بأمر الهجرة حتى باشر في تنفيذه بدقة، وإحكام.

وعلى الرغم من كل الجهد والإعداد في تأمين الهجرة استطاعت قريش أن تصل إلى مكان الغار، وصارت قريش قاب قوسين أو أدنى من بغيتها، حتي قال أبو بكر (رضي الله عنه): «يا نبي الله لو أن بعضهم طأطأ بصره رأنا» (٤).

(١) سورة الحجر / ٩٤-٩٥.

(٢) تفسير الطبري، ج ١٤، ص ٩٩. (٣) سورة المائدة / ٦٧.

(٤) رواه البخاري (في هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة).

وهنا تدخلت العناية الإلهية، فرأت قريش على باب الغار نسج عنكبوت، فقالوا: لو دخلها هنا أحد لم يكن نسج العنكبوت على بابه، فرجعت قريش عن الغار^(١).

وبعد خروج الرسول ﷺ من الغار ومعه صاحبه وسارا تجاه المدينة، تلقت قريش خبراً عنهما.

قال سراقة بن مالك: «فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مُدَلَج، أقبل رجل منهم حتى قام علينا، ونحن جلوس، فقال: يا سراقة إنني رأيت أنفاً أسودة بالساحل، أراها محمداً وأصحابه. قال سراقة: فعرفت أنهم هم، فقلت له: إنهم ليسوا بهم ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً، انطلقوا بأعيننا، ثم لبثت في المجلس ساعة، ثم قمت فدخلت، فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي وهي من وراء أكمة فتحبسها عليّ وأخذت رمحي فخرجت به من ظهر البيت، فحططت بزجة الأرض، وخفضت عاليه حتى أتيت فرسي فركبتها، فرفعتها تقرب بي حتى دنوت منهم، فعثرت بي فرسي فخررت عنها؛ فقامت فأهويت يدي إلى كنانتي فاستخرجت منها الأزام، فاستقسمت بها أضرهم أم لا؟ فخرج الذي أكره، فركبت فرسي - وعصيت الأزام - تقرب بي حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ - وهو لا يلتفت - وأبو بكر يكثر الالتفات ساخت يدا فرسي في الأرض، حتى بلغت الركبتين فخررت عنها، ثم زجرتها فنهضت، فلم تكد تخرج يديها، فلما استوت قائمة إذ لأثر يديها غبار ساطع في السماء مثل الدخان فاستقسمت بالأزام، فخرج الذي أكره فناديتهم بالأمان، فوقفوا، فركبت فرسي حتى جثتهم، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من

(١) رواه الإمام أحمد، وحسن ابن كثير إسناده في البداية والنهاية ج ٣، ص ١٧٩.

الحبس عنهم، أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدية، وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم، وعرضت عليهم الزاد والمتاع، فلم يرزاني، ولم يسألاني، إلا أن قال: «أخف عنا» فسألته أن يكتب لي كتاب أمن، فأمر عامر بن فهيرة، فكتب لي في رقعة من أديم، ثم مضى رسول الله ﷺ» (١).

ويتضح مما سبق مدى عناية الله (عز وجل) وحفظه لنبيه.

قال تعالى: ﴿لَا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢).

ويروى شيبه بن عثمان بن طلحة عن نفسه فيقول: لما كان عام الفتح (فتح مكة) ودخل النبي ﷺ مكة عنوة قلت: أسير مع قريش إلى هوزان بحنين فعسى إن اختلطوا أن أصيب من محمد غره فأثار منه فأكون أنا الذي قمت بشار قريش كلها، وأقول: لو لم يبق من العرب والعجم أحد إلا اتبع محمداً ما اتبعته أبداً... فلما اختلط الناس اقتحم رسول الله ﷺ عن بغلته وأصلت السيف فدنوت أريد ما أريد منه ورفعت سيفي. فرفع لي شواظ من نار كالبرق حتى كاد يحشني فوضعت يدي على بصري خوفاً عليه، فالتفت إلى رسول الله ﷺ وناداني: يا شيب ادن مني فدنوت منه فمسح صدرى وقال: «اللهم أعذه من الشيطان».

فوالله لهو كان ساعتئذ أحب إلي من سمعي وبصري ونفسي

(١) رواه البخاري في الهجرة. (٢) سورة التوبة/ ٤٠.

وأذهب الله (عز وجل) ما كان بيني (١).

وكذلك كل مؤمن صادق يحفظه الله عز وجل ويرعاه وينصره سواء في حياته أم بعد مماته تحقيقاً لوعد الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ (٢).

فهذا أبو مسلم الخولاني يطرحه الأسود العنسي المتنبئ باليمن (٣) في النار، فتحفظه عناية الله ورعايته ولا تضره النار.

عن شرحبيل بن مسلم الخولاني قال: تنبأ الأسود بن قيس العنسي باليمن فأرسل إلى أبي مسلم فقال له: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم. قال فتشهد أني رسول الله؟ قال: ما أسمع. قال: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم. قال فتشهد أني رسول الله؟ قال: ما أسمع. وبعد الثالثة أمر بنار عظيمة فأججت وطرح فيها أبو مسلم فلم تضره. فقال له أهل مملكته. إن تركت هذا في بلادك أفسدها عليك فأمره بالرحيل فقدم المدينة، وقد قبض رسول الله (ﷺ) واستخلف أبو بكر. فقام إلى سارية من سورائ المسجد يصلي فبصر به عمر بن الخطاب، فقال: من أين الرجل؟ قال: من اليمن. قال: فما فعل عدو الله بصاحبنا الذي حرقه بالنار فلم تضره؟ قال: ذاك عبد الله بن ثوب (أبو مسلم الخولاني) قال: نشدتك بالله عز وجل أنت هو؟ قال: اللهم نعم. قال: فقبل ما بين عينيه، ثم جاء حتى أجلسه بينه وبين أبي بكر وقال: الحمد لله الذي لم يُميتني حتى أراني في أمة محمد (ﷺ) من فعل به كما فعل إبراهيم الخليل عليه السلام (٤).

(١) أبو الفرج بن الجوزي، مرجع سابق، ج ١، ص ٧٢٨.

(٢) سورة غافر/ ٥١. (٣) أي الذي ادعى النبوة باليمن.

(٤) ابن الجوزي، المرجع السابق، ج ٤، ص ٢٠٨.

ويدرك العبد المؤمن أن الله عز وجل رقيب شهيد ومن ثم لا يأتي بحركة، ولا يلفظ بكلمة إلا ويعلم أن الله عز وجل مطلع عليه في كل أحواله.

قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (١).

وعندما سأل جبريل (عليه السلام) رسول الله (ﷺ) عن الإحسان، قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك (٢).

فالعبد المؤمن متيقن باطلاع الحق (سبحانه وتعالى) على ظاهره وباطنه، فهو ناظر إليه، سامع لقوله، مطلع على عمله في كل وقت وكل لحظة وكل نفس وكل طرفة عين.

وهناك علامات يعرف بها المؤمن الذي يراقب ربه، ومن أبرزها إثارة ما أنزل الله، وتعظيم ما عظم الله، وتصغير ما صغر الله، وإخلاص السر والعلن لله، ولا تتأتى كل هذه الأمور إلا إذا امتلأ القلب من عظمة الله (عز وجل).

فمراقبة الله (عز وجل) توجب صيانة الظاهر والباطن، وصيانة الظاهر تكون بحفظ الحركات الظاهرة، وصيانة الباطن تكون بحفظ الخواطر والإرادات والحركات الباطنة التي منها رفض معارضة أمره وخبره. فيتجرد الباطن من كل شهوة وإرادة تعارض أمره، ومن كل إرادة تعارض إرادته، ومن كل شبهة تعارض خبره، ومن كل محبة

(١) سورة يونس/ ٦١.

(٢) رواه مسلم (حديث رقم ٨) كما أخرجه أبو داود والنسائي والترمذي (٢٦١٣).

تزاحم محبته . وهذه حقيقة القلب السليم الذي لا ينجو إلا من أتى الله به (١) . ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (٢) .

وقد أنزل كثير من الناس ممن يدعون الإسلام في هذا المنزل الخطير وهو معارضة أوامر الله عز وجل وشرعه بما سؤل لهم الشيطان من أمره . وقد عدد ابن القيم بعضاً من هؤلاء الجائرين فيقول : منهم من يقول :

إذا تعارض العقل والنقل : قدّمنا العقل ، وآخرون يقولون : إذا تعارض الأثر والقياس ، قدّمنا القياس ، وفريق ثالث يقول : إذا تعارض الذوق والوجد والكشف وظاهر الشرع ، قدّمنا الذوق والوجد والكشف . وفريق رابع يقول : إذا تعارضت السياسة والشرع . قدّمنا السياسة .

فجعلت كل طائفة قبالة دين الله وشرعه طاغوتاً يتحاكمون إليه . فهؤلاء يقولون : لكم النقل ، ولنا العقل . والآخرون يقولون : أنتم أصحاب آثار وأخبار ، ونحن أصحاب أقيسة وآراء وأفكار ، وأولئك يقولون : أنتم أرباب الظاهر ، ونحن أهل الحقائق . والآخرون يقولون : لكم الشرع ، ولنا السياسة . فيالها من بلية ، عمت فأعمت ، ورزية رمت فأصمت ، وفتنة دعت القلوب فأجابها كل قلب مفتون ، وعطلت لها معالم الأحكام ، وصار لأجلها الوحي عرضة لكل تحريف وتأويل ، والدين وقفاً على كل إفساد وتبديل (٣) .

(١) ابن القيم الجوزية ، مدارج السالكين ، ج ٢ ، ص ٦٨ .

(٢) سورة الشعراء / ٨٨-٨٩ .

(٤) ابن القيم الجوزية ، المرجع السابق ، ص ٧٠-٧١ .

فأين مراقبة كل هؤلاء لربهم الذين يدعون أنهم له مسلمون وبه مؤمنون؟!

فمراقبة الله (عز وجل) ورعاية حدوده لبّ الإيمان، وروحه وكماله. فكأن العبد بهذه المراقبة يرى ربه مطلعاً على عبادته ناظراً إليهم، يسمع كلامهم، ويرى ظواهرهم وبواطنهم.

روى عن علي بن الحسين قال: كتب ملك الروم إلى عبد الملك بن مروان يتهدده ويتوعده ويحلف له ليحملن إليه الجزية، فسقط في ذرعه فكتب إلى الحجاج أن اكتب إلى ابن الحنفية ^(١) فتهدده وتواعده ثم أعلمني ما يرد عليك منه. فكتب الحجاج إلى ابن الحنفية بكتاب شديد يتهدده وتواعده بالقتل.

قال فكتب إليه ابن الحنفية: إن الله عز وجل ينظر ثلثمائة وستين نظرة إلى خلقه وأنا أرجو أن ينظر الله (عز وجل) إلى نظرة يمنعني بها منك.

قال: فبعث الحجاج بكتابه إلى عبد الملك بن مروان فكتب عبد الملك إلى ملك الروم نسخته، فقال ملك الروم: ما خرج هذا منك، ولا أنت كتبت به، ولا خرج إلا من بيت نبوة ^(٢).

وفهم هذه الأسماء ومراعاتها يجعل العبد يتأدب مع ربه في كل لحظة وفي كل حركة لأنه يسمعه ويبصره ويراقبه ويشاهده.

والأدب مع الله ثلاثة أنواع ^(٣).

(١) محمد بن علي أبي طالب، وكانت أمة من بنى حنيفة.

(٢) أبو الفرج بن الجوزي، مرجع سابق، ج ٢، ص ٧٨.

(٣) ابن قيم الجوزية، مرجع سابق، ص ٢٧٦.

أحدهما: صيانة معاملته : أن يشوبها بنقيصة .

الثاني: صيانة قلبه : أن يلتفت إلى غيره .

الثالث: صيانة إرادته : أن تتعلق بما يملكك عليه .

ومن تأمل أحوال الرسل (صلوات الله وسلامه عليهم) مع الله وخطابهم وسؤالهم يجدها كلها مشحونة بالأدب قائمة به ونمضى مع ابن القيم ليصور لنا قبسا من هذا الأدب .

فهذا عيسى (عليه السلام) يبرأ نفسه من كفر النصارى قائلاً: ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ ولم يقل لم أقله ، وفرق بين الجوابين في حقيقة الأدب . ثم أحال الأمر على علمه سبحانه بالحال وسره ، فقال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾ ثم برأ نفسه عن علمه بغيب . وما يختص به (سبحانه) ، فقال ﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ ثم أثنى على ربه ووصفه بتفرد به بعلم الغيوب كلها فقال: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ ثم نفى أن يكون قال لهم غير ما أمره ربه به - وهو محض التوحيد - فقال ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ: أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾^(١) ثم أخبر عن شهادته عليهم مدة مقامه فيهم وأنه بعد وفاته لا اطلاع له عليهم ، وأن الله (عز وجل) هو المنفرد بعد وفاته بالاطلاع عليهم . فقال ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ . فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبُ عَلَيْهِمْ﴾^(٢) .

ثم وصفه بأن شهادته (سبحانه) فوق كل شهادة وأعم . فقال ﴿وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ثم قال ﴿إِنْ تَعَذَّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ وهذا من أبلغ الأدب مع الله في مثل هذا المقام . أي شأن السيد رحمة عبده

(١) سورة المائدة آية ١١٧ .

(٢) سورة المائدة آية ١١٧ .

والإحسان إليهم . وهؤلاء عبيدك ليسوا عبيداً لغيرك . فإذا عذبتهم - مع كونهم عبيدك - فلو لا أنهم عبيد سوء من أنجس العبيد ، وأعتاهم على سيدهم ، وأعصاهم له : لم تعذبهم . لأن قرينة العبودية تستدعي إحسان السيد إلى عبده ورحمته . فلماذا يعذب أرحم الراحمين ، وأجود الأجودين ، وأعظم المحسنين إحساناً لعبيده؟ لو لا فرط عتوهم ، وإباؤهم عن طاعته ، وكمال استحقاقهم للعذاب .

وقوله ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَامُ الْغُيُوبِ﴾ أي هم عبادك . وأنت أعلم بسرهم وعلايتهم فإذا عذبتهم : عذبتهم على علم منك بما تعذبهم عليه . فهم عبادك وأنت أعلم بما جنوه واكتسبوه فليس في هذا استعطاف لهم ، كما يظنه الجهال . ولا تفويض إلى محض المشيئة والملك المجرد عن الحكمة ، كما تظنه القدرية ، وإنما هو إقرار واعتراف وثناء عليه (سبحانه) بحكمته وعدله ، وكمال علمه بحالهم ، واستحقاقهم للعذاب . ثم قال : ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ولم يقل «الغفور الرحيم» وهذا من أبلغ الأدب مع الله تعالى . فإنه قاله في وقت غضب الرب عليهم ، والأمر بهم إلى النار . فليس هو مقام استعطاف ولا شفاعة . بل مقام براءة منهم . فلو قال «إِنَّكَ أَنْتَ الْغُفُورُ الرَّحِيمُ» لأشعر باستعطافه ربه على أعدائه الذين قد اشتد غضبه عليهم . فالمقام مقام موافقة للرب في غضبه على من غضب الرب عليهم فعدل عن ذكر الصفتين اللتين يسأل بهما عطفه ورحمته ومغفرته إلى ذكر العزة والحكمة ، المتضمنتين لكمال القدرة وكمال العلم . والمعنى : إن غفرت لهم فمغفرتك تكون عن كمال القدرة والعلم ، ليست عن عجز عن الانتقام منهم ، ولا عن خفاء عليك بمقدار جرائمهم . وهذا لأن العبد قد يغفر لغيره لعجزه عن الانتقام منه . ولجهله بمقدار إساءته إليه . والكمال هو مغفرة القادر العالم وهو العزيز الحكيم .

وهذا إبراهيم (عليه السلام)، يقول: ﴿الذى خلقنى فهو يهدين. والذى هو يطعمنى ويسقئ. وإذا مرضت فهو يشفين﴾ (١) ولم يقل «وإذا أمرضنى» حفظاً للأدب مع الله.

وكذلك قول العبد الصالح في السفينة: ﴿فأردت أن أعيها﴾ ولم يقل «فأراد ربك» وقال في الغلامين ﴿فأراد ربك أن يبلغا أشدهما﴾.

وكذلك قول مؤمنى الجن ﴿وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض﴾ (٢) ولم يقولوا «أرادهم» ثم قالوا ﴿أم أراد بهم ربهم رشداً﴾ (٣).

وألطف منه قول آدم (عليه السلام) ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ (٤) ولم يقل لله رب قدرت على وقضيت على.

وقول أيوب (عليه السلام) ﴿مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين﴾ (٥) ولم يقل فعافنى واشفىنى.

وكذلك كان محمد (ﷺ) في رحلة المعراج قال تعالى ﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾ فهذا وصف لأدبه (ﷺ) في ذلك المقام إذ لم يلتفت جانباً ولا تجاوز ما رآه. وهذا كمال الأدب. والإخلاص به. أن يلتفت الناظر عن يمينه وعن شماله، أو يتطلع أمام المنظور فالالتفات زيغ. والتطلع إلى ما أمام المنظور: طغيان ومجاوزة. فكمال إقبال الناظر على المنظور: أن لا يصرف بصره يمناً ولا يسرة ولا يتجاوز.

وقال تعالى: ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾ أي ما كذب الفؤاد ما رآه ببصره فهنا تواطؤ بصره وبصيرته، أي ما كذب قلبه ما رأت عيناه. بل

(١) سورة الشعراء/ ٧٨، ٧٩، ٨٠.

(٢) سورة الجن/ آية ١٠.

(٣) سورة الجن/ ١٠.

(٤) سورة الأعراف/ آية ٢٣.

(٥) سورة الأنبياء/ آية ٨٣.

واطأه وواقفه فلموطاة قلبه لقلبه، وظاهره لباطنه، وبصره لبصيرته: لم يكذب الفؤاد البصر. ولم يتجاوز البصر حده فيطغى ولم يمل من المرئى فيزيغ، بل اعتدل البصر نحو المرئى ما جاوزه ولا مال عنه، كما اعتدل القلب في الإقبال على الله، والإعراض عما سواه فإنه أقبل على الله بكليته. وللقلب زيغ وطغيان، كما للبصر زيغ وطغيان. وكلاهما متغيب عن قلبه وبصره. فلم يزيغ قلبه التفاتاً عن الله إلى غيره، ولم يطغ بمجاوزته مقامه الذي أقيم فيه. وهذا غاية الكمال والأدب مع الله. الذي لا يلحقه فيه سواه، لأن عادة النفوس إذا أقيمت في مقام عال رفيع أن تتطلع إلى ما هو أعلى منه وفوقه أما نبينا محمد (ﷺ) لما أقيم في ذلك المقام، وفاء حقه: فلم يلتفت بصره ولا قلبه إلى غير ما أقيم فيه. . فلم يزل في خفارة كمال أدبه مع الله عز وجل حتى خرق حجب السموات، وجاوز السبع الطباق. وجاوز سدرة المنتهى ووصل إلى محل من القرب سبق به الأولين والآخرين. . . وأقيم مقاماً غيظه به الأنبياء والمرسلون (١).

فالعبد المؤمن ينبغي أن يتأدب مع ربه باطناً وظاهراً قلباً وقالباً. فإذا كان العبد يصل بطاعة الله عز وجل إلى الجنة، فإنه يصل بأدبه في هذه الطاعة إلى الله عز وجل ولذلك قال ابن المبارك (رحمه الله): نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم.

ومن آداب الباطن التي ينبغي أن يتحلّى بها العبد طهارة الداخل، ومراعاة الأسرار وحسن الظن، وعدم الالتفات، وتطهير القلب من الشهوات والشبهات.

ومن آداب الظاهر: حفظ الحدود، وتأديب الجوارح، وترك الشهوات، ورياضة النفوس.

(١) ابن القيم الجوزية، مرجع سابق، ص ٢٧٨: ٣٨٤ بتصرف.

وخلاصة الأدب مع الله (عز وجل) حسن الصحبة معه، بإيقاع الحركات الظاهرة والباطنة على مقتضى التعظيم والإجلال والحياء، كحال مجالسة الملوك ومصاحبتهم.

فالأدب هو الدين كله فستر العورة من الأدب، والوضوء وغسل الجنابة من الأدب. والتطهر من الحدث من الأدب حتى يقف العبد بين يدي الله (عز وجل) طاهراً.

والتجمل في الصلاة من الأدب قال تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾^(١) والخشوع في الصلاة من الأدب. وعدم رفع البصر في الصلاة من الأدب، إذ من الأدب مع الملوك: أن الواقف بين أيديهم يطرق إلى الأرض، ولا يرفع بصره إليهم فما الظن بملك الملوك (سبحانه)؟ ووضع اليد اليمنى على اليسرى حال القيام في الصلاة من الأدب لأنه من أدب الوقوف بين الملوك والعظماء فعظيم العظماء أحق به.

وحسن استماع القرآن من الأدب ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(٢) والاستواء في الركوع من الأدب. والإطمئنان في القيام والركوع والسجود من الأدب. وهذا ديدن الصالحين من أمة محمد (ﷺ) فقد سئل حاتم الأصم عن كيفية صلاته. فقال: أقوم بالأمر وأمشي بالسكينة، وأدخل بالنية، وأكبر بالعظمة، وأقرأ بالترتيل والتفكير، وأركع بالخشوع، وأسجد بالتواضع وأسلم بالسنة، وأسلمها بالإخلاص إلى الله (عز وجل)، وأخاف أن لا تقبل مني ومن أقواله الماثورة في حسن الأدب: تعهد نفسك في ثلاثة مواضع: إذا عملت فاذا ذكر نظر الله إليك، وإذا تكلمت فاذا ذكر سمع الله إليك، وإذا سكت فاذا علم الله فيك.^(٣)

(١) سورة الأعراف، آية: ٣١. (٢) سورة الأعراف، آية: ٢٠٤.

(٣) أبو الفرج ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج٤، ص ١٦٢.

ومراقبة الله (عزّ وجلّ) في الكلام من أشقّ الأمور التي يعانيتها من يقبل على الله (عز وجل). لذلك قال أحد الصالحين: عاجلت الصمت عما لا يعنيتني عشرين سنة قبل أن أقدر منه على ما أريد. وكان هذا الرجل: لا يدع أحداً يغتاب أحداً في مجلسه. ويقول لجلسائه: إن ذكرتكم الله أعناكم، وإن ذكرتكم الناس تركناكم^(١).

فأشد الورع على الإنسان في اللسان.

عن سهل بن عبد الله التستري قال: من أخلاق الصديقين أن لا يحلفوا بالله، وأن لا يغتابوا، ولا يغتاب عندهم، وأن لا يشبعوا، وإذا وعدوا لم يخلفوا، ولا يمزحون أصلاً^(٢).

وحتى ينال العبد رعاية الله (عزّ وجلّ) وحفظه، فينبغي عليه أن يحفظ الله أولاً.

عن ابن عباس (رضي الله عنه) قال: كنت خلف النبي (ﷺ) يوماً فقال: «يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم: أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام، وجفت الصحف»^(٣).

وحفظُ الله (عزّ وجلّ) يكون بطاعته أي فعل ما أمر، والبعد عما نهى، وحفظ حدوده ورعاية عهوده، وامتنثال أوامره، واجتناب نواهيه. وهناك أدعية مأثورة عن رسول الله (ﷺ) لحفظ الإنسان في يومه وليلته منها:

(١) المرجع السابق، ص ٢١٦.

(٢) محمد بن أحمد الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١٣، ٣٣٢.

(٣) رواه الترمذی، وقال حديث حسن صحيح (رقم / ٢٥١٨).

١ - عن عبد الله خبيب (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله (ﷺ) :
« أقرأ قل هو الله أحد ، والمعوذتين حين تمسى وحين تصبح ، ثلاث مرات
تكفيك من كل شيء » (١) .

٢ - وعن عثمان بن عفان (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله (ﷺ)
« ما من عبد يقول في صباح كل يوم ومساء كل ليلة : بسم الله الذي لا
يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم ، ثلاث
مرات ، إلا لم يضره شيء » (٢) .

٣ - وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال : جاء إلى النبي (ﷺ)
فقال : يا رسول الله ما لقيت من عقرب لدغتنى البارحة قال : « أما لو
قلت حين أمسيت : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم
تضرك » (٣) .

« اللهم احفظني بالإسلام قائماً ، واحفظني بالإسلام قاعداً ، واحفظني
بالإسلام راقداً ، ولا تشمت بي عدواً ولا حاسداً ، اللهم إني أسألك من
كل خير خزانته بيدك ، وأعوذ بك من كل شر خزانته بيدك » (٤) .

* * *

(١) رواه الترمذی ، وقال حديث حسن صحيح .

(٢) رواه أبو داود والترمذی ، وقال : حديث حسن صحيح .

(٣) رواه مسلم (٢٧٠٩) .

(٤) رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني برقم

(١٥٤٠) .

المهيمن المحيط

٧٢ ٧٣

المهيمنُ (سبحانه) الرقيبُ الحافظُ لكلِّ شيءٍ الخاضعُ لسلطانه كلِّ شيءٍ والمهيمنُ : القائمُ على خلقه ، الشهيد عليهم (١) .

والحقُّ (سبحانه) مهيمُنٌ على مخلوقاته أئى مطلع وشاهد على كلِّ شيءٍ لا يعزبُ عنه مثقالُ ذرةٍ في السمواتِ ولا في الأرضِ ، ولا أصغرُ من ذلكِ ولا أكبرُ فهو مطلعٌ على خفايا الأمورِ ، وخبايا الصدورِ ، أحاط بكلِّ شيءٍ علماً .

قال تعالى : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ (٣) .

فهو سبحانه مهيمِن على مخلوقاته ، فلا يختل شيء منها ، ولا يخرج عما رسمه لها ، يحفظها ويرعاها بقدرته .

ملكٌ على عرش السماء مهيمِن لعزته تغزو الوجوه وتسجد
وقال آخر :

جلّ المهيمن إن أعطى وإن منعا	في قبضة الحق هذا الكون أجمعه
بأن ذكر اسمه أمن لمن فزعا	قد سبّحت باسمه الأشياء عارفة
من يشاء ينفذ من أقطاره رجعا	وملكه واسع تطويه قدرته
وجلّ إن لم يهب شيئاً وإن وهبا	جلّ المهيمن رباً لا شريك له

(١) الزجاجي ، مرجع سابق ، ص ٢٢٧ .

(٣) سورة آل عمران / ٥ .

(٢) سورة الرعد / ٣٣ .

ما شاء كان وما في الكون خافية تخفى على علمه بدءاً ومنقلباً
إنا إليه أنبنا خاشعين له وجاعلين له من ذكره سبباً
فلا شيء في ملكه أو عن إرادته بمستطيع خروجاً أينما ذهباً

فالمهيمن اسم لمن كان موصوفاً بمجموع صفات ثلاث: أحدها العلم بأحوال الشيء، والثاني: القدرة التامة على تحصيل مصالح ذلك الشيء، والثالث: المواظبة على تحصيل تلك المصالح، فالجامع لهذه الصفات اسمه المهيمن، ولا تجتمع تلك الصفات إلا لله سبحانه وتعالى.

قال الشاعر:

يا من يرى مدّ البعوض جناحه في ظلمة الليل البهيم الآليل
ويرى مناط عروقها في لحمها والمخ في تلك العظام النحل
آجالها محتومة أرزاقها مقسومة بقضا وإن لم تسأل

ولم يذكر هذا الاسم الجليل في القرآن الكريم إلا مرة واحدة، قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١).

وقد ورد مرة ثانية صفة للقرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ (٢).

(١) سورة الحشر / ٢٣.

(٢) سورة المائدة / ٤٨.

وقد فُسر المهيمن هنا بالشاهد أى شاهداً عليه، كذلك روى عن ابن عباس (رضي الله عنهما) وروى عنه من وجه آخر أنه قال: المهيمن الأمين فكأنه قال: مصدقاً لما بين يديه من الكتاب وأميناً عليه، والتفسيران متقاربان (١).

أما المحيط، فمن الإحاطة، الإحاطة تقال على وجهين: أحدهما في الأجسام نحو أحطت بمكان كذا، أو تستعمل في الحفظ نحو ﴿إن الله بكل شيء محيط﴾ أى حافظ له من جميع جهاته. والثاني في العلم نحو قوله ﴿أحاط بكل شيء علماً﴾ وقوله ﴿إن ربى بما تعملون محيط﴾ والإحاطة بالشئ علماً هى أن تعلم وجوده وجنسه وكيفيته وغرضه المقصود به وبإيجاده وما يكون به ومنه، وذلك ليس إلا الله تعالى (٢).

والله (عز وجل) محيطٌ بكل شيء أى أنه أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً، قادر على كل شيء، لا يغلبه شئ، فهو غالب لا يغلب، قاهر لا يقهر. قال تعالى ﴿إن ربك أحاط بالناس﴾ أى أنهم في قبضته من قولهم: أحاط به الأمر أى أخذه من جميع جوانبه، فلم يكن له منه مخلص. ﴿والله من ورائهم محيط﴾ أى لا يعجزه أحد لأن قدرته مشتملة عليهم.

فا (عز وجل) محيطٌ أى أحاطت قدرته بجميع خلقه، فهو محيط بقدرته، وهم تحت إرادته ومشيتته. فالإحاطة أقصى صور العلم بالشئ والقدرة عليه.

وقد ورد اسم المحيط في القرآن الكريم ثمانى مرات.

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (٣).

(١) انظر الزجاجي، مرجع سابق، ص ٢٢٨.

(٢) الراغب الأصفهاني، مرجع سابق، ص ١٣٧.

(٣) سورة البقرة/ ١٩.

: ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (١).

: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ (٢).

فالله عز وجل مُحِيطٌ بالكافرين أى مهلكهم، فهم لا يعجزونه، ولا يفوتونه، فهو مُحِيطٌ بهم وإذا كانوا كذلك فإنه توعدهم بالعذاب والعقوبة على كفرهم فهو لا محال مهلكهم إما عاجلاً وإما آجلاً. وهو سبحانه وتعالى أحاط بكل شىء علماً، أى علم كل شىء على حقيقته بجميع صفاته فلم يخرج شىء منها عن علمه. فحقيقة الإحاطة ضم أقطار الشىء ونواحيه وتصويره وسطاً كإحاطة البيت بما فيه (٣).

والكون من حولنا يذخر بآثار المهيمن المحيط (سبحانه وتعالى)، فهو مخلوق بدقة ونظام متناه، ويسير وفق سنن محكمة من المهيمن سبحانه وتعالى:

- فمن عالم الذرة المتناهية في الصغر إلى عالم المجرة المتناهية في الكبر نجد سنناً تحكم العالمين، سنناً شاملة ثابتة لا تتغير ولا تتبدل، فالكل في هذا الكون يخضع لسنن مطردة من المهيمن (سبحانه وتعالى)، وثبات هذه السنن وإطرادها أثر من آثار المهيمن (سبحانه وتعالى).

وهذا الكون من حولنا يتمدد باستمرار، وحجمه يزداد على الدوام، قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (٤).

يقول «السير جيمس» في كتابه (النجوم في مسالكها): «ولقد

(١) سورة هود/ ٩٢. (٢) سورة النساء/ ١٢٦.

(٣) الزجاجي، مرجع سابق، ص ٤٧.

(٤) سورة الذاريات / ٤٧.

اكتشف حديثاً أن الكون شبيه بهذه أئى فقاعة الصابون، فهو غير ثابت الاتزان، دائم الحركة . . يتمدد باستمرار وحجمه يزداد على الدوام، وهذا الذى يتمدد لا يزداد حجمه باستمرار فحسب بل تزداد سرعة تمدده على الدوام . . « فمن الذى يمسك هذا الكون الذى يتمدد باستمرار؟ ومن الذى يمسك هذه الأجرام ولا يتركها يقع بعضها على بضع ١؟ إنه المهيمن المحيط (سبحانه) .

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلَّكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) .

والكون من حولنا بحر تسبح فيه ملايين النجوم والكواكب والمذنبات وغيرها، وهى تسبح بسرعة هائلة، فلماذا لم يصطدم نجم بنجم أو نجم بكويكب أو كوكب بمذنب؟!

وعلى سبيل المثال: مذنب (هالى) يزور الأرض كل (٧٦) عاماً في توقيت دقيق لا يتقدم ولا يتأخر، وطول ذنبه حوالى (٥٠ مليون ميل) وهو ينطلق في شريط يمثل التوسط بين الشمس والأرض، وقد ظهر سنة ١٩١٠م وظهر سنة ١٩٨٦م في نفس الشهر واليوم والساعة وهذا الزائر المرعب لو اقترب قليلاً من الأرض للفها بذنبه وسار بها في الفضاء حيث يشاء الله، ولو وقع عليها لأحدث بها كارثة لا يعلمها إلا الله . . . وفى الفضاء حوالى مائة ألف مليون مذنب تجوب الفضاء من أوله إلى آخره كدوريات الشرطة التى تمر في البلاد للاطمئنان على استتباب الأمن وحفظ النظام! فمن الذى يهيمن على هذا كله ويحيط به؟!

وإذا انتقلنا إلى عالم الإنسان نجد أن هذا الإنسان له نقطة بداية تتمثل في التقاء نطقة الذكر ببويضة الأنثى، ومن خلال عرس اللقاء هذا تتشكل خلية واحدة هي العروس الملقحة التي لا تلبث أن تبدأ بالانقسام والتكاثر إلى خليتين ثم إلى أربع ثم إلى ثمان ثم ست عشرة . . . وفي مرحلة لاحقة يبدأ تخصيص كل مجموعة من الخلايا المتكاثرة لتشكيل عضواً من أعضاء المخلوق الجديد إلى أن يكتمل نموه، ويبلغ غاية خلقه، فيخرج إلى الحياة كاملاً سوياً ويسرى هذا على أجنة سائر المخلوقات الحية! فمن الذى يشرف على هذا الانقسام والتكاثر والتخلق؟! ومن الذى يمد الجنين بالغذاء ويرعاه؟!

وبعد أن يخرج هذا المخلوق إلى الدنيا يجد العناية والرعاية في تدبير معاشه وغذائه، لقد خلق الله المهيمن (سبحانه) النبات الذى يقوم بوظيفة الإرجاع والتركيب، إذ يأخذ التراب والهواء والماء فيركب منها الثمار ليقدّمها يانعة سائغة للإنسان والحيوان إلى جانب ما يقوم به النبات من عمل بالغ الأهمية في تنقية جو الأرض من غاز ثانى أكسيد الكربون الذى ينتج عن تنفس الإنسان والحيوان فيتزج منه الأكسجين ويعيده إلى جو الأرض خلال عملية التمثيل الضوئى لكن يقوم الإنسان والحيوان باستخدام هذا الأكسجين من جديد.

والعبد المؤمن يراقب المهيمن المحيط سبحانه وتعالى، ويستحى من إطلاعه عليه ورؤيته له وهو مقيم على المعاصى والذنوب، فهو سبحانه شاهد مطلع على أفعال مخلوقاته، يشهد الخواطر، ويعلم السرائر، ويبصر الظواهر، ويسمع الشكر والشكوى، ويدفع الضرر والبلوى.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ (١).
وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبَلَمَّرْصَادٌ﴾ (٢).

فهو سبحانه مهيمن مطلع على عباده . جاء في الأثر: «اجعل مراقبتك لمن لا تغيب عن نظره، واجعل شكرك لمن لا تنقطع عنك نعمه، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه . وقال أحد الصالحين: كنا في غزوة في ليلة شديدة مخوفة فإذا رجل نائم فأيقظناه فقلنا: تنام في مثل هذا المكان؟! فرفع رأسه فقال: إني لاستحيي من ذي العرش أن يعلم أنني أخاف شيئاً دونه!

ومراقبة المهيمن المحيط عز وجلّ واللجوء إليه لا تأتي إلا بالخير والنصر: ففي كتاب «آيات الرحمن في جهاد الأفغان» قال مؤلفه: حدثني أحد القادة واسمه (أرسلان) قال: هاجمتنا الدبابات وكان عددها حوالي (١٢٠) دبابة معهم هاون وسيارات كثيرة، ونفذت ذخيرتنا حتى تأكدنا من الأسر، فلجأنا إلى الله بالدعاء . . . وبعد قليل إذا بالقذائف الرشاشات تفتح على الشيوعيين من كل مكان، وهزم الشيوعيون، ولم يكن في المنطقة أحد غيرنا ثم قال: إنها الملائكة!

وقال وحدثني «بوردل» قال: قامت معركة بينا وبين الشيوعيين استمرت سبعة أيام نفذت ذخيرتها في اليوم السابع، وفي تلك الليلة دارت معركة على الشيوعيين من ثلاث جهات، دون أن ندري مصدر النيران فتعجب الكفار من نوع الذخيرة (الرصاص) الذي يطلق عليهم لأنهم لم يروا مثله من قبل . . . وقتل (٥٠٠) من الكفار منهم (٢٣) ضابطاً، وهرب الباقون ومعهم بعض الأسرى من المسلمين فسألوهم

(١) سورة آل عمران/ ٦ .

(٢) سورة الفجر/ ١٤ .

من أين لكم هذا الرصاص، إنا (الروس) لم نَر مثله !!؟ فسبحان المهيمن على كل الوجود، الذي تنفذ قدرته في كل موجودا

وقد أحكم المهيمن سبحانه خلق هذا الكون، وجعل لظواهره المادية والمعنوية سنناً مطردة تحكمه، ومعرفة هذه السنن تمكننا من السيطرة على هذه الظواهر، ومن ثم الاستفادة منها في حياتنا انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١).

وقد تضمن القرآن الكريم والسنة النبوية كثيراً من السنن التي تحكم الحياة والأحياء، وحث القرآن الكريم كثيراً على المسير في الأرض وذلك للاستدلال والتأكد من فاعلية السنن التي قدرها، واكتشاف سنن أخرى بالاستقراء والملاحظة.

قال تعالى: ﴿قُلْ انظُرُوا مَادَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا﴾ (٣).

والمسلمون -اليوم- في أمس الحاجة إلى فهم سنن الله التي تحكم الحياة والأحياء، لينهضوا من جديد.

ومن أمثلة هذه السنن التي ينبغي الالتفات إليها والعمل بها:

أ- سنة النصر: فقد جعل الله عز وجل سنةً للنصر لا تتخلف إلى يوم القيامة قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (٤). فعندما نصر الله عز وجل ينصرنا.

(١) سورة الجاثية/ ١٣. (٢) سورة يونس / ١٠١.

(٣) سورة آل عمران / ١٣٧. (٤) سورة محمد / ٧.

ب - سنة البركة وسعة الرزق ، قال تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ (١) .

ج - سنة التغيير ، قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (٢) .

د - سنة الإعراض عن ذكر الله عز وجل ، قال تعالى : ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (١٢٤) قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (٣) .

وكما أن هناك سنناً تحكم المعنويات في الحياة ، فهناك أيضاً سنن تحكم الماديات كالذرة والحرارة والكهرباء ، وعلى المؤمن البحث عنها ، ومعرفتها واستغلالها في ترقية حياته وتحقيق خلافته في الأرض .

ففي ضوء اسم الله (عز وجل) المهيمن ينبغي على المؤمن أن يسارع إلى اكتشاف هذه السنن ، وفهمها ، والتعامل مع الظواهر الكونية على أساسها ، لأن هذه السنن أثر من آثار اسم الله المهيمن الذي نؤمن به .

« اللهم بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلق ، أحيني ما علمت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا علمت الوفاة خيراً لي ، اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة ، وأسألك كلمة الحق في الرضا والغضب ، وأسألك القصد في الغنى ، والفقر ، وأسألك نعيماً لا ينفد ، وأسألك قرة عين لا تنقطع ، وأسألك الرضا بعد القضاء ، وأسألك برد

(١) سورة الأعراف/ ٩٦ .

(٢) سورة الرعد/ ١١ .

(٣) سورة طه/ ١٢٤ ، ١٢٦ .

العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك،
في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة، اللهم زينا بالإيمان، واجعلنا
هداة مهتدين» (١).

* * *

(١) رواه النسائي ٥٤/٣/٥٥ وأحمد ٤/٣٦٤ اسناده جيد، وانظر صحيح النسائي
١/٢٨٠، ٢٨١.

الربُّ - الرفيقُ - اللطيفُ

٧٤ ٧٥ ٧٦

الربُّ: المصلح للشئ، يقال: «ريت الشئ أربّه ربّاً وربابه»: إذا أصلحته، وقمت عليه، ورب الشئ مالكه، فالله (عز وجل) مالك العباد ومصلحهم، ومصلح شؤونهم، ومصدر الربّ الربوبية، وكلّ من ملك شيئاً فهو ربه، يقال: هذا ربّ الدار، وهذا ربّ الضيعة، ولا يقال الربّ معرفاً بالآلف واللام مطلقاً إلا الله عز وجل؛ لأنه مالك كل شئ^(١).

وقال الراغب الأصفهاني: «الربّ في الأصل التربيّه، وهو إنشاء الشئ حالاً فحالاً إلى حدّ التمام... فالرب مصدر مستعار للفاعل ولا يقال الربّ مطلقاً إلا الله تعالى المتكفل بمصلحة الموجودات... والمتولى لمصالح العباد...»^(٢).

فالله عزّ وجلّ هو رب العالمين لأنه هو مالكهم وسيدهم ومصلح شؤونهم، والمتكفل بمصالحهم، والمنعم عليهم بأصناف النعم. وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم مئات المرات قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣).

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾^(٤).

﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٥).

(١) الزجاجي، مرجع سابق، ص ٣٣.

(٢) الراغب الأصفهاني، مرجع سابق، ص ١٨٤.

(٣) سورة الفاتحة آية ٢. (٤) سورة الشعراء آية ٨٣.

(٥) سورة الأنعام آية ١٦٥.

﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (١).

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٢).

﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ

أَحَدًا﴾ (٣).

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ (٤).

أما اسم الرفيق فمشتق من الرفق، والرفق هو لين الجانب بالقول والفعل والأخذ بالأسهل، وهو ضد العنف (٥) والعنف هو الشدة والمشقة في الأمور.

وقد جاء هذا الاسم في الحديث الصحيح، قال رسول الله (ﷺ): «إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف وما لا يعطي على ما سواه» (٦).

قال ابن القيم:

وهو الرفيقُ يحبُّ أهلَ الرفقِ بل يعطيهم بالرفقِ فوقَ أمانٍ

فإنه عز وجل رفيق في أفعاله، خلق المخلوقات كلها بالتدرّج شيئاً فشيئاً بحسب حكمته ورفقه، مع أنه قادر على خلقها دفعة واحدة وفي لحظة واحدة. ومن تدبر المخلوقات وتدبر الشرائع كيف يأتى بها شيئاً بعد شيء شاهد من ذلك العجب العجيب (٧) فالرفق في خلق الأشياء

(١) سورة آل عمران آية ٥١. (٢) سورة البقرة آية ١٢٧.

(٣) سورة الكهف آية ١١٠. (٤) سورة القيامة آية ٢٢، ٢٣.

(٥) الحافظ ابن حجر، فتح الباري، ج ١، ٤٤٩.

(٦) أخرجه البخاري في الأدب المفرد وأحمد وأبو داود وغيرهم وقد صححه الألباني في

صحيح الجامع (١١٣/٢) رقم (١٧٦٧).

(٧) عبد الرحمن آل سعدني، مرجع سابق، ص ٦٣.

سنة من سنن الله الكونية . . ولذلك سمى الرفيق سبحانه وتعالى .
أما اللطيف : فهو ما لا تدركه الحواس ، أو الذى يعرف دقائق
الأمور (١) .

واللطيف هو الذى يعلم دقائق المصالح وغوامضها ، ومادق منها
ومالطف ثم يسلك في إيصالها إلى المستحق سبيل الرفق دون العنف .
فإذا اجتمع الرفق في الفعل واللفظ في العلم تم معنى اللطف ، ولا
يتصور كمال ذلك في العلم والفعل إلا لله تعالى .

فهو سبحانه وتعالى يلطف بعباده من حيث لا يعلمون ، ويسوق
إليهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون .

قال ابن القيم :

وهو اللطيفُ بعبده ولعبده واللفظُ فى أوصافه نوعان
إدراك أسرار الأمور بخبرة واللفظُ عند مواقع الإحسان
فيريك عزته ويدي لطفه والعبدُ فى الغفلاتِ عن ذا الشأن

يعنى أن اللطيف هو الذى يلطف بعبده في أموره الداخلية المتعلقة
بنفسه ، ويلطف بعبده في الأمور الخارجية عنه ، فيسوقه ، ويسوق إليه
ما به صلاحه من حيث لا يشعر ، وهذا من آثار علمه وكرمه ورحمته ،
فلهذا كان للطف معنيان المعنى الأول أنه الخبير الذى أحاط علمه
بالأسرار وما لطف ودق من كل شئ . والمعنى الثانى : لطفه بعبده ووليه
الذى يريد أن يتم عليه إحسانه ، ويشمله بكرمه ويرقيه إلى المنازل العالية
فييسره ليسرى ويجنبه العسرى ، ويجرى عليه ، من أصناف المحن التى

(١) الراغب الأصفهاني ، مرجع سابق ، ص ٤٥٠ .

يكرهها وتشق عليه وهي عين صلاحه والطريق إلى سعادته . . فيمتحن عبده بما يكره لينيله ما يحب بلطفه ، وكرمه (١) .

وقد ورد اسم اللطيف في القرآن الكريم سبع مرات :
قال تعالى : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (٢) .

﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (٣) .
﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتَصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ (٤) .

﴿ يَا بَنِي إِثْنَاهَا إِن تَكُ مَثْقَلَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ (٥) .

﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾ (٦) .
﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (٧) .

﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ (٨) . ونلاحظ أن اسم اللطيف اقترن في خمس آيات باسم آخر وهو الخبير . ويبدو أن ذلك من التقاء الاسمين الكريمين في المعنى ، ولذلك قيل في تفسير قوله اللطيف الخبير : اللطيف باستخراج الأشياء الخبير بمكانها ، اللطيف الذي لا يخفى عليه شيء ، الخبير الذي أحاط علمه بكل شيء .

(١) عبد الرحمن آل سعدى ، مرجع سابق ، ص ٦٢ .

(٢) سورة الأنعام آية ١٠٣ .

(٣) سورة يوسف آية ١٠٠ . (٤) سورة الحج آية ٦٣ .

(٥) سورة لقمان آية ١٦ . (٦) سورة الشورى آية ١٩ .

(٧) سورة الملك آية ١٤ . (٨) سورة الأحزاب آية ٣٤ .

أما آثار ربوبية ورفقه ولطفه بمخلوقاته فلا تدخل تحت حصر .
وعلى سبيل المثال : فليُنظر الإنسان إلى طعامه بل وطعام كل المخلوقات
كيف ينبت النبات وكيف يصنع طعام سائر الحيوانات . وكيف يساق
هذا الطعام إلى هذه المخلوقات وكيف تنمو به ، وتسعى ، وتتحرك لله لا
أحد يفعل ذلك غير الربّ الرفيق اللطيف .

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ
اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ (١) .

ومن خضرة النبات يصنع غذاء سائر الحيوانات على ظهر الأرض
فالخلية الواحدة تقوم ببناء عشرين مركباً عضوياً في دقيقة واحدة إذا
عرضت الشمس ، وتلك المركبات مختلفة الأنواع منها السكرية ،
والأحماض الأمينية التي عجز العلم الحديث عن تحضيرها صناعياً
بنفس الصفة أو الصورة ، فما الذي يدفع النبات للقيام بهذه المهمة
الشاقة غير الرب المتكفل بمصالح مخلوقاته ، والذي يوصلها إليهم في
رفق من حيث لا يشعرون .

لقد وصف العالم البيولوجي الروسي (تميز باريف) الورقة
الخضراء بالعبارات التالية «الورقة الخضراء وعلى الأخص الخلية
الخضراء أو الكلورفيل ، هي بمثابة البؤرة التي تتجه نحو الطاقة
الشمسية ، والتي تنشأ فيها من جهة ثانية كل فعاليات الحياة على ظهر
الأرض ، هي التي سرقت نار السماء ، وشعاع الشمس المسروق يحترق
في المشعل المتأجج ، وفي الشرارة الكهربائية المتوهجة وهو الذي يحرك
الدولاب المعد للأدلة البخارية ، وريشة الرسام ، وقلم الشاعر :» (٢) .

(١) سورة الحج آية ٦٣ .

(٢) انظر / مارسيل داغر ، الطاقة الشمسية ، ص ١١ .

وقد أشار إلى ذلك الربّ اللطيف في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (١).

فحق لنباتات الأرض أن يرتفع صوتها قائلة: (نحن نباتات الأرض... مخضرة ألواننا... موزونة مركباتنا... مستوية ماهياتنا... جميلة أشكالنا... بهيجة صورنا... عطرة أزهارنا... شهية ثمارنا... في أي ميزان وزنا... وفي أي قوالب صببنا... فمن الذي صورنا ورسم أشكالنا... ومن الذي صبغ ألوان أزاهيرنا... ومن الذي عطّر أوردانا... لا قدرة سوى قدرة الله، ولا ميزان سوى ميزانه... ولا مصور غيره... ولا باري عداه... ولا قالب غير قوالب صنعته... (٢).

فماذا يصنع الغذاء المصنوع في هذه الورقة الخضراء في جسم الإنسان؟

إن الإنسان ينمو ويربى بهذا الغذاء. فأصل الإنسان حيوان منوى وبويضة أنثويه. وكلاهما لا يتجاوز حجمهما رأس الدبوس، ثم ينمو الجنين وما أن يصل المرء إلى سن الشباب، إلا ويبلغ وزنه بليون مرة تقريباً قدر وزن البويضة المخصبة، فمن أين جاءت هذه الزيادة الضخمة؟ ومن الذي ساقها إليه لينمو بها وهو لا يشعر؟

إن هذه الزيادة جاءت من الغذاء، ولكن هذا الغذاء لن يصبح جسماً حياً إلا بعد عمليات من الهضم معقدة.

(١) سورة الأنعام آية ٩٩.

(٢) سعيد النورسي، التوافذ، ص ٢٦. (بتصرف).

يقول الله فيلون» عن جسم الإنسان وكيف يستفيد من الغذاء : «أى الأشياء أعجب وأجمل من مكيئة تعمر وترم نفسها بنفسها بلا انقطاع ، فالحيوان يضعف بالعمل والكد ، ولكنه على قدر ما يشتغل يحس بضرورة تعويض قواه المفقودة بالأكل الغزير ، فالأكل يرد إليه كل يوم ما فقدته بالشغل ، فإنه يدخل إلى بطنه شيئاً غريباً عن جسمه ، فلا يلبث أن يستحيل إلى جسمه ؛ لأنه ينسحق أولاً ، ثم يستحيل إلى سائل ، ثم يتصفى حتى يصير كأنه مرّ من منخل ليترك عنه الأشياء الغليظة ، ثم يصعد إلى مركز العقل (أى القلب) وهناك يرق ويصير دماً ، ومنه يسيل ويسرى إلى الأعضاء ويسقيها بواسطه فروع لاعداد لها فيصفى منها ويصير لحماً ، وكل هذه الأغذية المختلفة في الهيئة والتركيب ليست إلا لحماً للإنسان . . . فالغذاء الذي كان جسماً غير حى نراه يقيم أود حياة الإنسان ، ويصير هو الحيوان نفسه (١) .

وتظهر آثار الربّ الرفيق اللطيف في تخليق الصوص أو الكتكوت في بيضة الدجاجة . إن هذا الكتكوت يتكون داخلها ثم يثقبها ويولئ هارباً!

بعد أن تلقح البيضة ، وتمر في قناة البيض . . وبسبب حرارة الأنثى التي أوجدها المولى جلّ جلاله تنقسم الخلية الأولى فيتكون بذلك البلاستودرم ، وبعد ذلك يقف نشاطها بسبب برودة الجو ، وما أن تحضن الأم بيضها إلا وتبدأ أعضاء الجنين بالنمو شيئاً فشيئاً حتى يخرج الجنين من البيضة . . . ولكن كيف يتنفس هذا الجنين مدة نموه داخل البيض؟

لكل بيضة قطب مدبب وآخر كليلى ، وعند هذا ينفرج غشاء في

(١) انظر: عبد العزيز عبد الرحمن جاب الله ، الدليل الصادق على وجود الخالق ج ١ ، ص ٤٧ .

قشرة البيض ليكون ابتداءً وقبل خلق الجنين حجرة هواء ليتنفس منها الجنين الهواء مدة ثمانية أشهر داخل البيضة! ولو أخذنا بيضة تحمل جنيناً وفتحناها برفق لرأينا رأس الجنين متجهة إلى القطب الذي توجد فيه تلك الحجرة الهوائية!

ولكن كيف يحطم هذا السجين البيضة ويخرج منها؟

فى اليوم الثامن من حضانة الجنين تنمو الطبقة القرنية التي ستكون المنقار. وفى اليوم التاسع ترى المخالب واضحة، وابتداءً من اليوم الثالث عشر تتكون العظام جميعها، ويبدأ جميع الجسم في النمو... وفى اليوم العشرين أى قبل خروجه بيوم (تقريباً) تظهر نتوءات على رأس المنقار تسمى الشاكوش وهى آلة مديبة يثقب بها الجنين القشرة في اليوم الحادى والعشرين ثم يحطمها بجسمه ثم يولئ هارباً إلى الحياة يكد فيها ويسعى ويكابد مشاقها! (١).

فمن الذي رباها ونماها داخل البيضة، ومن الذي لطف به وأخرجه منها ليملأ الدنيا صياحاً؟!

إن عناية الرب سبحانه وتعالى ولطفه حتى في أضعف الحيوانات... فهناك نوع من النحل الأفريقى لا يتغذى صغاره إلا بغذاء حي. فإذا لم تضع النحلة صغارها في وسط حى ماتوا... ولكن هذه النحلة مخططة وموجهة من قبل خالقها اللطيف الخبير، بحيث تستطيع التغلب على هذه المشكلة... فتذهب وتهجم على جراداة وتلسعها لسعة بين جناحها... ولكنها في هذه اللسعة لا تفرز المقدار الاعتيادى من السم كما في اللسعات الأخرى (مثلاً عندما تلسع إنساناً) مخافة أن تؤى تلك إلى موت الجراداة، لذا فإنها تعطى في هذه اللسعة

(١) انظر ابن خليفه عليوى، مرجع سابق، ص (٣٩٠-٣٩٣).

سماً يكفي لإحداث غيبوبة في الجراددة لمدة (١٥) يوماً، وبعد ذلك تضع النحلة بيضها تحت جناحي الجراددة ثم تطير، فهي تعلم أن صغارها ستتغذى طيلة (١٥) يوماً من الغذاء الحى تحت جناحي الجراددة، وفي اليوم الخامس عشر عندما يكون الصغار على أهبة الطيران، إما أن تموت الجراددة أو تفيق وهي جريحة^(١).

إن هذه النحلة لكانت تستطيع معرفة تركيز سمها والمقدار اللازم للعملية أعلاه يجب أن تكون على الأقل متخصصة في الكيمياء الحيوية، ولكن تعرف أن صغارها يحتاجون إلى بيئة حية يلزم أن تكون مخصصة في علم الأحياء... وهي لا تعرف هذا ولا ذاك والأمر توجيه وإلهام من الخالق سبحانه وتعالى، وما هذا إلا أثر من آثار ربوبيته ولطفه ورحمته بخلقه.

وهناك مثال واضح يبين لنا لطف الله (عز وجل) بخلقه، فهذا يوسف (عليه السلام) يلطف به الله عز وجل من حيث لا يعلم، ويسوق إليه نعمة وهي التمكين في الأرض من حيث لا يحتسب، ومن كان يفكر ويوسف (عليه السلام) يعاني صنوفاً من المحن والابتلاءات أن ذلك سيكون سبباً في التمكين في الأرض والتحكم في أقوات الناس؟! لقد تواترت عليه محن شتى: من محنة كيد إخوته، ومحنة الحب والخوف والترويع فيه، ومحنة الرق وهو يتنقل كالسلعة من يد إلى يد على غير إرادة منه، ولا حماية ولا رعاية من أبويه ولا من أهله، ومحنة كيد امرأة العزيز والنسوة، وقبلها محنة الإغراء والفتنة والشهوة، ومحنة السجن بعد رغد العيش وطراوته في قصر العزيز، ومحنة المشاعر البشرية وهو يلقي بعد ذلك إخوته الذين ألقوه في الحب وكانوا السبب الظاهر لهذه المحن والابتلاءات.

(١) خلوق نورباني، مرجع سابق، ص ٤٠.

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِينَ
وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبْتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ
جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ
أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ
الْحَكِيمُ ﴾ (١).

فالله عز وجل يحقق مشيئته بلطف ودقة خفيه لا يحسها الناس ولا
يشعرون بها.

وإذا أراد سبحانه وتعالى أمراً قيض له أسباباً وقدره، ويسره.
وهو العليم بمصالح عباده، الحكيم في أقواله وأفعاله وقضائه وقدره وما
يختاره ويريده (٢).

وتبدو آثار ربوبية الله (عز وجل) ولطفه ورفقه بعباده في التدرج في
التشريعات التي جاء بها الإسلام. فقد كان المجتمع العربي مجتمعاً أمياً
تشيع فيه الأمية وكثير من العادات السيئة، ولم يكن من السهل الانتقال
بهذا المجتمع فجأة إلى المثالية؛ ولذلك مكث رسول الله (ﷺ) ثلاثاً
وعشرين سنة يبنى هذا المجتمع لبنة لبنة.

فقد قام (ﷺ) بإعداد وتهيئة المجتمع الإسلامي بغرس عقيدة
التوحيد وتربيتها في النفوس.

وتم تطبيق الأحكام الإسلامية على مراحل بدأت بقانون الوراثة
سنة ثلاث من الهجرة، ووضعت قوانين النكاح والطلاق في صورتها
النهائية سنة سبع، والقوانين الجنائية نفذت مادة بعد أخرى حتى اكتمل

(١) سورة يوسف آية (٩٩-١٠٠).

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، ح ٢، ص ٤٩١.

الأخذ بها سنة ثمان . وحرمت الخمر بشكل نهائي في تلك السنة .
وألغى الربا سنة تسع .

وقد روعى أيضاً هذا المبدأ في الأوامر والنواهي :

فالصلاة فرضت أول ما فرضت ركعتين ركعتين ، ثم أقرت في
السفر على هذا وزيدت في الحضر إلى أربع (الظهر ، العصر ،
والعشاء) .

والصيام فرض أولاً على التخيير ، من شاء صام ، ومن شاء أفطر
وفدى ، أى أطعم مسكيناً عن كل يوم يفطره .

والزكاة فرضت أولاً بمكة مطلقة غير محددة ولا مقيدة بنصاب ، ثم
حددت بأنصبه ومقادير في المدينة .

وفي النواهي والمحرمات كذلك لم يأت تحريمها دفعة واحدة وإنما
أعد الناس أولاً إعداداً نفسياً وذهنياً لتقبل تحريمها ، ثم جاء تحريمها على
مراحل ومن أوضح الأمثلة على ذلك تحريم الخمر والربا والزنا (١) .

وتقول أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) عن هذا المبدأ : « إنما أنزل
أول ما أنزل - أى القرآن - سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار حتى إذا
ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول شيء لا
تشرّبوا الخمر ، لقالوا : لا ندع الخمر أبداً ، ولو نزل : لا تزنوا ، لقالوا :
لا ندع الزنا أبداً » (٢) .

ولين الجانب والرفق في المعاملة من شمائل المسلم ، فالله (عز وجل)
رفيق يحب الرفق في الأمر كله . ولذلك أمرنا سبحانه وتعالى بالعفو
والحلم وحسن المعاملة .

(١) زين شحاته ، المرشد في تعليم التربية الإسلامية ، من مبادئ التعليم في القرآن الكريم
والسنة النبوية ، ص ٩٣ .

(٢) رواه البخاري .

قال تعالى: ﴿وَالْكَافِرِينَ الْغَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٣٤) وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٢).

والرفق في الأمور جماع الخير كله، ومن يحرمه يحرم الخير كله. قال رسول الله ﷺ: «من يحرم الرفق يحرم الخير كله» (٣).

والنار تحرم على كل هين لين سهل رفيق. ففي الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه قال «قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بمن يحرم على النار- أو بمن تحرم عليه النار؟ تحرم على كل قريب هين لين سهل، وفي رواية: «قريب من الناس» (٤).

فالأصل في التعامل الاجتماعي اللين والرفق والرقه مالم يقم ما يقتضى خلاف ذلك.

ويضرب لنا رسول الله ﷺ مثلاً علمياً في الرفق واللين. وقد تعجبت منه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، عندما استأذن رجل بالدخول عليه، فنعته بقوله: «بئس أخو العشيرة» فلما دخل ألان له الكلام... (٥).

والرفيق الرحيم أحق الناس برحمة الله (عز وجل) كما في

(١) سورة آل عمران آية ١٣٤. (٢) سورة فصلت آية (٣٤-٣٥)

(٣) رواه مسلم (٢٥٩٢) ولفظ كله لم ترد عنده وإنما وردت عند أبي داود (٤٨٠٩).

(٤) رواه الترمذي وقال: حديث حسن، ورواه أحمد وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٣١٣٥)

(٥) رواه البخاري في كتاب الأدب.

الحديث: «الراحمون يرحمهم الرحمنُ تبارك وتعالى: ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء» (١).

وأحقُّ الناس بالرفق واللين الأهل وذوو الرحم فينبغي أن تصطبغ العلاقات داخل الأسر باللين والرفق حتى يتماسك البنيان وتصفو الأجواء وفي الحديث النبوي: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله بأهل بيت خيراً أدخل عليهم الرفق» (٢).

ومما يجب الرفق به ولين الجانب معهم المتعلمين وقد أثنى الله (عز وجل) علي نبيه في رفقته ولين جانبه ورحمته بمن حوله.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (٣).

وقال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (٤).

ويروي أبو هريرة (رضي الله عنه) مثلاً حياً لهذه الرحمة والرفق فيقول: «بال أعرابي في المسجد، فقام الناس إليه ليقعوا فيه، فقال النبي ﷺ «دعوه وأريقوا على بوله سجلاً من ماء - أو ذنوباً من ماء - فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين» (٥).

وقريب من هذا ما رواه معاوية بن الحكم السلمي (رضي الله عنه)

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذي والحاكم وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٣٥٢٢).

(٢) رواه أحمد وصححه الألباني وهو في صحيح الجامع برقم (٣٠٣).

(٣) سورة التوبة آية ١٢٨.

(٤) سورة آل عمران آية ١٥٩.

(٥) رواه البخاري في الطهارة.

قال : بينما أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذا عطس رجل من القوم فقلت : يرحمك الله .

فرماني الناس بأبصارهم ، فقلت : وأثكل أمياه ما شأنكم تنظرون إليّ؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم ، فلما رأيتهم يصمتوني . لكنني صمت ، فلما صلى رسول الله ﷺ فبأبى وأمى ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه فوالله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني . قال : إن هذه الصلاة لا يصلح شيء من كلام الناس ، إنما هي التسبيح والتكبير ، فقلت يا رسول الله . . الخ»^(١) .

وقسوة القلوب وغلظتها قد يكون سببها مرور الأيام والغفلة وكثرة النعمة .

ولذلك عاتب الله (عز وجل) أصحاب رسول الله ﷺ حين رأى تغيراً في قلوبهم فقال تعالى : ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾^(٢) .

وحدث ابن مسعود (رضي الله عنه) فقال : ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية . . إلا أربع سنين»^(٣) .

ويعلق محمد بن كعب علي هذه الآية فيقول : «كان الصحابة بمكة مجديين ، فلما هاجروا أصابوا الريف والنعمة ففتروا عما كانوا فيه فقسّت قلوبهم ، فوعظهم الله فأفاقوا»^(٤) .

(١) متفق عليه . (٢) سورة الحديد آية ١٦ .

(٣) روه مسلم ، كتاب التفسير ، باب (١) .

(٤) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ج ١٧ ، ص ١٦٢ عند تفسير الآية ١٦ من سورة الحديد .

وقد يكون سبب قسوة القلوب الانشغال ببلغو الكلام ونسيان ذكر الله (عز وجل)، وجاء في موطأ الامام مالك قال : بلغني أن عيسى عليه السلام قال لقومه : لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله تعالى، فتقسو قلوبكم، فإن القلب القاسى بعيدٌ من الله، ولكن لا تعلمون، ولا تنظروا في ذنوب الناس كأنكم أرباب، وانظروا فيها كأنكم عبيد، فإنما الناس رجلان: معافى ومبتلى، فارحموا أهل البلاد، واحمدوا الله على العافية»^(١).

فالمسلم يتعهد نفسه دائماً، ويجلو قلبه حتى لا تعلوه غفلة تتبعها قسوة . فإذا ما شعر بقسوة في قلبه وخشونه في خلقه . تكلف بعض السلوكات اللينة حتى يلين قلبه، فقد شكا إلى رسول الله ﷺ رجل قسوة قلبه، فقال له : « إن أردت أن يلين قلبك؛ فأطعم المسكين، وامسح رأس اليتيم»^(٢).

فصورة الشديد الغليظ، الغاضب العنيف، صورة فظة مشينه معييه تنفر منها الطباع، بينما صورة السهل الرقيق، اللين اللطيف صورة تزين صاحبها، ترتاح إليها النفوس، وتأنس إليها القلوب، وتنشرح لها الصدور^(٣). قال رسول الله : «ما كان الرفق في شيء إلا زانه، ولا نزع من شيء إلا شانه»^(٤).

ولا يقتصر سلوك المؤمن تجاه إخوانه علي الرفق بهم واللين معهم، وإنما يتجاوز ذلك إلى رعاية مصالحهم وقضاء حوائجهم، فهو مع إخوانه بنیان واحد، وجسد واحد.

(١) موطأ مالك، كتاب الكلام، باب (٥)، حديث رقم (٨).

(٢) رواه أحمد، وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم (١٤١٠).

(٣) محمود محمد الحزندار، هذه أخلاقنا، ص ٤٦٥.

(٤) صحيح الجامع برقم (٥٦٥٤).

قال رسول الله ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً» (١).

وقال رسول الله ﷺ: «مثل المسلمين في توادهم وتعارفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى» (٢).

فالأخوة ورعاية مصالح الإخوان هي روح الإيمان الحى ولبابه، فالمسلم يحيا لإخوانه، ويحرص على منفعتهم. قال رسول الله ﷺ: «من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر على مسلم ستر الله عليه في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه» (٣).

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ (٤).

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ (٥).

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ (٦).

﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَبْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ (٧).

﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (٨).

(١) رواه البخاري في الصلاة والأدب والمسلم في الأدب.

(٢) رواه البخاري ومسلم انظر مع الأصول برقم ٤٧٧١.

(٣) رواه أبو داود، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، برقم ٤١٣٧.

(٤) سورة البقرة آية ١٤٠.

(٥) سورة إبراهيم آية ٤٠.

(٦) سورة النمل آية ١٩.

(٧) سورة الكهف آية ٢٠.

(٨) سورة البقرة آية ٢٠١.

«رب أعني ولا تعن عليّ. وانصرني على من بغى عليّ. رب اجعلني
لك شكّاراً، لك ذكّاراً، لك رهاباً، لك مطواعاً، إليك مخبتاً أوها منيباً،
رب تقبل توبتي، واغسل حوبتي، وأجب دعوتي، وثبت حجتي، واهد
قلبي، وسدد لساني، واسلل سخيمة قلبي»^(١).

* * *

(١) رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه والحاكم وصححه ووافقه الذهبي ٥١٩/١ وصححه
الالباني في صحيح الترمذى ٣/ ١٧٨.

الرحمن - الرحيم - الرعوف

٧٧ - ٧٨ - ٧٩

الرحمنُ الرحيم اسمان من أسماء الله الحسنى ، والاسمان يتضمنان صفة الرحمة ، وقد ذكر اسم الرحمن في القرآن الكريم (٥٧) مرة ، مثل قوله تعالى :

﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (١) .

﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ (٢) .

أما اسم الرحيم فذكر (١١٤) مرة ، أى ضعف عدد تكرار اسم الرحمن ، وذلك مثل قوله تعالى :

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣) .

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (٤) .

وهذا التكرار بدون الرحمن الرحيم في البسملة التي تفتتح بها السور القرآنية .

والاسمان - كما سبق - مشتقان من الرحمة ، ومحال أن يكونا مترادفين من جميع الوجوه ، فوجب أن تكون بينهما فروق ، فما هذه الفروق ؟

قال العلماء : إن هذه الفروق تتمثل في التالي :

(١) سورة طه آية ٥ . (٢) سورة الفرقان آية ٢٦ .

(٣) سورة البقرة آية ١٧٣ .

(٤) تكررت هذه الآية في سورة الشعراء .

١- إنَّ الرحمن هو ذو الرحمة الشاملة لجميع الخلائق في الدنيا، وللمؤمنين في الآخرة، والرحيم هو ذو الرحمة الخاصة بالمؤمنين يوم القيامة، واستدلوا علي ذلك بقوله تعالى:

﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾.

﴿ثم استوى على العرش الرحمن﴾.

فذكر الاستواء باسم «الرحمن» ليعم جميع خلقه برحمته، لأن العرش محيط بالمخلوقات قد وسعها، والرحمة محيطة بالخلق واسعه لهم ورحمتي وسعت كل شيء، فاستوى علي أوسع المخلوقات بأوسع الصفات. فلذلك وسعت رحمته كل شيء^(١).

وقال تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾.

فخص المؤمنين باسمه الرحيم.

والمشهور أنهم كانوا يقولون يا رحمن الدنيا، ورحيم الآخرة فرحمته في الدنيا شاملة للمؤمن، والكافر، والصالح، والطالح، أما رحمته في الآخرة فخاصة بالمؤمنين.

فالرحمة الناشئة من اسم الرحمن عامه، والرحمة الناشئة من اسم الرحيم خاصه ولذلك جاءت الرحمن على وزن فعلان، وفعلان تفيد التكثير، فالرحمن هو ذو النهاية في الرحمة الذي وسعت رحمته كل شيء^٢.

أما الرحيم فوزن فاعيل، وهو خاص بالمؤمنين.

٢- وقيل: الرحمن هو واسع الرحمة، والرحيم دائم الرحمة وسعة الرحمة أمر تتطلبه الدنيا لما تستوجه كثرة (الذنوب) واستمرار الرحمة

(١) ابن القيم الجوزية، مدارج السالكين، ح ١، ص ٣٣.

أمر يناسب الحياتين الدنيا والآخرة، ويؤيد ذلك ورود اسم الرحيم ضعف عدد اسم الرحمن في القرآن الكريم.

والرحمن اسم خاص بالله (عز وجل) فلا يجوز إطلاقه على أحد من البشر، أما الرحيم فيجوز إطلاقه على العبد^(١)، ولذلك وصف الله عز وجل به نبيه فقال: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾^(٢).

ولذلك جاء في ترتيب البسملة باسم الله أولاً، ثم ذكر الرحمن؛ لأن الاسمين لا يطلقان على غير الله (عز وجل) ثم الرحيم وهو عام قد يطلق على الخلق كما سبق.

*أما الرءوف: فهو شديد الرحمة، والرأفة: أشد الرحمة، أو هي نهاية الرحمة وقد ورد في القرآن الكريم (١٠) مرات كاسم من أسماء الله الحسنى، ومرة واحدة صفة لرسول الله ﷺ وقد اقترن في ثمان منها بالرحيم مقدماً عليه، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾^(٣)، ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾^(٤).

وهذا يدل على عظم رحمته وكمالها (سبحانه وتعالى).

والله عز وجل ذو رحمة، والمخلوقات تتراحم فيما بينها، فهل رحمة الله عز وجل كرحمة مخلوقاته؟

رحمة الله عز وجل ليست كرحمة المخلوقين. والاتفاق في الاسم لا يقتضى الاتفاق، في المسمى. فللخالق صفات تليق به، وللمخلوقين صفات تليق بهم، وتختص بهم.

وإذا كانت الرحمة في أصل مادتها تعنى رقة في القلب على المرحوم، فذلك جائز في حق العباد ولكنه محال في حق الله (عز

(١) سورة التوبة آية ١٢٨.

(٢) اسماعيل بن كثير، تفسير القرآن الكريم، ح ١، ص (٢٠-٢١) (بتصرف).

(٣) سورة الحج آية ٦٥.

(٤) سورة الحشر آية ١٠.

وجلّ) لأنه جلّ وعلا لا يشبه الحوادث . فهو سبحانه وتعالى ذو رحمة علي ما يليق بجلاله كسائر الصفات .

ومن آثار رحمته سبحانه ، إنعامه وإفضاله وإحسانه على مخلوقاته .

وإنعام الله عزّ وجلّ وإفضاله وإحسانه على مخلوقاته يشمل إيجادهم أولاً ، ثم هدايتهم ثانياً ، ثم إسعادهم ثالثاً . إيجادهم في الدنيا ثم هدايتهم إلى ما يصلحهم ، ثم إسعادهم في الآخرة إن آمنوا واتقوا .

وآثار رحمة الله (عزّ وجلّ) في الكون والحياة لا تعد ولا تحصى ، قال ابن القيم (رحمه الله) : إن ظهور آثار هذه الصفه (الرحمة) في الوجود كظهور أثر الربوبية والملك والقدره ، فإن ما لله على خلقه من الإحسان والإنعام شاهد برحمة تامة وسعت كل شيء .

فبرحمته أرسل إلينا رسوله ، وأنزل علينا كتابه ، وعلمنا من الجهالة ، وهدانا من الضلالة ، وبصّرنا من العمى ، وأرشدنا من الغي ، وبرحمته عرفنا من أسمائه وصفاته وأفعاله ما عرفنا به أنه ربنا ومولانا . وبرحمته أطلع الشمس والقمر ، وجعل الليل والنهار (١) .

فلا حدود لرحمة الله (عزّ وجلّ) ، وكلُّ صور الرحمة التي نراها في الكون من حولنا إنما هي جزء من مائة جزء خلقها الله (عزّ وجلّ) .

عن أبي هريره (رضي الله عنه) قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة . وفي رواية : كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض . فأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمة ، وأرسل في خلقه كلّهم رحمة واحدة .

(١) مختصر الصواعق المرسله للموصلين (٢/٣١٧) .

وفى رواية «إنَّ لله مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس، والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وفى رواية حتى ترفع الدابة حافرهما عن ولدها خشية أن تصيبه وآخر الله تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة» (١).

فبحار الرحمة الإلهية بلا شاطئ ولا حدود، ولا تقاس رحمة البشر، برحمة الخالق، فرحمة الإنسان سجيئة في حدود طاقته المحدودة، وهي مقيدة على قدر عطائه المحدود الذي يتفد، وهى لا تسع إلا ما يسعه عقله وقلبه. . وما أسرع ملل الرحمة الإنسانية! أما الخالق (سبحانه وتعالى) فرحمته وسعت كل شئ، وهو سبحانه أرحم بعباده من الأم بولدها.

عن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أنه قال : قدم على رسول الله ﷺ بسبى، فإذا امرأة من السبى تبغى - وفى رواية البخارى - تسعى إذ وجدت صبياً في السبى أخذته فالصقت به بطنها وأرضعته . فقال لنا رسول الله ﷺ : أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟ قلنا : لا والله: وهي تقدر على أن لا تطرحه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم، الله أرحم بعباده من هذه بولدها).

ومظاهر وآثار رحمة الله عز وجل من حولنا لا تعد ولا تحصى، ومنها علي سبيل المثال :

(١) متفق عليه (البخارى في الأدب، ومسلم في التوبة).

إرسال الرسل لهداية البشر، فالرسل رحمة من عند الله (عز وجل)، قال تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ (١)، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (٢).

وقال (سبحانه) عن عيسى (عليه السلام):

﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ (٣).

وقال تعالى عن كتبه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (٤).

فبرحمته سبحانه أرسل الرسل، وأنزل عليهم الكتب لهداية البشر، ولتعريفهم بأسمائه وصفاته، وكيفية عبادته سبحانه، لينقلهم - برحمته - من الجهالة إلى العلم، ومن الضلالة إلى الهدى، ومن الغنى إلى الرشد.

ومن آثار رحمته (عز وجل) إعداد الأرض لسكنى البشر، قال تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ (٥).

فقد خلق الله (سبحانه وتعالى) الأرض في مكان مناسب لسكنى البشر، ولفها بغلاف مائى يغطى حوالى أربعة أخماسها، وغلاف هوائى يعلوها بسمك (١٠٠٠) كيلو متر.

ومن آثار رحمة الله عز وجل في إعداد الأرض وتمهيدها لسكنى المخلوقات ما يلى:

١- لو كانت قشرة الأرض أسمك مما هي عليه بمقدار بضعة أقدام

(١) سورة التوبة آية ١٦ . (٢) سورة الأنبياء آية ١٠٧ .

(٣) سورة مريم آية ٢١ . (٤) سورة النحل آية ٨٩ . (٥) سورة الذاريات آية ٤٨ .

٢. لا مُتَّص ثانى أكسيد الكربون الأكسجين ، ولما أمكن وجود حياه .
٣. ولو كان الهواء أقل ارتفاعاً مما هو عليه ، فإن بعض الشهب التي تخترق بالملايين كل يوم في الهواء الخارجى ، كانت تضرب في جميع أجزاء الكرة الأرضية ، وكان في إمكانها أن تشعل كل شئ قابل للاحتراق .
٤. ولو أن شمسنا أعطت نصف إشعاعها الحالى ، لكننا نجمدنا ، ولو أنها زادت بمقدار النصف ، لكننا رماداً منذ زمن بعيد .
٥. ولو أن قمرنا يبعد عنا عشرين ألف ميل بدلاً من بعده الحالى ، ولما لا وقمر المريخ يبعد عنه ستين ألف ميل ، لكان المديبلغ من القوة بحيث أن جميع الأرض تغمر مرتين في اليوم بماء متدفق يزيح الجبال نفسها .
٦. ولو كان الليل أطول مما عليه الآن عشر مرات ، لأحرقت شمس الصيف الحارة نباتاتنا في كل نهار ، وفي الليل يتجمد كل نبات على وجه الأرض .
٧. ولو كان الأوكسجين بنسبة (٥٠ ٪) أو أكثر في الهواء بدلاً من النسبة الحالية وهى (٢١ ٪) فإن جميع المواد القابلة للاحتراق في العالم تصبح عرضة للاشتعال لدرجة أن أول شرارة في البرق تصيب شجرة لا بد أن تلهب الغابه كلها ، وما استطاع الإنسان أن يطفىء حريقاً ، ولو نقصت نسبة الأكسجين إلى (١٠ ٪) لتعذرت الحياة على سطح الأرض .
٨. ولو أن الله جعل الماء لا يتبخر لانعدم المطر ، ولو انعدم المطر لاستحالت الحياة وصارت الأرض قاحلة جرداء .

٨- ولو كانت مياه المحيطات حلوة لتعفت وتعدرت بعد ذلك الحياة على الأرض، حيث إن الملح هو الذي يمنع حصول التعفن والفساد، ولولا أن الكلور يتحد مع الصوديوم، لما كان الملح، وبالتالي ما كانت حياة.

٩- ولو جعل الله محاور الأرض معتدلاً بدل الميل الحالي الذي مقداره (٢٣°) مع سكون الأرض، لتجمدت قطرات المياه المتبخرة من المحيطات والبحار ونزلت في مكانين محدودين في الشمال والجنوب، ولهلك الناس وانعدمت الحياة.

١٠- ولو كانت الأرض كعطارد لا يدير إلا وجهاً واحداً منه نحو الشمس، ولا يدور حول محوره إلا مرة واحدة في خلال الدورة الكاملة للشمس، أو بتعبير آخر لو كان قسم من الأرض ليلاً دائماً، والآخر نهراً دائماً، لما عاش أحد حيث الليل الدائم أو النهار الدائم، ولا كانت حياة.

١١- ولولا أن الله خلق قانون الجاذبية لما التقت الذرات، ولما تكونت المجرات، ولما دارت الأرض حول الشمس بانتظام. ولترتب على هذا انهيار العمارة الكونية كلها.

١٢- ولو خلق الله الأرض صغيرة في حجم القمر لعجزت عن احتفاظها بالغلافين الهوائى والمائى اللذين يحيطان بها، ولصارت درجة الحرارة بالغة حد الموت.

١٣- ولو خلق الله الإلكترونات ملتصقة بالبروتونات داخل الذرة، والذرات ملتصقة ببعضها بحيث تنعدم الفراغات، لكانت الكرة الأرضية بحجم البيض، وحينئذ كيف يعيش الإنسان؟!

١٤- ولو خلق الله العناصر لا تتحد مع بعضها، لما أمكن وجود

تراب ولا ماء ولا شجر ولا حيوان ولا نبات .

١٥ - ولو أن الله لم يخلق الجبال لتناثرت الأرض ، وتبعثرت في الفضاء .

١٦ - ولولا أنه (سبحانه) أودع في الأرض أرزاقها ، لما استطاعت الحياة أن تبقى (١) .

فأى رحمة هذه التي أعدت ومهدت وربت الدار لسالكينها من المخلوقات :

ألا ما أوسع رحمة الله عزّ وجلّ ، وما أعظمها !

وآثار رحمة الله (عزّ وجلّ) ليست مقصورة على إعداد الأرض للإنسان وإنما هي معه طيلة حياته ، وكلّ عضو من أعضاء جسمه ينطق برحمة ربه ، فالجهاز الهضمي (مثلاً) وكيف يحول ما يأكله الإنسان من مواد معقدة صلبة إلى مواد ذائبة قابلة للامتصاص معجزة ورحمة من الخالق الرحمن الرحيم (سبحانه) .

وهذا التنوع في صفوف الغذاء ، مع أن الأصل واحد ، فعناصر الغذاء هي عناصر القشرة الأرضية ، ولكن رحمة الرحمن الرحيم أخرجت لنا أشكالاً شتى ، وصنوفاً متعددة من الطعام والثمار ، فهذا حلو ، وذاك أشد حلاوة ، وهذا لاذع ، وذلك حار ، ومن كلّ صنف عدة أنواع ، وهناك تنوع في الأشكال والألوان والروائح حتى يقبل الإنسان على طعامه بنفس تواقه ، ورغبة جياشه .

ولا تقتصر آثار رحمة الله (عزّ وجلّ) على الإنسان في طعامه وشرابه ، وإنما أيضاً الجوع رحمة من الله (عزّ وجلّ) ، وهو إحساس

(١) سعيد حوى ، الله (عزّ وجلّ) ، ص ٣٧ : ص ٣٩ .

عجيب حار العلماء فيه إحساس يدفع الإنسان إلى الطعام، فماذا لو فقد الإنسان هذا الإحساس؟! إنه الهزال ثم الموت.

إن الطفل الرضيع قد تشغل عنه أمه، فتأخر عليه بالرضاعة، فماذا يحدث؟ إنه يحس بالجوع ثم يصرخ فماذا يعنى صراخه؟ إنها رسالة موجهة إلى أمه مضمونها: إنني جائع فأسرعي بإرضاعي!

والإحساس بالألم أيضاً أثر من آثار رحمة الله (عز وجل) إذ عن طريقه تتم في الجسم أمور غريبة تتكاتف كلها لحماية الإنسان، وحفظ حياته ودفع الأذى عنه.

فمن أول نتائج الألم السريعة، الابتعاد عن مصدر الأذى بطريقة سريعة، فعندما يشعر الإنسان بلسعة النار يتعد تلقائياً عنها وبسرعة، فماذا لو لم يشعر الإنسان بلسعة النار؟!

والنسيان أيضاً أثر من آثار رحمة الرحمن الرحيم، فماذا لو لم ينس الإنسان ما يلزم به في حياته من فقد لعزیز أو نقص في مال أو إساءة من عدو أو صديق؟!

ومن آثار رحمة الرحمن الرحيم على الإنسان أن أخفي عنه موعد أجله ولو عرف الإنسان يوم موته سواء أكان هذا اليوم بعيداً أم قريباً لتغيرت نفسه، وانقطع أمله، وتنغصت حياته وتحولت إلى شقاء.

وأعظم آثار رحمة الله (عز وجل) الجنة، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وَجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١).

وقد أعد الله (سبحانه) فيها لعباده المؤمنين من أسباب السعادة ووسائل التنعم ما لا يخطر على قلب بشر، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ

آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١﴾

وقد جمعت الآية السابقة بين نعيم البدن في الأرزاق المادية، ونعيم النفس في الأزواج المطهرة، ونعيم القلب في الخلود.

قال تعالى: ﴿يَا عِبَادَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (٦٩) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢﴾

وأعظم من كل هذا النعيم رضوان الله (عز وجل) عن أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) أن رسول الله ﷺ قال: إِنَّ اللَّهَ (عز وجل) يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطينا مالم تعط أحداً من العالمين، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك فيقولون: وأى شيء أفضل من ذلك؟

فيقول: أحلّ عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبداً (٣).

ولو ذهبنا نستقصى آثار رحمة الله (عز وجل) بالإنسان ما وسعت ذلك مجلدات.

﴿وَأَنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٤).

(١) سورة البقرة آية ٢٥.

(٢) سورة الزخرف آية ٢٥.

(٣) متفق عليه البخاري ٣٦٣/١١، ٣٦٤، ومسلم برقم (٢٨٢٩).

(٤) سورة النحل آية ١٨.

ولا تقتصر آثار رحمة الله (عز وجل) على الإنسان وحده، وإنما تبدو آثارها في كثير من أجناس الحياة من غير الإنسان، قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (١).

ونعرض في إيجاز لشيء من آثار رحمة الله (عز وجل) في عالم الحيوان:

* ترعى القردة أولادها الصغار فترضع صغيرها، وتحمله علي كتفها وتحميه وتدافع عنه، وتصيح وتتألم إذا اعتل أو جرح أحد صغارها.

* تنتف الأرناب شعر بطنها؛ لتجعله فراشاً لأولادها، وبعض الحيوانات أكثر منها شفقة ورحمة لأنها تنتف شعرها كله ولا تكتفي بجزء منه، ومتى باضت لفت بيضها في شعرها فجعلته أثواباً تصنعها لوقايتها من الحر والبرد والعوارض الجوية، ثم تموت!

* يصعد القنفذ إلى العنب، فيرمي بالعنقود، ثم ينزل فيأكل منه ما يكفيه، وإن كان لها أولاد تمزغ علي الباقي فيتعلق بشوكة فيذهب به إلى أولاده.

* وفي عالم الطيور تحتضن الأم البيض لأنه يحتاج إلى حرارة ودفع حتى يفقس، ولا تتركه إلا إذا اشتد بها الجوع. ولكنها تعود إليه مسرعة، وتقوم الإناث بتغذية الصغار وذلك بأكل مهضوم كما في الحمام إذ يفرز جدار الحويصلة سائلاً خاصاً يسمى بالعصير الحويصلي تأخذه الصغار مع الغذاء المحفوظ في الحويصلة، وتقوم الأم بإعطاء الصغار البذور تدريجياً حتي يتم اكتمال جهازها الهضمي.

* وفي الزناير تقوم الأنثى في البداية بوضع البيض الذي يفقس عن يرقات، وسرعان ما تعطى الأم كل اهتمامها لتغذيتها، فتحضر لها مواداً سكرية تجمعها من الأزهار، أو تغذيها بحشرات حين تصطادها، ثم تقطعها بفكوكها القوية، وتقدمها بعد ذلك لصغارها.

* بعض أنواع الذباب يحفر لبيضه جحراً في الأرض يضعه فيه، ثم يذهب إلى عنكبوت أو دودة يج فيها جزءاً من السم فتسكن حركتها، ثم يحملها إلى جحره ويلقيها عند البيض ويسد عليها، فإذا خرجت الأولاد من البيض وجدتها بجانبها فتغذت بها. . . وسبب ذلك أن هذه الحشرات لا تأكل ميتة قط، وأمها لا ترعى أولادها قط، فتحضر لها هذه الحشرات التي خدرتها بسمها حتى إذا خرجت من البيض أكلتها!! (١).

فمن الذي علّم الحيوانات والحشرات السابقة وألهمها؟
ألا ما أعظم آثار رحمه الله (عز وجل).

بيد أن هناك شبهة يثيرها الكافرون والغافلون ألا وهي إذا كان الله (عز وجل) رحماناً ورحيماً بعباده، فلماذا نشاهد في الكون كثيراً من القسوة والآلام والكوارث التي تحتاج البلاد والعباد؟

والجواب عن ذلك واضح بين لأولى الألباب: فعندما يهلك الحق (سبحانه) الظالمين كقوم نوح وقوم عاد وقوم ثمود وغيرهم فإنما ذلك بعد أن أرسل إليهم رسله، وأقام عليهم حججه فجاءتهم الرسل يدعونهم، ويقولون لهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ (١). فجاء

(١) حسن أيوب، مع الله في أسمائه وصفاته، ص ٥٨.

(٢) سورة إبراهيم آية ١٣.

ردهم يحمل معاني الكبر والتمرد علي أمر الله (عز وجل)، واحتقار الرسل وازدراءهم، مثل: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (١)، ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٢)، ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ (٣)، ﴿لَئِنْ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ (٤)، ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ (٥).

فكان إهلاكهم عدلاً من الله (عز وجل)، ورحمة منه بعباده المؤمنين بل ونعمه على الكون كله.

فإهلاك الظالمين بعد الإعذار إليهم هو عين الرحمة للوجود كله: ﴿هَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٦)، ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (٧). ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ (٨).

فقد أهلك الحق (سبحانه وتعالى) كل هؤلاء بظلمهم وإفسادهم في الأرض. أما ما يحدث في الكون من كوارث كالزلازل والبراكين وغيرها، فإنما هو تذكير للغافلين.

وهذه سنة من سنن الله الكونية، قال تعالى: ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٩)، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ (١٠).

-
- | | |
|---------------------------|-------------------------|
| (١) سورة الأعراف آية ٥٩. | (٣) سورة الفرقان آية ٨. |
| (٢) سورة الأعراف آية ٦٦. | (٥) سورة هود آية ٩١. |
| (٤) سورة الشعراء آية ٢٩. | (٧) سورة النحل آية ١١٣. |
| (٦) سورة الأنعام آية ٤٧. | |
| (٨) سورة القصص آية ٥٩. | |
| (٩) سورة الرم آية ٤١. | |
| (١٠) سورة الأنعام آية ٤٢. | |

فعند ما يذكر الحق (سبحانه) الغافلين ليرجعوا إليه ، فإنما ذلك عين الرحمة بهم ، فليست الرحمة حناناً أو شفقة تنكر للعدل والنظام والله المثل الأعلى ، الطبيب عندما يجري عملية جراحية لمريض ، ويتر عضواً من أعضائه ، فإن ذلك في ظاهره قسوة ، بيد أنه في حقيقته عين الرحمة بالنسبة للمريض ، فقد بتر عضواً لو ترك لكان في تركه هلاك البدن كله .

وعندما نرى القاتل يقتص منه ، فقد نشفق عليه ، ولو أجيببت هذه الشفقة وأطلق سراحه لامتلأت الأرض فوضى وعين الرحمة في القصاص ، قال تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١) .

أما المصائب والالام التي تنزل على المؤمنين ، فإنما هي تكفير لخطاياهم وتمحيص لإيمانهم ، ورفع لدرجاتهم ، وهذا عين الرحمة بهم ، قال تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ (٢) .

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي ﷺ قال : « ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم - حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياها » (٣) .

فالمصائب بالنسبة للمؤمنين رحمة من الله (عز وجل) بهم ، فليس

(١) سورة البقرة آية ١٧٩ .

(٢) سورة البقرة آية (١٥٥ - ١٥٧) .

(٣) متفق عليه (انظر صحيح البخاري ، كتاب المرض ، ما جاء في كفارة المرض) .

في الوجود مظهر من مظاهر الشر إلا وهو يحمل في طياته الخير والرحمة، ولو رفع هذا الشر الظاهري لبطل ما فيه من الخير والرحمة ولكان الشر أعظم.

والآن ، كيف ننال رحمة الله عزّ وجلّ؟

١- رحمة الناس عامه؛ فالمؤمن الكامل يلقي الناس، وفي قلبه لهم عطف مذكور، وبر مكنون، فيوسع عليهم، ويخفف عنهم جهد ما يستطيع، قال رسول الله ﷺ: «من لا يرحم الناس لا يرحمه الله» (١).

فالمؤمن يرحم الغافلين من عباد الله فيصرفهم عن طريق الغفلة إلى طريق الله (عزّ وجلّ) بالنصح الرقيق اقتداء بنبي الرحمة محمد ﷺ.

فالنظر إلى العصاة ينبغى أن يكون بعين الرحمة لا بعين الإيذاء، فالمؤمن ينبوع من الرحمة يفيض على الآخرين. وإذا جفّ هذا ينبوع صارت الحياة شقاء.

فما أحوجنا حتى ننال رحمة الله عزّ وجلّ أن نقتدى برسول الرحمة محمد ﷺ الذي لازمه هذا الخلق العظيم حتى في أحلك اللحظات وأشدّها. فقليل له بعد انتهاء معركة أحد، وبعد أن شقّ خده، وسقط سنّه، ادع على المشركين، فماذا قال؟ وبأى شيء دعا؟

إنه دعا لهم لا عليهم قائلاً: «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون».

٢- الرحمة الخاصة: وهى التي تخص أقواماً بعينهم نبيه الإسلام إليهم، ونوه الشرع إلى رحمتهم، ومن هؤلاء:

ذوي الأرحام: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الراحمون يرحمهم الله تعالى، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء،

(١) رواه البخاري ومسلم. وقال الترمذي حسن صحيح.

الرحمة شجنة من الرحمن، من وصلها وصله الله، ومن قطعها قطعها الله (١).

وأولى الناس بالرحمة في هذه الطائفة الولدان، ولذلك نجد الحق (سبحانه وتعالى) قد جمع بين الإخلاص له في العبودية والإحسان إلي الوالدين ورحمتهما، قال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ (٢)، ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ (٣)، ﴿وَاحْفَظْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ (٤).

فعقوق الوالدين عنوان على قساوة القلوب، ونضوب الرحمة فيها.

فالمؤمن لا ينبغي أن يوصد قلبه وبيته دون أهله وذوي رحمة، فلا يواسيهم في مرض، ولا يعينهم على نائبة ﷺ لأن هذه القطيعة لها ثمرات مرة فهي تقتل المعيشة وتستنزله الشقاء، وتستوجب اللعن: قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ (٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ (٥).

ومن تجب رحمتهم والرافة بهم الأبناء، عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسن والحسين ابني علي، وعنده الأقرع بن حابس التميمي، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما

(١) رواه الترمذی وأبو داود في كتاب البر والصله باب ما جاء في رحمته المسلمين، وقال :

حديث حسن صحيح،

(٢) سورة النساء آية ٣٦.

(٣) سورة الإسراء آية ٢٣.

(٤) سورة الإسراء آية ٢٤.

(٥) سورة محمد آية (٢٢-٢٣).

قَبِلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا قَط. فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: «من لا يرحم لا يُرحم»، وفي رواية: «أو أملك لك أن نزع الله الرحمة من قلبك» (١).

وإذا كانت الرحمة واجبة في حق البنين فهي في حق البنات أوجب عن أنس (رضي الله عنه) عن النبي ﷺ قال: «من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين» وضم أصابعه (٢).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: دخلت على امرأة ومعها ابنتان لها تسأل، فلم تجد عندي شيئاً غير تمر واحدة، فأعطيتها إياها فقسمتها بين ابنتيها ولم تأكل منها، ثم قامت فخرجت، فدخل النبي ﷺ علينا، فأخبرته فقال: «من ابتلى من هذه البنات بشيء فأحسن إليهن كن له ستراً من النار» (٣).

والرحمة أيضاً بالزوجة واجبة، وقد اهتم الحق (سبحانه وتعالى) بإيراز هذه الرحمة في العلاقة بين الرجل وامرأته.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٤).

وقد اهتم الرسول ﷺ بالنساء كثيراً في وصاياه، فقال: «استوصوا بالنساء خيراً. فإن المرأة خلقت من ضلع إن أعوج ما في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء» (٥).

(١) رواه البخاري ومسلم في فضائل الأنبياء.

(٢) رواه مسلم وأحمد.

(٣) متفق عليه ورواه البخاري ومسلم والترمذي في (البر والصله).

(٤) سورة الروم آية ٢١.

(٥) رواه الشيخان والنسائي في عشرة النساء وابن أبي شيبة.

ومما تجب الرحمة بهم اليتامى: فالرحمة بهم من أذكى القربات، وقد جعلها رسول الله ﷺ دواءً لقساوة القلوب وجفوتها.

عن أبي هريرة أن رجلاً شكى إلى رسول الله ﷺ قسوة في قلبه فقال له: «امسح رأس اليتيم وأطعم المسكين» (١).

وفي رواية: أن رجلاً جاءه يشكو قسوة قلبه فقال له: «أحب أن يلين قلبك وتذكر حاجتك؟ ارحم اليتيم، وامسح رأسه، وأطعمه من طعامك يلين قلبك، وتذكر حاجتك».

ومن تجدر الرحمة بهم المرضى وأصحاب العاهات، ذلك أن الله (عز وجل) ابتلاهم وعذرهم: قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَْعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً﴾ (٢).

فرحمة المرضى وأصحاب العاهات بتخفيف آلامهم، والعمل على راحتهم وخدمتهم من الخصال النبيلة التي ينبغي أن يحرص عليها المسلم لينال رحمة الله عز وجل.

ومن تجب رحمتهم أيضاً الخدم، فينبغي الإحسان إليهم، والتجاوز عن هفواتهم.

عن أبي مسعود البدرى قال: كنت أضرب غلاماً لى بالسوط فسمعت صوتاً من خلفي يقول: اعلم أبا مسعود فلم أفهم الصوت من الغضب فلما دنا منى إذا هو رسول الله ﷺ فإذا هو يقول: «اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام فقلت: يا رسول الله هو حر لوجه الله تعالى».

(١) رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح.

(٢) سورة الفتح آية ١٧.

فقال : لو لم تفعل للفتحك النار^(١).

وجاءه رجل يسأله : كم أعفو عن الخادم؟ قال ﷺ «كل يوم سبعين مرة» فإيذاء الخدم لا يصدر إلا عن جاف غليظ القلب ساء الخلق، جاهل للعواقب وربما سلبه الله خدمه، وجعله خادماً لا مخدوماً، وكم من عبر في هذا الأمر.

قال تعالى : ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾^(٢).

وربما كان الخادم أكرم عند الله من مخدومه، عن ابن عمر (رضي الله عنه) أن رسول الله ﷺ، قال : «إن العبد إذا نصح لسيدته وأحسن عبادة الله، فله أجره مرتين»^(٣).

ومن الرحمة التي ينبغي الحرص عليها الرحمة بالحيونات والرفق بها. والقسوة على هذه المخلوقات ليست من شيم المؤمنين.

عن ابن عمر (رضي الله عنهما) أن رسول الله ﷺ قال : «عذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت، فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها وسقتها إذ حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض»^(٤).

وقد مر ابن عمر (رضي الله عنهما) بفتيان من قريش قد نصبوا طيراً وهم يرمونه، وقد جعلوا لصاحب الطير كل خاطئة من نبلهم فلما رأوا ابن عمر تفرقوا، فقال ابن عمر : من فعل هذا؟ لعن الله من فعل هذا، إن رسول الله ﷺ قال : لعن الله من اتخذ شيئاً فيه الروح غرضاً»^(٥).

(١) رواه مسلم رقم (١٦٥٩).

(٢) سورة آل عمران آية ١٤.

(٣) متفق عليه (البخاري في الفتن ومسلم في الإيمان).

(٤) متفق عليه انظر (مسلم في باب تعذيب الهرة ونحوها) رقم (٢٢٤٢).

(٥) متفق عليه البخاري ٩/٥٥٤، ومسلم برقم (١٩٥٨).

وعن ابن عباس (رضي الله عنهما) أن رسول الله ﷺ : مر عليه حمار قد وسم في وجهه، فقال: «لعن الله من وسمه» (١).

فالرحمة بالحيوان واجبة في الإسلام، ولو كان هذا الحيوان كلباً: قال رسول الله ﷺ: «بينما رجل يمشى في الطريق اشتد عليه العطش فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ثم خرج، وإذا بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل. لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي بلغ مني، فنزل البئر فملأ خفه ماء، ثم أمسكه بفيه حتى رقى فسقى الكلب، فشكر الله تعالى له فغفر له. قالوا: يا رسول الله وإن لنا في البهائم لأجراً قال «في كل كبد رطبة أجر».

وفي رواية : أن امرأة بغيا رأت كلباً في يوم حار يطيف ببئر قد ادلع لسانه من العطش، فنزعت له موقها فغفر لها به» (٢).

فإذا كانت الرحمة بكلب تغفر ذنوب البغايا، فما بالك برحمة البشر عامة ورحمة المؤمنين خاصة؟!

٣. طاعة الله عز وجل، فرحمة الله عز وجل في الآخرة يظفر بها الطائعون المخلصون الذين يطيعون الله ورسوله.

قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٣).

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٤).

﴿إِنْ رَحِمْتَ اللَّهُ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٥).

(١) رواه مسلم برقم (٢١١٧).

(٢) رواه البخاري ومسلم، وابن حبان في صحيحه.

(٣) سورة آل عمران آية ١٣٢.

(٤) سورة النور آية ٥٦.

(٥) سورة الأعراف آية ٥٦.

٤- العزم عند سؤال الله (عز وجل) الرحمة:

ففى الحديث عن أبى هريرة (رضى الله عنه) أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقولن أحدكم اللهم اغفر لى إن شئت، اللهم ارحمنى إن شئت، ليعزم فى المسألة فإنه لا مُستكره له».

وفى رواية فليعزم مسألته إنه يفعل ما يشاء لا مكره له»^(١).

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾^(٢).

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾^(٣).

﴿رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾^(٤).

﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾^(٥).

«اللهم رحمتك أرجو فلا تكلنى إلى نفسى طرفة عين، وأصلح لى شأنى كله، لا إله إلا أنت»^(٦).

«اللهم إنى ظلمت نفسى ظلماً كثيراً، ولا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فاغْفِرْ لى مغفرةً من عندك، وارحمنى إنك الغفور الرحيم»^(٧).

«اللهم إنى أسألك من فضلك ورحمتك، فإنه لا يملكها إلا أنت»^(٨).

(١) رواه البخارى (برقم ٦٣٣٨، ومسلم برقم ٢٦٧٨).

(٢) سورة آل عمران آية ٨. (٣) سورة الحشر آية ١٠.

(٤) سورة المؤمنون آية ١٠٩.

(٥) سورة المؤمنون آية ١١٨.

(٦) البخارى ١٥٤/٧ ومسلم ٢٠٩٢/٤.

(٧) البخارى ٣٠٢/١، ومسلم ٢٠٧٨/٤.

(٨) أخرجه الطبراني، وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير محمد ابن زياد وهو ثقة.

الشافى الطيب

٨٠ ٨١

الشفاء فى اللغة هو البرء من المرض . يقال : شفاء الله يشفيه ، واشتفى افتعل منه ، فنقله من شفاء الأجسام إلى شفاء القلوب والنفوس (١) .

والله سبحانه وتعالى هو الشافى ، وقد ورد هذا الاسم فى الحديث الصحيح عن عائشة (رضى الله عنها) أن النبى ﷺ كان يعوذ بعض أهله يمسح بيده اليمنى ويقول : اللهم رب الناس اذهب البأس واشفه وأنت الشافى لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقماً (٢) .

الطيب : الطَّبُّ فى اللغة الماهر الحاذق بعلمه ، وهو طب بهذا الأمر عالم به والطَّبُّ بالكسر والضم والفتح لغتان : علاج الجسم والنفس والرفق والسحر .

الطيب صاحب علم الطب ، والعالم به ، وكل ماهر حاذق بعلمه طبيب عند العرب .

والله عزّ وجلّ هو الطبيب العالم بجميع أنواع الطبّ ، الخبير بها لأنه سبحانه وتعالى خالق كل شيء عالم بكل شيء خبير بكل شيء .

وقد ورد اسم الطبيب فى الحديث النبوى الصحيح عن أبى رمثه قال : انطلقت مع أبى نحر النبى ﷺ : «قال له أبى : أرنى هذا الذى

(١) صلاح الدين حنفى ، مختصر النهاية فى غريب الحديث لابن الأثير ، ص ٧٨ ، وانظر مختار الصحاح ص ١٤٤ .

(٢) رواه البخارى فى آخر كتاب المرض ، ورواه مسلم ٤ / ١٧٢١ ، وغيرهما .

بظهرك، فإني رجل طيب، قال: الله الطيب، بل أنت رجل رقيق، طيبها الذي خلقها»^(١).

وقد أنزل الله (عزّ وجلّ) القرآن وجعله الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية، والنفسية، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً﴾^(٢)، ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣)، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكْمٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٤).

وما كل أحد يؤهل ولا يوفق للاستشفاء بالقرآن، وإذا أحسن العليل التداوى به وعالج به مرضه بصدق وإيمان. وقبول تام، واعتقاد جازم، واستيفاء لشروطه لم يقاومه الداء أبداً وكيف تقاوم الأدواء كلام رب الأرض والسماء الذي لو نزل على الجبال لصدعها أو على الأرض لقطعها فما من مرض من أمراض القلوب والأبدان إلا وفي القرآن سبيل الدلالة على علاجه، وسببه، والحمية منه لمن رزقه الله فهماً لكتابه. والله (عزّ وجلّ) قد ذكر في القرآن أمراض القلوب والأبدان، وطب القلوب والأبدان..

فمن لم يشفه القرآن فلا شفاه الله ومن لم يكفه فلا كفاه الله^(٥). ونعرض الآن لبعض الأدواء التي تصيب الإنسان وسبل شفائها من

(١) أخرجه أبو داود وأحمد وابن منده، وصححه الألباني في السلسلة برقم ١٥٣٧، وقال: صحيح على شرط مسلم.

(٢) سورة فصلت آية ٤٤.

(٣) سورة الإسراء آية ٨٢.

(٤) سورة يونس آية ٥٧.

(٥) ابن القيم الجوزية، زاد المعاد ج ٤، ص ٣٥٢.

القرآن الكريم والسنة النبوية ، فما أنزل الله (عزّ وجلّ) داءً إلا وأنزل له دواءً.

عن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي ﷺ أنه قال : «ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاءً» (١).

وعن جابر بن عبد الله ، عن النبي ﷺ أنه قال : «لكل داء دواء، فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله عزّ وجلّ» (٢).

وعن أسامه بن شريك ، قال : كنت عند النبي ﷺ وجاءت الأعراب ، فقالوا : يا رسول الله ! أنتداوي؟ فقال : «نعم يا عباد الله تداووا، فإن الله عزّ وجلّ لم يضع داءً إلا وضع شفاءً غير داءٍ واحدٍ، قالوا ما هو؟ قال : «الهرم»» (٣).

والأمراض التي تصيب الإنسان يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام وكلها أنزل الله (عزّ وجلّ) لها شفاء وهذه الأمراض هي :

- ١- الأمراض القلبية .
- ٢- الأمراض البدنية .
- ٣- الأمراض النفسية والروحية .

١- أمراض القلوب ، ومن أبرزها : مرض الشبهة والشك ، قال تعالى : ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ (٤) . وقال تعالى : ﴿وَلَيَقُولَ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في الطب باب ، ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاء . كما أخرجه غيره .

(٢) أخرجه مسلم في السلام ، باب لكل داء دواء واستحباب التداوي ، وهو رقم (٢٢٠٤) .

(٣) أخرجه أحمد وابن ماجه وأبو داود والترمذي في الطب وإسناده صحيح ، وفي الترمذي . هذا حديث حسن صحيح .

(٤) سورة البقرة آية ١٠ .

الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ﴿١﴾ . وقال تعالى في حق من دعى إلى تحكيم القرآن والسنة ، فأبى وأعرض : ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ (٢) .

فهذا مرض الشبهات والشكوك .

وعلاج هذا المرض يكون باليقين ، ويكون ذلك عن طريق سؤال العلماء الراسخين فهم الذين يزيلون هذه الشبهة والشك . وسؤال هؤلاء العلماء ومجالستهم تنقل من الشك إلى اليقين .

والمرض الثاني من أمراض القلوب : مرض الشهوات ، قال تعالى : ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ (٣) . فهذا مرض شهوة .

وعلاج هذا المرض يكون بغض البصر فإن النظرة رائدة الشهوة ورسولها وحفظها أصل حفظ الفرج ، فمن أطلق بصره أورد نفسه موارد الهلاك قال تعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ (٣٠) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ (٤) .

فالنظرة أصل عامة الحوادث التي تصيب الإنسان ، فالنظرة تولد خطره ثم تولد الخطره فكره ، ثم تولد الفكره شهوة ، ثم تولد الشهوة

(١) سورة المدثر آية ٣١ .

(٢) سورة النور آية (٤٨-٥٠) .

(٣) سورة الأحزاب آية ٣٢ .

(٤) سورة النور آية (٣٠-٣١) .

إرادة، ثم تقوى فتصير عزيمة جازمة فيقع الفعل ولا بد ما لم يمنع منه مانع، وفي هذا قيل: «الصبر على غض البصر أيسر من الصبر على ألم ما بعده» (١).

ومما يعين على علاج هذا المرض قضاء الوطر في الحلال. ففي الحديث عن جابر عن النبي ﷺ: «أنه رأى امرأة فأتى زينب فقضى حاجته منها، وقال: إن المرأة تقبل في صورة شيطان وتدبر في صورة شيطان. فإذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته فليأت أهلها، فإن ذلك يرد ما في نفسه» (٢).

أما غير المتزوج فعليه بالصيام، ففي الحديث قال رسول الله ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» (٣).

وعلاج هذا الأمراض من شبهة وشك وشهوة، جاء ذكره في القرآن الكريم قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (٤). فالصبر واليقين خير علاج لهذه الأمراض.

ومن أمراض القلوب أيضاً الغفلة، ويندفع هذا المرض بالتذكر والتفكير ومجالسة الصالحين فإنهم خير من يعين على التذكير.

ومن أمراض القلوب أيضاً الرياء والكبر والضلال والجهل، وهذه الأمراض تندفع بسورة الفاتحة: فإياك نعبد تدفع الرياء، وإياك نستعين تدفع الكبرياء، واهدنا الصراط المستقيم تدفع مرض الضلال والجهل، فإذا اندفعت هذه الأمراض عوفى القلب منها وزفل في أثواب العافية،

(١) ابن القيم الجوزية، الداء والدواء، ص ٢٢٨.

(٢) رواه مسلم في النكاح، باب (٢) ورواه أبو داود والبيهقي والعراقي في التخريج.

(٣) أخرجه البخاري في النكاح باب من لم يستطع الباءة فليصم.

(٤) سورة السجدة آية ٢٤.

وتمت عليه النعمة كان من المنعم عليهم «غير المغضوب عليهم وهم أهل فساد القصد الذين عرفوا الحق وعدلوا عنه «ولا الضالين» وهم أهل فساد العلم، الذين جهلوا الحق ولم يعرفوه (١).

٢- أما أمراض البدن فكثيرة، قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ (٢).

وقواعد طب الأبدان ثلاثة: حفظ الصحة، والحماية عن المؤذي، والتداوى.

وقد اعتنى الإسلام بحفظ الصحة بما يوفره من أسباب الوقاية وما شرع من قواعد النظافة الدائمة، وما رسمه من حياة يسير عليها المسلم. فالمسلم يستيقظ مع الفجر، ويتعد عن السهر ويقتصد في أطعمته.

ففي الحديث قال رسول الله ﷺ: «ما ملأ آدمى وعاء شراً من بطن، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا بد فاعلاً، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه (٣).

يقول ابن القيم «ومراتب الغذاء ثلاثة أحدهما: مرتبة الحاجة، والثانية: مرتبة الكفاية، والثالثة: مرتبة الفضلة. فأخبر النبي (ﷺ) أنه يكفيه لقيمات يقمن صلبه، فلا تسقط قوته، ولا تضعف معها، فإن تجاوزها، فليأكل في ثلث بطنه، ويدع الثلث الآخر للماء، والثلث الثالث للنفس وهذا أنفع للبدن والقلب، فإن البطن إذا امتلأ من الطعام ضاق عن الشراب، فإذا ورد عليه الشراب ضاق عن النفس، وعرض له الكرب والتعب بحمله بمنزلة حامل الحمل الثقيل، هذا إلى ما يلزم

(١) ابن القيم الجوزية، مدارج السالكين، ح ١، ص ٥٤.

(٢) سورة النور آية ٦١.

(٣) أخرجه أحمد ٤/ ١٣٢ والترمذي (١٣٨١) وابن ماجه (٣٣٤٩) وإسناده صحيح.

ذلك من فساد القلب، وكسل الجوارح عن الطاعات، وتحركها في الشهوات التي يستلزمها الشبع، فامتلاً البطن من الطعام مضر للقلب والبدن^(١).

والبعد عن المعاصي يحفظ صحة المسلم، فكثير من الأمراض الخبيثة يكون سببها المعاصي والذنوب مثل أمراض الزنا واللواط وشرب الخمر وأكل لحم الخنزير.

وقد وضع الإسلام قواعد الحجر الصحي للحماية من الأمراض المعدية فإذا ظهر مرض معد في بلد ما، ضرب حوله حصاراً شديداً، فمنع الدخول إليها والخروج منها وذلك حتى ينكمش الداء ويسهل القضاء عليه.

ففي الحديث قال رسول الله ﷺ: «إذا سمعتم بالطاعون ظهر بأرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها»^(٢).

وإذا وقع المرض أمر الإسلام بالتداوي، فقد أمر رسول الله ﷺ، بالتداوي، وأنه لا ينافي التوكل، فإذا كان المرض قدر الله (عز وجل) فالأدوية هي أيضاً من قدر الله (عز وجل) فندفع القدر بالقدر.

وفي التداوي من أمراض البدن قال رسول الله ﷺ: «الشفاء في ثلاث: شربة عسل، وشرطة محجم، وكية نار، وأنا أنهي عن الكي»^(٣).

وفي العسل فوائد كثيرة. وقد ورد في أثر: «عليكم بالشفاءين:

(١) ابن القيم الجوزية، زاد المعاد، ح ٤، ص ١٨.

(٢) رواه البخاري في الطب: باب ما يذكر في الطاعون. ومسلم في السلام: باب الطاعون برقم (٢٢١٩).

(٣) رواه البخاري في الطب، باب الشفاء في ثلاث.

العسل والقرآن^(١).

وفي الحديث الصحيح عن أبي سعيد الخدري، أن رجلاً أتى النبي ﷺ، فقال: «إن أخي يشكي بطنه، وفي رواية استطلق بطنه، فقال: «اسقه عسلاً»، فذهب ثم رجع، فقال: قد سقيته، فلم يغن عنه شيئاً. وفي لفظ: فلم يزد إلا استطلاقاً مرتين أو ثلاثاً، كل ذلك يقول له: «اسقه عسلاً»، فقال له في الثالثة أو الرابعة: صدق الله وكذب بطن أخيك^(٢).

يعلق ابن القيم (رحمه الله) على هذا الحديث فيقول: «وفي تكرار سقيه العسل معنى طلبى بديع، وهو أن الدواء يجب أن يكون له مقدار، وكمية بحسب حال الداء، إن قصر عنه، لم يزل بالكلية، وإن جاوزه، أو هي القوى، فأحدث ضرراً آخر، فلما أمره أن يسقيه العسل سقاه مقداراً لا فيفي بمقاومة الداء، ولا يبلغ الغرض، فلما أخبره، علم أن الذي سقاه لا يبلغ مقدار الحاجة، فلما تكرر ترداده إلى النبي ﷺ أكد عليه المعاودة ليصل إلى المقدار المقام للداء فلما تكررت الشرابات بحسب مادة الداء، برأ بإذن الله واعتبار مقادير الأدوية، وكيفياتها، ومقدار قوة المرض والمريض من أكبر قواعد الطب^(٣).

وقد ثبت أيضاً شفاء أمراض البدن بالفاتحة وغيرها من الرقي. ففي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري، قال: انطلق نفر من أصحاب النبي ﷺ في سفره سافروها حتى نزلوا على حي من أحياء العرب،

(٤) أخرجه ابن ماجه والحاكم عن عبدالله ابن مسعود، وصححه ووافقه الذهبي، ووقفه غير واحد من الثقات على ابن مسعود، وصححه وقفه عليه البيهقي في «دلائل النبوة».

(٢) رواه البخاري في الطب «باب الدواء بالعسل» ومسلم في السلام باب الشداوي بالعسل برقم (٢٢١٧).

(٣) ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، ح ٤، ص ٣٥.

فاستضافوهم، فأبوا أن يضيفوهم، فلدغ سيد ذلك الحي، فسعوا له نزلوا له بكل شيء لا ينفعه شيء فقال بعضهم: لو أتيتهم هؤلاء الرهط الذين نزلوا عليهم أن يكون عند بعضهم شيء. فأتوهم، فقالوا: يا أيها الرهط! إن سيدنا لدغ، وسعينا له بكل شيء لا ينفعه، فهل عند أحد منكم من شيء؟ فقال بعضهم: نعم والله إنني لأرقي، ولكن استضيفناكم فلم تضيفونا، فما أنا براقٍ حتى تجعلوا لنا جعلاً، فصالحوهم على قطيع من الغنم، فانطلق يتفل عليه، ويقرأ: الحمد لله رب العالمين، فكأنما أنشط من عقال، فانطلق يمشي وما به قلبه، قال: فأوفوهم جعلهم الذي صالحوهم عليه، فقال بعضهم: اقتسموا، فقال الذي رقى: لا تفعلوا حتى تأتي رسول الله (ﷺ)، فتذكر له الذي كان، فننظر ما يأمرنا، فقدموا على رسول الله (ﷺ)، فذكروا له ذلك، فقال: «وما يدريك أنها رقية؟» ثم قال: «قد أصبتم، اقسموا واضربوا لي معكم سهماً» (١).

قال ابن القيم: «وبالجملة فما تضمنته الفاتحة من إخلاص العبودية والثناء على الله، وتفويض الأمر كله إليه، والاستعانة به، والتوكل عليه، وسؤاله مجامع النعم كلها، وهى الهداية التى تجلب النعم، وتدفع النقم، من أعظم الأدوية الشافية... وقد قيل: إن موضع الرقية منها «إياك نعبد وإياك نستعين» ولا ريب أن هاتين الكلمتين من أقوى أجزاء هذا الدواء. فإن فيهما عموم التفويض والتوكل، والالتجاء والاستعانة والافتقار والطلب، والجمع بين أعلى

(١) أخرجه البخاري في الطب: باب النفث في الرقية، ومسلم في الإسلام: باب جواز أخذ الأجر على الرقية (٢٢٠١).

الغايات ، وهى عبادة الربّ وحده ، وأشرف الوسائل وهى الاستعانة به على عبادته ما ليس في غيرها ، ولقد مرّ بنى وقت بمكة سقمت فيه ، وفقدت الطبيب والدواء ، فكنت اتعالج بها ، أخذ شربة من ماء زمزم وأقرأها عليها مراراً ، ثم اشربه ، فوجدت بذلك البرء التام ، ثم صرت اعتمد ذلك في كثير من الأوجاع فانتفع به غاية الانتفاع (١) .

وفي الصحيح أنّ عثمان بن أبي العاص شكّا إلى رسول الله (ﷺ) «وجعاً يجده في جسده منذ أسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم ضع يدك على الذى تألم من جسّدك وقل: بسم الله ثلاثاً، وقل سبع مرات: أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر» (٢) .

وقد مرّ أنّ رسول الله (ﷺ) كان يعوّد بعض أهله ، يمسح بيده اليمنى ، ويقول : « اللهم رب الناس ، أذهب البأس واشف أنت الشافى ، لا شفاء إلا شفاؤك ، شفاء لا يغادر سقماً » (٣) .

وعن ابن عباس (رضى الله عنهما) عن النبي (ﷺ) قال : « من عاد مريضاً لم يحضره أجله ، فقال عنده سبع مرات : أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك : إلا عافاه الله من ذلك المرض » (٤) .

٣- أما الأمراض الروحية والنفسية : فمن أبرزها السحر والحسد ، والقلق والهم والكروب .

ومن أنفع علاجات السحر الأدوية الإلهية ، بل هي أدويته النافعة

(١) ابن القيم الجوزية ، زاد المعاد ، ح ٤ ، ص ١٧٨ .

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٠٢) فى السلام : باب استحباب وضع يده على موضع الألم .

(٣) أخرجه البخارى فى الطب : باب النفث فى الرقية ، ومسلم (٢١٩١) فى السلام : باب استحباب رقية المريض .

(٤) رواه أبو داود والترمذى وحسنه ، وقال الحاكم : حديث صحيح على شرط البخارى .

بالذات، فإنه من تأثيرات الأرواح الخبيثة السفلية، ودفع تأثيرها يكون بما يعارضها ويقاومها من الأذكار، والآيات، والدعوات التي تبطل فعلها وتأثيرها، وكلما كانت أقوى وأشد كانت أبلغ في كشف الضر؛ وذلك بمنزلة التقاء جيشين مع كل واحد منهما عدته وسلاحه، فإيهما غلب الآخر قهره، وكان الحكم له، فالقلب إذا كان ممتلئاً من الله مغموراً بذكره، وله من التوجهات والدعوات والأذكار والتعوذات ورد لا يخل به يطابق فيه قلبه لسانه، كان من أعظم الأسباب التي تمنع إصابة السحر له، ومن أعظم العلاجات له بعد ما يصيبه (١).

وهناك رقي شرعية للعلاج من السحر والحسد من أراد معرفتها وليراجعها في مظانها (٢).

أما الأمراض النفسية، فقد وردت أدعيه مخصوصه لعلاج بعضها مثل: علاج الهم والحزن: في الحديث النبوي عن ابن مسعود قال رسول الله ﷺ: « ما أصاب عبداً هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك، ماضٍ في حكمك، عدل في قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري وجلاء حزني، وذهب همي، إلا أذهب الله حزنه وهمه وأبدله مكانه فرحاً » (٣).

وعن أنس (رضي الله عنه) قال: كان النبي ﷺ يقول: « اللهم إني

(١) ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، ج ٤، ص ١٢٧.

(٢) الصارم البتار في التصدي للسحرة والأشراط لوحيد عبد السلام، والعلاج بالرقى من الكتاب والسنة: لسعيد القحطاني، ومؤلفات أخرى كثيرة.

(٣) رواه أحمد ١/ ٣٩١ وصححه الألباني.

أعوذ بك من الهم، والحزن، والعجز، والكسل، والجبن، والبخل، وضلع الدين، وغلبة الرجال» (١).

وعند الكرب : عن ابن عباس (رضي الله عنهما) أن رسول الله (ﷺ) كان يقول عند الكرب : «لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله ربّ العرش العظيم، لا إله إلا الله ربّ السموات وربّ الأرض وربّ العرش الكريم» (٢).

وعن سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله (ﷺ) : «دعوة ذي النون إذا دعا ربه وهو في بطن الحوت : لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجيب له» (٣) وفي رواية أخرى إني لأعلم كلمة لا يقولها مكروب إلا فرج الله عنه : كلمة أخى يونس .

وعن أبي بكرة، أن رسول الله (ﷺ) قال : «دعوات المكروب : اللهم رحمتك أرجو، فلا تكلني إلى نفسي طرفه عين، وأصلح لي شأن كلّه، لا إله إلا أنت» (٤).

وفي القلق والفرع في النوم : عن عمرو بن شعيب عن أمه عن جده أن رسول الله (ﷺ) كان يعلمهم من الفرع : «أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه، وعقابه، وشرّ عباده، ومن همزات الشياطين، وأعوذ بك أن يحضروني» وكان عبد الله بن عمرو يعلمهم من عقل من بنية، ومن

(١) رواه البخاري في الدعوات : باب الاستعاذه من الجبن والكسل .

(٢) رواه البخاري في الدعوات : باب الدعاء عند الكرب .

(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات ، وأحمد ١ / ١٧٠ وصححه الحاكم ووافقه الذهبي ، وانظر صحيح الترمذي ١٦٨ / ٣ .

(٤) أخرجه أبو داود وأحمد والبخاري في الأدب المفرد وسنده حسن وصححه ابن حبان (٢٣٧٠) ، وحسنه الألباني .

لم يعقل كتبه ، فعلقه عليه^(١) .

ويعدد ابن القيم أسباب شرح الصدور فيقول : وشرح الصدور إنما يكون بالتوحيد الخالص . فالتوحيد أعظم أسباب شرح الصدر ، وعلى حسب كماله ، وقوته وزيادته يكون انشراح صدر صاحبه ، قال تعالى : ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾^(٢) فالهدى والتوحيد من أعظم أسباب شرح الصدر ، والشرك والضلال من أعظم أسباب ضيق الصدر وانحرابه .

والعلم النافع يشرح الصدر ويوسعه حتى يكون أوسع من الدنيا ، والجهل يورثه الضيق والحصر والحبس ، فأهل العلم النافع الموروث عن الرسول (ﷺ) أشرح الناس صدوراً ، وأوسعهم قلوباً ، وأحسنهم أخلاقاً ، وأطيبهم عيشاً .

ولا شيء أشرح لصدر العبد من الإنابة إلى الله (سبحانه وتعالى) ومحبته بكل القلب والإقبال عليه والتنعيم بعبادته . وللمحبة تأثير عجيب في انشراح الصدر ، وطيب النفس ، ونعيم القلب ، وللفغلة تأثير عجيب في ضيقه وحبسه وعذابه .

ومنها الإحسان إلى الخلق ونفعهم بما يمكن من المال ، والجاء ، والنفع بالبدن وأنواع الإحسان ، فإن الكريم المحسن أشرح الناس صدوراً وأطيبهم نفساً ، وأنعمهم قلباً . والبخل أضيق الناس صدوراً وأنكدهم عيشاً ، وأعظمهم همماً وغماً .

ومنها الشجاعة ، فإن الشجاع منشرح الصدر ، متسع القلب ،

(١) أخرجه أبو داود في الطب ، والترمذي وأحمد والحاكم ورجالهم وثقات ، وانظر صحيح الترمذي ١٧١ / ٣ .

(٢) سورة الزمر آية ٢٢ .

والجبان : أضيق الناس صدرًا، وأحصرهم قلباً.

ومنها بل ومن أعظمها : إخراج دغل القلب من الصفات المذمومة التي توجب ضيقه وعذابه وتحول بينه وبين حصول البرء .

ومنها ترك فضول النظر، والكلام، والاستماع، والمخالطة، والأكل، والنوم، فإن هذه الفضول تستحيل آلاماً وغموماً، وهموماً في القلب تحصره، وتجسه، وتضيقه، ويتعذب بها، بل غالب عذاب الدنيا والآخرة منها (١).

فهذه جملة مختصرة عن الأمراض التي تصيب الإنسان في قلبه ويدنه ونفسه وبعض الإرشادات إلى شفاائها، فسبحان الشافي الذي ما أنزل داءً إلا وأنزل له دواء . على أنه ينبغي معرفة أن الدعاء من أمضى الأسلحة وأنفعها في دفع الأمراض والبليات، فالدعاء سلاح المؤمن، وهو من أنفع الأدوية وهو عدو البلاء، يدفعه ويعالجه، ويمنع نزوله، ويرفعه، أو يخففه إذا أنزل .

وللدعاء مع البلاء ثلاثة مقامات : (٢)

أحدهما : أن يكون أقوى من البلاء فيدفعه .

الثاني : أن يكون أضعف من البلاء فيقوى عليه البلاء، فيصاب به العبد، ولكن قد يخففه، وإن كان ضعيفاً .

الثالث : أن يتقاوما ويمنع كل واحد منهما صاحبه .

عن ابن عمر (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله (ﷺ) «الدعاء

(١) ابن القيم الجوزية، زاد المعاد، ج ١، ص ٢٣ : ص ٢٧ .

(٢) ابن القيم الجوزية، الداء والدواء، ص ١٦ .

ينفع مما نزل ومما لم ينزل فعليكم عباد الله بالدعاء» (١).

وعن سلمان (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ) «لا يرد القضاء إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر» (٢).

ويفسر ابن القيم كيفية رد الدعاء للبلاء بقوله: والأدعية والتعوذات بمنزلة السلاح، والسلاح بضاربه، لا بحده فقط، فمتى كان السلاح سلاحاً تاماً لا آفة فيه، والساعد ساعد قوياً، والمانع مفقوداً - حصلت النكاية في العدو. ومتى تخلف واحد من هذه الثلاثة تخلف التأثير. فإذا كان الدعاء في نفسه غير صالح، أو الداعي لم يجمع بين قلبه ولسانه في الدعاء، أو كان ثم مانع من الإجابة، لم يحصل الأثر (٣).

وكل ما سبق أسباب جعلها الله (عز وجل) للشفاء فعلى العبد أن يعتمد أولاً على الشافي (ولا شفاء إلا شفاؤك)، وقد كان النبي (ﷺ) يدعو ربه بالشفاء لأنه هو الذي يملك الشفاء والشفاء بيده، ثم يأخذ (ﷺ) في الأسباب التي شرعها الله (عز وجل) للشفاء. فدعاء الشافي (سبحانه وتعالى) والأخذ بالأسباب هما طريق الشفاء بإذن الله تعالى.

قال ابن كثير (رحمه الله) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتَ فَهُوَ يَشْفِي﴾ أي إذا رقعت في مرض فإنه لا يقدر على شفائي أحد غيره بما يقدر من الأسباب الموصلة إليه (٤).

(١) رواه الحاكم وأحمد وحسنه الألباني في صحيح الجامع ٣/ ١٥١ برقم ٣٤٠٢.

(٢) رواه الترمذي والحاكم بنحوه من حديث ثوبان وصححه ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في السلسلة للأحاديث الصحيحة ١/ ٧٦ برقم ١٥٤.

(٣) ابن القيم الجوزية، الداء والدواء، ص ٢٥، وانظر شروط الدعاء وموانع الإجابة في شرح أسماء الولي المولى الناصر القريب المجيب من هذا الكتاب.

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ح ٣، ص ٣٣٨.

فسبحان الشافي الذي يشفي من يشاء، ويطوى علم الشفاء عن الأطباء إذا لم يرد الشفاء.

اللهم اشفني وأنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقماً^(١).

اللهم إني أسألك العفو والعافية^(٢).

اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة^(٣).

اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن امتك ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك عدل في قضايتك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني وذهاب همي^(٤).

اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والبخل والجبن وضلع الدين، وغلبة الرجال^(٥).

اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله لا إله إلا أنت^(٦).

أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق^(٧).

(١) سبق تخريجه في شرح هذا الاسم (الشافي).

(٢) أخرجه الترمذي وحسنه الألباني في صحيح الترمذي ١٨٠/٣ وصحيح ابن ماجه برقم ٣٨٤٩.

(٣) أخرجه الترمذي وصححه الألباني في صحيح الترمذي ١٧٠/٣.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) سبق تخريجه.

(٦) سبق تخريجه.

(٧) رواه مسلم ١٧٢٨/٤.

أعوذ بكلمات الله التامات من غضبه وعقابه وشر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون^(١).

أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق، وبرأ وذراً، ومن شر ما ينزل من السماء، ومن شر ما يعرج فيها، ومن شر ما ذرأ في الأرض، ومن شر ما يخرج منها، ومن شر فتن الليل والنهار، ومن شر كل طارق إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن^(٢).



(١) رواه أبو داود والترمذي، وأنظر صحيح الترمذي ١٧١/٣.

(٢) رواه أحمد ١١٩/٣ بإسناد صحيح، وابن السنن برقم ٦٣٧، وأنظر مجمع الزوائد

الحليم - الحى - الستير

٨٤ ٨٣ ٨٢

الحليم في اللغة اسم الفاعل من حَلِمَ فهو حليم، كما يقال: شرف فهو شريف، وكرم فهو كريم. والله (عزَّ وجلَّ) حليم، عن عباده لأنه يعفو عن كثير من سيئاتهم ويمهلهم بعد المعصية ولا يعالجهم بالعقوبة والانتقام، ويقبل توبتهم بعد ذلك (١).

فالحلم ضبط النفس والطبع عن هيجان الغضب وجمعه أحلام، قال تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ﴾ قيل: معناه عقولهم، وليس الحلم في الحقيقة هو العقل لكن فسروه بذلك لكونه من مسببات العقل (٢).

فالله (عزَّ وجلَّ) حليمٌ عن عباده أى يؤخر العقوبة عن مستحقها، ثم قد يعذبهم أو يتجاوز عنهم ويصفح. فهو (سبحانه وتعالى) يشاهد معصية العصاة، ويرى مخالفتهم لأمره فلا يعجل الانتقام مع غاية الاقتدار.

قال ابن القيم (رحمه الله)

وهو الحليم فلا يعاجل عبده بعقوبة ليتوب من عصيان

فهو سبحانه وتعالى له الحلم الكامل، والعفو الشامل وحلمه تعالى يقتضى إمهال العاصين وعدم معالجتهم ليتوبوا، وحلمه وسع السموات والأرض، فلولا حلمه وعفوه ما ترك على ظهرها من دابة. فهو

(١) الزجاجي، مرجع سابق، ص ٩٦. ويقال حَلِمْتُ عن فلان بضم اللام فأنا حليم ويقال

حَلِمْتُ في النوم بفتح اللام فأنا حالم.

(٢) الراغب الأصفهاني، مرجع سابق، ص ١٢٩.

سبحانه وتعالى حلیم غفور يحب العفو عن عباده، ويحب منهم أن يسعوا بالأسباب التي ينالوا بها عفوه من السعي في مرضاته والإحسان إلى خلقه (١).

فحلّم الله (عز وجل) عن المذنبين عظيم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ (٢)، فهو سبحانه وتعالى صفاح عن الذنوب ستير للعيوب، يسبل ستره على المذنبين، ثم يغفر بعدما يستر.

فهو سبحانه وتعالى يحلم حتى يظن الجاهل أنه ليس يعلم، ويستتر حتى يتوهم صاحب العمى أنه ليس يبصر. يمهّل العاصين ليتوبوا، ولا يمهّلهم إذا أصروا واستمروا ولم ينيبوا.

وقد ورد اسم الحلیم في القرآن الكريم إحدى عشرة مرة، فهو سبحانه غفور حلیم، وحلیم غفور، وهو عليم حلیم، وغنى حلیم، وشكور حلیم.

قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (٣).

﴿قُلْ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذَى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ (٤).

﴿لِيَدْخُلْنَهُمْ مُدْخَلَ رِضْوَانِهِ إِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ (٥).

أما الحيي: فمأخوذ من الحياء، والحياء في حق البشر رؤية اللائع، ورؤية التقصير، فيتولد بينهما حالة تسمى الحياء، وحقيقته خلق يبعث

(١) عبد الرحمن آل سعدى، مرجع سابق، ص ٥٦.

(٢) سورة النحل آية ٦١.

(٣) سورة البقرة آية ٢٣٥.

(٤) سورة البقرة آية ٢٦٣.

(٥) سورة الحج آية ٥٩.

على ترك القبائح ويمنع من التفريط في حق صاحب الحق، أما حياء الرب تعالى فنوع آخر لا تدركه الأفهام ولا تكييفه العقول، فإنه حياء كرم وبر وجود وجلال، فإنه تبارك وتعالى حيى كريم يستحي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفراً، ويستحي أن يعذب ذا شيبة شابت في الإسلام، وكان يحيى بن معاذ يقول: سبحان من يذنب عبده ويستحيى هو» وفي أثر لله من استحي من الله استحي الله منه» (١).

وأما اسم السُّتير: فمأخوذ من الستر وهو تغطية الشيء، والستر والسترة ما يستتر به (٢).

والحيىُّ والسُّتير وردا في حديث رسول الله (ﷺ): «إن الله حيٌّ يستحي من عبده إذا مدَّ يديه أن يردهما صفراً» (٣) ومن قوله (ﷺ): «إن الله عز وجلّ حلیم حيٌّ ستير يحب الحياء والستر فإذا اغتسل أحدكم فليستتر» (٤).

وهذا من رحمته (سبحانه وتعالى) وكرمه، وكماله، وحلمه فالعبد يجاهره بالمعاصي مع فقره الشديد إليه، حتى إنه لا يمكنه أن يعصى إلا أنه يتقوى عليها بنعم ربه. والرب مع كمال غناه عن الخلق كلهم من كرمه يستحي من هتكه وفضيحته وإحلال العقوبة به فيستره بما يفيض له من أسباب السُّر، ويعفو عنه ويغفر له، فهو يتحجب إلى عباده بالنعم وهم يتبغضون إليه بالمعاصي، خيره إليهم بعدد اللحظات نازل وشرهم

(١) ابن القيم، مدارج السالكين، ح ٢، ص (٢٥٩-٢٦١).

(٢) الراغب الأصفهاني، مرجع سابق، ص ٢٢٣.

(٣) أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه ٢/ ٢٣١ وصحيح الترمذي ٣/ ١٧٩.

(٤) أخرجه أبو داود والنسائي والبيهقي وأحمد وصححه الألباني في صحيح النسائي ١٨٧.

إليه صاعد، ولا يزال الملك الكريم يصعد إليه منهم بالمعاصي وكل قبيح، ويستحي تعالى ممن شاب في الإسلام أن يعذبه، وممن يمد يديه إليه أن يردهما صفراً، ويدعو عباده إلى دعائه ويعدهم بالإجابة وهو الحيى السّتير يحب أهل الحياء والستر، ولهذا يكره من عبده إذا فعل معصية أن يذيعها، بل يتوب إليه فيما بينه وبينه ولا يظهرها للناس. . وإن من أمقت الناس إليه من بات عاصياً والله يستره، فيصبح يكشف ستر الله عليه. وهذا كله من معنى اسم الخليم الذي وسع حلمه أهل الكفر والفسوق والعصيان فيمهلهم ليتوبوا ولا يهملهم إذا أصروا ولم ينيبوا (١).

قال ابن القيم (رحمه الله) :

وهو الحيى فليس يفضح عبده عند التجاهر منه بالعصيان
لكنه يلقي عليه ستره فهو السّتر وصاحب الغفران

والكافرون يجحدون آيات الله (عزّ وجلّ) ويكذبون رسله، ويستكبرون عن عبادته واتباع رسله، ويعرضون عن سماع الحق الذي نزل من عند الله (عزّ وجلّ) ومع ذلك يحلم الله (عزّ وجلّ) عليهم. ولا يعاجلهم بعقوبته. بل يرزقهم ويقوتهم حتى يبلغوا أجلاً مسمى وقد ورد في الحديث النبوى لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله تعالى : «إنهم يجعلون له نداءً، ويجعلون له ولداً، وهو مع ذلك يرزقهم ويعافيهم ويعطيهم» (٢).

(١) عبد الرحمن آل سعدى، مرجع سابق، ص (٥٥-٥٦).

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب المنافقين، باب (٩).

ودعوات الأنبياء لأقوامهم تعطينا صورة حيه لحلم الله عز وجل على هؤلاء المعاندين الحاجدين المكذبين للرسل . فنوح عليه السلام ظل يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً وتكون الحصيلة النهائية فما آمن معه إلا قليل ولا يأتى الطوفان إلا بعد هذه السنوات الطوال .

وهود (عليه السلام) يدعو قومه إلى عبادة الله وحده : ﴿وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (١) فيأتي ردهم في وقاحة : « قال المأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين » فيرد عليهم بأدب جم : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢) ويبين لهم دعوته ناصحاً مذكراً . ولكنهم يستعجلون العذاب : ﴿ فَأَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٣) . . ولكن الذي يأتى بما تستعجلون هو الله ربي وربكم : فانظروا إننى معكم من المنتظرين ولكن النصيحة معهم لا تجدى والحلم مع هؤلاء . لا ثمرة من ورائه ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَّعْنَا دَايِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (٤) .

وفرعون جحد آيات الله (عز وجل) ، واستكبر أن يؤمن بعد أن بعث الله عز وجل إليه موسى وهارون (عليهما السلام) وأمرهما أن يقولوا له قولاً لنا قال تعالى : ﴿ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ (٤٣) فقولاً له قولاً لنا لعله يتذكر أو يخشى ﴿ ٥٥ ﴾ وامثلاً الرسولان للأمر فعرضاً عليه الدعوة عرضاً رقيقاً لنا كما يحكى القرآن : ﴿ هَلْ لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ۖ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ

(١) سورة الأعراف آية : ٦٥

(٢) سورة الأعراف الآية ٦٦ ، ٦٧ .

(٣) سورة الأعراف آية ٧٠ .

(٤) سورة الأعراف آية ٧٢ .

(٥) سورة طه آية (٤٣ - ٤٤) .

رَبِّكَ فَتَخَشَّى ﴿١﴾ وتواترت الآيات التي تدل على صحة نبوة موسى (عليه السلام) حتى بلغت تسع آيات إلى فرعون قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاَسْأَلُ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا ۝١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَافِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿٢﴾ ولم يعاجله الله عز وجل بالعقوبة إلا بعد أن بيت الأمر للقضاء على موسى ومن معه وإزالة التهم من الأرض. قال تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾ (٣).

ويظهر أثر حلم الله (عز وجل) جلياً في قصة أصحاب الأخدود (٤) وقد جاءت الإشارة إلى هذه القصة في سورة البروج. قال تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝٤ النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ إِنْ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ۝١٠ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ۝١١ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ (٥).

ومجمل القصة أن فئة من المؤمنين الموحدين - قبل الإسلام - ابتلوا بأعداء لهم طغاة قساة، أرادوهم على ترك عقيدتهم والارتداد عن دينهم، فأبوا وتمنعوا بعقيدتهم. فشق الطغاة لهم شقاً في الأرض.

(١) سورة النازعات آية (١٨ - ١٩).

(٢) سورة الإسراء آية (١٠١ - ١٠٢).

(٣) سورة الإسراء آية ١٠٣.

(٤) جاءت هذه القصة مفصلة في صحيح مسلم حديث رقم ٣٠٠٥.

(٥) سورة البروج آية (٤ - ١٢).

وأوقدوا فيه النار، وكبوا فيه جماعة المؤمنون فماتوا حرقاً على مشهد من الجموع التي حشدها المتسلطون لترى مصرع الفئة المؤمنة بهذه الطريقة البشعة . . . وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد . . . ومع أن هؤلاء العتاة الأشرار المتسلطين فعلوا ما فعلوا من شق الأخدود، وإبقاء النار وإلقاء المؤمنين والمؤمنات فيها، ثم جلسوا يتلذذون بالتعذيب البشع للمؤمنين، ومشاهدة فعل النار في أجسام المؤمنين فإن الله عز وجل فتح لهم بحلمه باب التوبة :

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ...﴾ (١) فإذا لم يندموا على ما فعلوا ويتوبوا من فعلهم البشع الشنيع - فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق . . . ولعل التهديد بعذاب الآخرة يجعلهم يثوبون إلى رشدهم ويتوبون فإن عذاب الحريق ينتظرهم في الآخرة . . . وما أبعد البون والفرق بين الحريقين : حريق الدنيا بنار يوقدها البشر، وحريق الآخرة بنار يوقدها رب البشر، وحريق الدنيا لحظات، وحريق الآخرة آباد وآباد!

فما أعظم حلم الحليم سبحانه وتعالى!

وقد لاقى رسول الله (ﷺ) وأصحابه كثيراً من صنوف الأذى والتعذيب.

عن مجاهد قال: إن أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله (ﷺ)، وأبو بكر، وبلال، وصهيب، وخباب، وعمار، وسمية أم عمار، فأما رسول الله (ﷺ) فمنعه عمه، وأما أبو بكر فمنعه قومه، وأخذ الآخرون فألبسوهم أذراع الحديد ثم صهروهم في الشمس حتى

(١) سورة البروج آية ١٠.

بلغ الجهد منهم ما بلغ فأعطوهم ما سألوا فجاء إلى رجل منهم قومه بأنطاع الأدم فيها الماء وألقوه فيه وحملوا بجوانبه إلا بلالاً فإنه هانت عليه نفسه في الله حتى ملّوه وجعلوا في عنقه حبلاً ثم أمروا صبيانهم أن يشتدوا به بين أخشبن مكة فجعل بلال يقول : أحد أحد . (وقد روى هذا عن ابن مسعود إلا إنه جعل مكان خباب المقداد) (١) .

قال محمد بن إسحق : كان أمية يخرج بلالاً إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتبعد اللات والعزى ، فيقول وهو في ذلك البلاء أحد أحد .

وعن عثمان بن عفان قال : أقبلت أنا ورسول الله (ﷺ) أخذ بيدي نتماشى في البطحاء حتى أتينا على أبي عمار وعمار وأمه وهم يعذبون . فقال ياسر : الدهر هكذا . فقال له النبي (ﷺ) : « اصبر اللهم اغفر لآل ياسر . قال : وقد فعلت » (٢) .

قال خباب بن الارت : شكونا إلى رسول الله (ﷺ) وهو متوسد برداً له في ظل الكعبة فقلنا : يا رسول الله ألا تستنصر الله لنا؟ فجلس محمراً وجهه فقال : والله لقد كان من قبلكم يؤخذ فتجعل المناشير على رأسه فيفرق فرقتين ما يصرفه ذلك عن دينه ، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب ما بين صنعاء وحضرموت لا يخاف إلا الله تبارك وتعالى والذئب على غنمه (٣) .

(١) رواه أحمد ، وانظر صفة الصفوة ح ١ ، ص ٤٣٦ .

(٢) أخرجه الطبراني ، وصححه محمد رواسي قلعة جي في صفة الصفوة .

(٣) أخرجه البخاري في الباب الثاني من كتاب الإكراه .

وعن الشعبي قال : سأل عمر خباباً عما لقى من المشركين ، فقال خباب : يا أمير المؤمنين انظر إلى ظهري . فقال عمر : ما رأيت كالיום ، قال : لقد أوقدت لى نار وسحبت عليها فما أطفأها إلا ودك ظهري^(١) .

والأمثلة كثيرة . . . فما أحلمك يا ربى !

والله (عز وجل) حلیم يحب الحلیم ، حیى يحب كل حی ، ستر يحب من يستر عباده .

وقد ضرب لنا رسول الله (ﷺ) المثل الأعلى في الحلم والصفح : عن أنس بن مالك (رضى الله عنه) ، قال : كنت أمشى مع رسول الله (ﷺ) وعليه برد نجراني غليظ الحاشية ، فادركه أعرابي فجبذه برذائه جبذة شديدة حتى نظرت إلى صفحة عنق رسول الله (ﷺ) قد أثرت بها حاشية البرد من شدة حبذته ثم قال يا محمد مر لى من مال الله الذي عندك فالتفت إليه رسول الله (ﷺ) ثم ضحك . ثم أمر له بعطاء^(٢) .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، قال : لما كان يوم حنين أثر النبي (ﷺ) أناساً في القسمة فأعطى «الأقرع بن حابس» مائة من الإبل وأعطى عيينه مثل ذلك وأعطى أناساً من أشراف العرب وأثرهم يومئذ في القسمة ، فقال رجل : والله إن هذه لقسمة ما عدل فيها أو ما أريد بها وجه الله . فقلت : والله لأخبرن رسول الله (ﷺ) ، فأتيته فأخبرته ، فقال : من يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله ! رحم الله موسى لقد أودى بأكثر من هذا فصبر^(٣) .

(١) انظر : صفة الصفوة لابن الجوزى ، ح ١ ، ٤٢٩ .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب اللباس والأدب باب «التبسم والضحك» .

(٣) أخرجه البخارى فى باب غزوة الطائف باختلاف يسير فى ألفاظ القصة .

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: جاء الطفيل بن عمرو الدوسي إلى النبي (ﷺ)، فقال: إن دوساً قد عصت وأبت فادع الله عليهم، فاستقبل القبلة رسول الله (ﷺ) ورفع يديه فقال: اللهم أهد دوساً وأئت بهم، اللهم أهد دوساً وأئت بهم اللهم أهد دوساً وأئت بهم (١).

ومن قصص الحلم والعفو التي لا مثيل لها، عفو رسول الله (ﷺ) عن زعيم المنافقين عبد الله بن أبي. فقد كان عدواً لدوداً للمسلمين يتربص بهم الدوائر، ويحالف عليهم الشياطين، ويحيك لهم المؤمرات، وهو الذي أشاع قالة السوء عن أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها)، وقد نزلت الآيات تبرئ ساحتها من هذا المقال الخبيث.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٢).

وانتصر الإسلام واكتسح الباطل، وانحصر أعداؤه. ومنهم هذا المنافق. في حدود أنفسهم، وانكمش ابن أبي ثم مرض ومات، وجاء ولده إلى رسول الله (ﷺ) يطلب الصفح عن أبيه فصّح عنه، ثم يطلب منه أن يكفن في قميصه فمنحه إياه، ثم طلب منه أن يصلّي عليه ويستغفر له فلم يرد الرسول (ﷺ) (الرحيم الرقيق الحليم) هذا السؤال، ووقف أمام جثمان الطاعن في عرضه بالأمس يستدر له المغفرة!

(١) أخرجه البخاري ومسلم في الفضائل.

(٢) سورة النور آية ١١.

عن عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) أن عبد الله بن أبي لما توفي جاء ابنه إلى النبي (ﷺ) فقال: أعطني قميصك أكفنه فيه، وصل عليه واستغفر له، فأعطاه قميصه وقال: آذني أصلي عليه فأذنه. فلما أراد أن يصلي جذبه عمر فقال: أليس الله نهاك أن تصلي على المنافقين؟ فقال أنا بين خيرتين، قال: «استغفر لهم أو لا تستغفر لهم: فصللي عليه فترلت هذه الآية ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا﴾» (١).

فقد كان (ﷺ) حليماً متسع الصدر، يفيض من أناته وحلمه على السفهاء وذوى النزق والطيش حتى يلجئهم إلى الخير إلقاءً.

عن عائشة (رضي الله عنها) قالت: ما ضرب رسول الله (ﷺ) خادماً له قط، ولا امرأة له قط، وما ضرب بيده إلا أن يجاهد في سبيل الله وما نيل منه شيء فانتقمه من صاحبه إلا أن تنتهك محارم الله فينتقم الله (عز وجل) وما عرض عليه أمران أحدهما أيسر من الآخر إلا أخذ بأيسرهما، إلا أن يكون مأثماً كان أبعد الناس منه» (٢).

ويعدد ابن القيم (رحمه الله) الأسباب التي تجعل العبد يصبر ويحلم عمن يؤذونه فيقول «وهنا للعبد أحد عشر مشهداً فيما يصيبه من أذى الخلق وجنابتهم عليه:

أحدهما: مشهد «القدر» وهو أن ما جرى عليه كان بمشيئة الله وقضائه وقدره. فيراه كالتأذي بالحر والبرد والمرض والألم. فإن الكل أوجبه مشيئة الله. فما شاء الله كان. ووجب وجوده، وما لم يشأ لم يكن، وامتنع وجوده. وإذا شهد هذا: استراح وعلم أنه كائن لا

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة التوبة.

(٢) أخرجه مسلم في باب قرية من الناس.

محالة، فما للجزع منه وجه .

المشهد الثاني: مشهد «الصبر» فيشهدده ويشهد وجوبه، وحسن عاقبته، وجزاء أهله، وما يترتب عليه من الغبطة والسرور، ويخلصه من ندامة المقابلة والانتقام . فما انتقم أحد لنفسه قط إلا أعقبه ندامة .

المشهد الثالث : مشهد «العفو والصفح والحلم» فإنه متى شهد ذلك وفضله وحلاوته وعزته : لم يعدل عنه إلا لعشنى في بصيرته . فإنه لله ما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً» كما صحَّ ذلك عن النبي (ﷺ) . . . وما انتقم أحد لنفسه إلا ذل . . . وفي الصفح والعفو والحلم : من الحلاوة والطمأنينة والسكينة وشرف النفس، وعزها ورفعته عن تشفيها بالانتقام : ما ليس شيء منه في المقابلة والانتقام .

المشهد الرابع: مشهد «الرضى» وهو فوق مشهد الله العفو والصفح وهذا لا يكون إلا للنفوس المطمئنة، سيما إن كان ما أصيبت به سببه القيام لله . فإذا كان ما أصيبت به في الله، وفي مرضاته ومحبه : رضيت بما نالها في الله، وهذا شأن كل محب صادق، يرضى بما يناله في رضى محبوبه من المكاره . ومتى تسخط به وتشكى منه، كان دليلاً على كذبه في محبه والواقع شاهد بذلك . والمحب الصادق كما قيل : من أجلك جعلت خدي أرضاً للشامت والحسود حتى ترضى .

المشهد الخامس: مشهد «الإحسان» وهو أرفع مما قبله، وهو أن يقابل إساءة المسء إليه بالإحسان . فيحسن إليه كلما أساء هو إليه . ويهون هذا عليه علمه بأن قد ربح منه وقد أهديت إليه حسنات محيت من صحيفة المسء وأثبتت في صحيفة من أساء إليه . فهذا المسء المسكين قد وهبك حسناته فإن كنت من أهل الكرم فأثبه عليها لتثبت الهبة،

وتأمن رجوع الواهب فيها . ويهون ذلك أيضاً علم العبد بأن الجزء من جنس العمل . فإذا عفا عمن أساء إليه وأحسن إليه مع حاجته وضعفه وفقره وذله فإن الله (عز وجل) وهو المحسن القادر العزيز الغني سيفعل به مثلما فعل مع عبده . وسيقابل إساءته بالإحسان إليه .

المشهد السادس: مشهد «السلامة وبرد القلب» وهذا مشهد شريف جداً لمن عرفه ، وذاق حلاوته . وهو أن لا يشغل قلبه وسره بما ناله من الأذى ، وطلب الوصول إلى درك ثأره وشفاء نفسه . بل يفرغ قلبه من ذلك . ويرى أن سلامته وبرده وخلوه منه أنفع له . وألذ وأطيب . وأعون على مصالحه . فإن القلب إذا اشتغل بشيء فاته ما هو أهم عنده ، وخير له منه .

المشهد السابع: مشهد «الأمن» فإنه إذا ترك المقابلة والانتقام : أمن ما هو شر من ذلك . وإذا انتقم واقع الخوف ولا بد . فإن ذلك يزرع العداوة . والعاقل لا يأمن عدوه ، ولو كان حقيراً ، فكم من حقير أردى عدوه الكبير ؟ فإذا غفر ، ولم ينتقم ، ولم يقابل : أمن من تولد العداوة ، أو زيادتها ، ولا بد أن عفوه وحلمه وصفحته يكسر عنه شوكة عدوه بعكس الانتقام . والواقع شاهد بذلك .

المشهد الثامن: مشهد «الجهاد» وهو أن يشهد تولد أذى الناس له من جهاده في سبيل الله ، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر . وإقامة دين الله وإعلاء كلماته وصاحب هذا المقام : قد اشترى الله منه نفسه وماله وعرضه بأعظم الثمن . . . فلا حق له على من آذاه . ولا شيء له قبله إن كان قد رضى بعقد هذا التبائع . فإنه قد وجب أجره على الله .

وهذا ثابت بالنص وإجماع الصحابة (رضى الله عنهم) . ولهذا منع

النبي (ﷺ) المهاجرين من سُكنى مكة - أعزّها الله - ولم يرد على أحد منهم داره ولا ماله الذي أخذه الكفار . ولم يضمنهم دية من قتلوه في سبيل الله .

ولما عزم الصديق (رضي الله عنه) على تضمين أهل الردة ما أتلّفوه من نفوس المسلمين وأموالهم قال له عمر ابن الخطاب (رضي الله عنه) بمشهد من الصحابة (رضي الله عنهم) تلك دماء وأموال ذهبت في الله . وأجورها على الله ، ولا دية لشهيد ، فوافق الصحابة على قول عمر ووافق عليه الصديق .

فمن قام لله حتى أودى في الله : حرّم الله عليه الانتقام ، كما قال لقمان لابنه ﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (١) .

المشهد التاسع: مشهد «النعمة» وذلك من وجوه أحدهما : أن يشهد نعمة الله عليه في أن جعله مظلوماً يترقب النصر . ولم يجعله ظالماً يترقب المقت والأخذ فلو خيّر العقل بين الحالتين - ولا بد من إحداهما - لاختار أن يكون مظلوماً ومنها : أن يشهد نعمة الله في التكفير بذلك من خطاياهم : فأذى الخلق لك كالدواء الكريه من الطبيب المشفق عليك . فلا تنظر إلى مرارة الدواء وكراهته ومن كان على يديه ، وانظر إلى شفقة الطبيب الذي ركه لك ، وبعثه إليك على يدى من نفعلك بمضرته .

ومنها : أن يشهد كون تلك البلية أهون وأسهل من غيرها . فإن ما من محنة إلا وفوقها ما هو أقوى منها وأمرّ . فإن لم يكن قوتها محنة في البدن والمال فلينظر إلى سلامة دينه وإسلامه وتوحيده . وأن كل مصيبة دون مصيبة الدين فهينة . فالمصيبة الحقيقية مصيبة الدين .

ومنها: توفية أجرها وثوابها يوم الفقر والفاقة. وفي بعض الآثار: أنه يتمنى أناس يوم القيامة لو أن جلودهم كانت تقرض بالمقاريض. لما يرون من ثواب أهل البلاء.

هذا وإن العبد ليشتد فرحه يوم القيامة بماله قبل الناس من الحقوق في المال والنفس والعرض. فالعاقل يعد ذلك ذخراً ليوم الفقر والفاقة. ولا يبطله بالانتقام الذي لا يجدى عليه شيئاً.

المشهد العاشر: مشهد «الأسوة» وهو مشهد شريف لطيف جداً. فإن العاقل اللبيب يرضى أن يكون له أسوة برسول الله وأنبيائه وأوليائه، وخاصته من خلقه، فإنهم أشد الخلق امتحاناً بالناس، وأذى الناس إليهم أسرع من السيل في الحدور. ويكفى تدبر قصص الأنبياء عليهم السلام مع أمهم. وشأن نبينا (ﷺ) وأذى أعدائه له، وقد قال له ورقة بن نوفل: لتكذبن، ولتُخرجن، ولتؤذين وقال له «ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا عودى» وهذا مستمر في ورثته كما كان في مورثهم (ﷺ).

المشهد الحادي عشر: مشهد «التوحيد» وهو أجمل المشاهد وأرفعها. فإذا امتلأ قلبه بحبة الله، والإخلاص له ومعاملته، وإيثار مرضاته، والتقرب إليه، وقرة العين به، والإنس به، واطمأن إليه. وسكن إليه، واشتاق إلى لقائه واتخذه ولياً دون سواه بحيث فوض إليه أموره كلها، فإنه لا يبقى في قلبه متسع لشهود أذى الناس له ألبته فضلاً عن أن يشتغل قلبه وفكره وسره بتطلب الانتقام والمقابلة. وهذا لا يكون إلا من قلب ليس فيه ما يغنيه عن ذلك ويعوضه منه. فهو قلب جائع غير شبعان. فإذا رأى أى طعام هفت إليه نوازعه. وانبعثت إليه دواعيه، وأما من امتلأ قلبه بأعلى الأغذية. وأشرفها: فإنه لا يلتفت إلى

مادونها. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. والله ذو الفضل العظيم^(١).

فال حلم والصفح من أفضل الأخلاق وأعظمها، فالخليل إبراهيم (عليه السلام) دعا ربه فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾^(٢) فأجاب الله دعاءه بقوله: ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾^(٣) وهذا يدل على أن الحلم سيد الأخلاق، وشارة الصالحين، وعلامة حب الله عز وجل للعبد، عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: قال رسول الله (ﷺ) لأشج عبد القيس: «إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يَحِبُّهُمَا اللَّهُ: الْحِلْمُ وَالْأَنَاةُ»^(٤).

والحلم والصبر ابتغاء مرضاة الله (عز وجل)، ومقابلة السيئة بالحسنة يرشح صاحبه للمقام العالي والخلود في جنات عدن مع الصالحين من الأهل والأحباب حيث تحتفى وتحتفل بهم الملائكة في مشاهد حافلة باللقاء والسلام والحركة والإكرام:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَدْرَعُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عِشْي الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾^(٥). ومقابلة السيئة بالحسنة تدل على رفعة المقام؛ لأنها استعلاء على رغبة النفس في مقابلة الشر بالشر، ومن ثم فهي تحتاج إلى قلب كبير يعطف ويسامح مع قدرته على الإساءة والرد. قلب يستعلي على دفعات الغيظ والغضب لينال درجة عظيمة عند الله (عز وجل). قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ

(١) ابن القيم الجوزية، مدارج السالكين، ج ٢، ص (٣١٨-٣٢٤) (بتصرف يسير)

(٢) سورة الصفات آية ١٠٠ (٣) سورة الصفات آية ١٠١.

(٤) رواه مسلم في أوائل كتاب الإيمان.

(٥) سورة الرعد آية (٢٢-٢٤).

وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعُ بِلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤)
وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (١).

أما الحياءُ فهو قرينُ الإيمانِ . وهو من أبرز فضائل الإسلام ؛ ففي الحديث عن ابن عمر (رضي الله عنهما) قال : قال رسول الله (ﷺ) : «الحياءُ والإيمانُ قرناءُ جميعاً فإذا رفع أحدهما رفع الآخر» (٢).

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) : أن رسول الله (ﷺ) قال : « الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبةً أفضلها قول لا إله إلا الله وأدناه إمطة الأذنى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان » (٣).

فالحياء أمانة صادقة تكشف عن الإيمان . وهو الذي يعصم صاحبه عن اقتراف الذنوب والآثام . وإذا فقد الإنسان حياءه أصبح وحشاً كاسراً معربداً وراء شهواته ، فهو لا يعرف إلا ما يغويه ويغريه فيتدرج من سوء إلى أسوأ ، ويهبط من رذيلة إلى أرذل ، فالحياء هو القشرة الخضراء التي تقوى العود الغض ، فإذا سقطت هذه القشرة تهيأ الحطام الباقي أن يكون حطباً للنار .

قال الشاعر :

إذا لم تغش عاقبة الليالي	ولم تستح فاصنع ما تشاء
فلا واد ، ما في العيش خير	ولا الدنيا إذا ذهب الحياء
يعيش المرء ما استحيا بخير	ويبقى العود ما بقي اللحاء

(١) سورة فصلت آية (٣٤-٣٥).

(٢) رواه الحاكم ، وقال صحيح على شرط البخاري ومسلم ووافقه الذهبي .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان باب الإيمان ومسلم في كتاب الإيمان باب عدد شعب الإيمان وفضلها .

وقد ضرب رسول الله (ﷺ) المثل الأعلى في الحياء، فقد كان (ﷺ) أرق الناس طبعاً، وأنبأهم سيرة، وأعمقهم شعوراً بالواجب، ونفوراً من الحرام وأشدّهم حياءً:

عن أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) قال: كان رسول الله (ﷺ) أشدّ حياءً من العذراء في خدرها، وكان إذا كره شيئاً عرفناه في وجهه^(١).

والحياء في أسمى منازلها يكون من الله (عزّ وجلّ)، فهو الذي خلقنا وهو الذي يرزقنا، فنطعم من خيرهِ، وتتنفس في جوههِ، ونعيش على أرضهِ، ونستظلّ بسمائه، وآلاؤه تغمرنا من المهد إلى اللحد وإلى ما بعد ذلك من خلود طويل في الجنة إن شاء تعالى. فكيف لا نستحي منه؟ وكيف نقابل كل هذه النعم بالخشية والإساءة فكيف بمن يفيض علينا بالنعم في كل لحظة من لحظات حياتنا؟! والإنسان عندما تقدم له نعمة صغيرة من مثله يخزي أن يقابلها بالإساءة؟! فما بالك إذا كانت حياتنا كلها نعمة من نعمه لله وفي الحديث قال رسول الله (ﷺ): «الله أحق أن يستحيا منه من الناس»^(٢).

وقد قسم ابن القيم - رحمه الله تعالى - الحياء إلى عشرة أوجه:

١ - حياء جنائية: ومنه حياء آدم (عليه السلام) لما فرّ هارباً في الجنة. قال تعالى: أفراراً مني يا آدم؟ قال: لا يارب. بل حياء منك.

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب من لم يواجه الناس بالعتاب، ومسلم في باب كثرة حيائه.

(٢) من معلقات البخاري في كتاب الغسل قال عنه ابن حجر في الفتح حسنه الترمذي، وصححه الحاكم.

٢ - حياء تقصير : كحياء الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، فإذا كان يوم القيامة قالوا : سبحانك ! ما عبدناك حق عبادتك .

٣ - حياء إجلال : وهو حياء المعرفة . وعلى حسب معرفة العبد بربه يكون حياؤه منه .

٤ - حياء كرم : كحياء النبي (ﷺ) من القوم الذين دعاهم إلى وليمة زينب ، وطولوا الجلوس عنده . فقام واستحى أن يقول لهم : انصرفوا .

٥ - حياء حشمة : كحياء علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) أن يسأل رسول الله (ﷺ) عن المذئ لمكان ابنته منه .

٦ - حياء استحقار واستصغار النفس : كحياء العبد من ربه (عز وجل) حين يسأل حوائجه ، احتقاراً لشأن نفسه ، واستصغاراً لها . وفي أثر اسرأيلي « إن موسى (عليه السلام) قال : يارب إنه لتعرض لى الحاجة من الدنيا ، فأستحى أن أسألك هى يارب . . فقال تعالى (سئنى حتى ملح عجيتك . وعلف دابتك) .

وقد يكون لهذا النوع سببان :

أحدهما : استحقار السائل نفسه ، واستعظام ذنوبه وخطاياها .

الثانى : استعظام مسؤوله

٧ - حياء محبة : وهو حياء المحب من محبوبه حتى أنه إذا خطر على قلبه في غيبته هاج الحياء من قلبه ، وأحس به في وجهه ، ولا يدري ما سببه . وكذلك يعرض للمحب عند ملاقاته محبوبه ومفاجأته له روعة شديدة .

٨- حياء عبودية : وهو حياء ممتزج من محبة وخوف ، ومشاهدة عدم صلاح عبوديته لمعبوده ، وأن قدره أعلى وأجل منها . فعبوديته له توجب استحياه منه لا محالة .

٩- حياء شرف وعزة : وهو حياء النفس العظيمة إذا صدر منها ما هو دون قدرها من بذل أو عطاء وإحسان .

١٠- حياء المرء من نفسه : وهو حياء النفوس الشريفة العزيزة الرفيعة من رضاها لنفسها بالنقص ، وقناعتها بالدون ، فيجد نفسه مستحياً من نفسه ، حتى كأن له نفسين ، يستحي بإحدهما من الأخرى . وهذا أكمل ما يكون من الحياء . فإن العبد إذا استحيى من نفسه ، فهو بأن يستحيى من غيره أجدر^(١) .

على أن هناك فرقاً بين الحياء والخجل وإن كان الخجل هو العنصر البارز في الحياء ، فالخجل قد يجبر صاحبه إلى الخير والشر ، وقد يوقعه في ورطات سيئة . أما الحياء فلا يكون إلا في الحدود المشروعة ، فالحياء لا يكون تجاه الباطل . ومن ثم فلا مكان له مع الناس إذا ضلوا وشردوا عن الحق ، ولا موضع له عند مناصرة الحق والدفاع عنه أمام لجج الباطل . ففي سبيل إحقاق الحق لا يتهيب المسلم أحداً ولا يخشى بأساً ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾^(٢) .

فخلق الحياء لا يمنع من قول الحق ومناصرتة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وطلب العلم . فلم يمنع الحياء أم سليم الأنصارية أن تقول يا رسول الله إن الله لا يستحيى من الحق فهل على المرأة غسل إذا

(١) ابن القيم الجوزية ، مدارج السالكين ، ح ٢ ، ص (٢٦١-٢٦٣) .

(٢) سورة الأحزاب آية ٥٣ .

احتلمت؟ فقال لها الرسول (ﷺ): «نعم إذا رأيت الماء»^(١).

فאלله (عزّوجلّ) حلیم، حیى، ستیر، یحب الحیاء والستر... واقتران الحیاء والستر إشارة إلى أنه حیث وجد الحیاء وجد الستر والعفاف، وحیث تحل الجرأة على القبائح، یحل معها التکشف والفضائح. فلا یستر إلا کل مؤمن حیى، ولا یفضح ویكشف إلا کل فاحش بذیء.

ومن حب الله (عزّوجلّ) للستر بشر من یسترون عیوب إخوانهم بالستر علیهم فی الدنیا والآخرة.

عن أبی هريرة (رضی الله عنه) عن النبی (ﷺ) قال: «من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنیا نفس الله عنه كربة من كرب یوم القیامة، ومن یسرّ علی مسلم یسرّ الله علیه فی الدنیا والآخرة، ومن ستر علی مسلم فی الدنیا ستر الله علیه فی الدنیا والآخرة. والله فی عون العبد ما كان العبد فی عون أخیه»^(٢).

وعن عبد الله بن عمرو (رضی الله عنهما): «أن النبی (ﷺ) قال: «المسلم أخو المسلم لا یظلمه ولا یسلمه من كان فی حاجة أخیه كان الله فی حاجته ومن فرج عن مسلم كربة فرّج الله عنه بها كربة من كرب یوم القیامة ومن ستر مسلماً ستره الله یوم القیامة»^(٣).

فستر المعاصی والذنوب یقن المجتمع من شیوع الفواحش،

(١) رواه البخاری، مسلم انظر صحیح البخاری کتاب الغسل، باب إذا احتلمت المراه.

(٢) أخرجه مسلم فی صحیحہ کتاب الذکر والدعاء، باب الاجتماع علی تلاوة القرآن.

(٣) أخرجه أبو داود فی کتاب البر والصلة، باب ما جاء فی شفقه المسلم وقال: حدیث حسن غریب.

والتجاسر عليها . وقد استهجن رسول الله ﷺ سلوك العاصي الفاضح لنفسه ، فقال :

(كل أمتي معافي إلا المجاهرين وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ، ثم يصبح وقد ستره الله ، فيقول : يا فلان ! عملت البارحة كذا وكذا ، وقد بات يستره ربه ، ويصبح يكشف ستر الله عنه) (١) .

ومن أولى الستر ستر المرء لعيوب نفسه ، التي سترها الله عليه فلا يفضح العبد نفسه بل يجعل معصيته بينه وبين ربه ، والله عز وجل يكرمه لقاء تخرجه من هذه المعصية ، واستتاره بها ، واستحياؤه منه بأن يغفر له . ففي الحديث «إن الله يدنى المؤمن ، فيضع عليه كنفه ، ويستتره ، فيقول : أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف كذا؟ فيقول : نعم أي رب ، حتي إذا قرره بذنوبه ، ورأى في نفسه أنه هلك ، قال : سترتها عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم ، فيعطى كتاب حسناته...» (٢) .

إن من كرامة المسلم على الله أنه (سبحانه وتعالى) يتولى حمايته ، والانتقام من المسيء إليه ، ففي الحديث قال رسول الله (ﷺ) : «يا معشر من آمن بلسانه ، ولم يدخل الإيمان قلبه : لا تغتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من يتبع عوراتهم ، يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته ، يفضحه في بيته» (٣) .

ولذلك استنكر عقبه بن عامر (رضي الله عنه) علي كاتب ابنه عندما قال له : إن لنا جيرانا يشربون الخمر وأنا داع الشرط ليأخذوهم قال : «لا

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب .

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب المظالم ، باب (٢) .

(٣) رواه أحمد وهو في صحيح الجامع برقم (٣٠٢١) (صحيح) .

تفعل وعظلم وهددهم قال : إنى نهيتهم فلم ينتهوا وأنا داع الشرط ليأخذوهم . فقال عقبة : ويحك لا تفعل قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من ستر عورة فكأنما استحيا مؤودة في قبرها» (١) .

على أن هناك فرقاً بين الستر والإنكار ، فالستر يكون في معصية قد انقضت أما الإنكار فيكون في معصية متلبس بها ، فيجب الإنكار عليه ، وإلا رفعه إلى الحاكم .

أما الذي يداوم على ارتكاب الحرمات ويجسر على فعل الموبقات ويوطئ الطريق لغيره ليقتردي به ويسير في درب الرزيلة على منواله فلا معنى للستر عليه ، بل يستحب ألا يستتر عليه بل ترفع قضيته إلى ولي الأمر . بشرط أن لا يخشى من ذلك مفسدة .

قال الإمام النووي - رحمه الله - في شرح حديث : «ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة . . » : (وأما الستر المندوب إليه هنا ، فالمراد به الستر على ذوي الهيئات ونحوهم ، ممن ليس هو معروفاً بالأذى والفساد ، فأما المعروف بذلك فيستحب أن لا يستتر عليه ، بل ترفع قضيته إلى ولي الأمر - إن لم يخف من ذلك مفسدة - لأن الستر على هذا يطمعه في الإيذاء والفساد ، وانتهاك الحرمات ، وجسارة غيره على مثل فعله . . وأما جرح الرواة والشهود والأمناء على الصدقات والأوقاف والأيتام ونحوهم ، فيجب جرحهم عند الحاجة ، ولا يحل الستر عليهم ، وإذا رأى منهم ما يقدر في أهليتهم ، وليس ذلك من الغيبة المحرمة ، بل من النصيحة الواجبة) (٢) .

(١) أخرجه أبو داود والنسائي ابن حبان والحاكم وقال صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي .

(٢) أبو زكريا يحيى النووي ، صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب البر والصلة ، باب ١٥ ، من شرح الحديث / ٢٥٨٠ .

لا إله إلا الله العظيمُ الحليمُ، لا إله إلا الله ربُّ العرشِ العظيمِ، لا إله إلا الله ربُّ السمواتِ وربُّ الأرضِ وربُّ العرشِ الكريمِ^(١).

اللهم أكرمنا بالعلم وزينا بالحلم.

اللهم اجعلنا ممن يستحيون منك حق الحياء فيحفظون الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، ويذكرون الموت والبلوى، ويتركون زينة الحياة الدنيا، ويؤثرون الآخرة علي الأولى.

اللهم استرنا بسترِكَ الجميل ولا تفضحنا يومَ العرضِ عليك يا رب العالمين.

اللهم استرنا فوق الأرضِ وارحمنا تحتَ الأرضِ واغفر لنا يومَ العرضِ.

* * *

(١) رواه البخاري ١٥٤/٧، ومسلم ٢٠٩٢/٤.

الحميدُ - الشاكرُ - الشكورُ - الودودُ

٨٨-٨٧ ٨٦-٨٥

الحميدُ مشتق من الحمد والحمد لله تعالى أى الثناء بالفضيلة (١) والحميدُ المستحق للحمد والثناء بفعاله . وفعليل تكون بمعنى فاعل أى أنه سبحانه وتعالى حامد لم يزل في نفسه ، وهو قوله : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢) وبثنائه علي المؤمنين الذين سيوجدون ، وتكون بمعنى مفعول . أى محمود نفسه أزلاً ، وبحمد عباده أبداً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ﴾ (٣) .

فهو وحده سبحانه المستحق للحمد والثناء الذي يحمد على كل حال في السراء والضراء وفي الشدة والرخاء لأن أفعاله كلها فضل وحكمة وعدل وإحسان .

فالحمدُ يتضمن مدح المحمود بصفات كماله ، ونعوت جلاله ، مع محبته والرضا عنه والخضوع له . وكلما كانت صفات كمال المحمود أكثر كان حمده أكمل ، ولهذا كان الحمد كله لله حمداً لا يحصىه سواه ، لكمال صفاته وكثرتها ولأجل هذا لا يحصى أحد من خلقه ثناء عليه ، لما له من صفات الكمال ، ونعوت الجلال التي لا يحصىها سواه .

(١) الراغب الأصفهاني ، مرجع سابق ، ص ١٣١ .

(٢) سورة الفاتحة آية ٢ .

(٣) سورة البقرة آية ٣٠ .

قال ابن القيم (رحمه الله):

وهو الحميدُ فكلُّ حمدٍ واقعٍ أو كان مفروضاً مدي الأزمان
ملاً الوجودَ جميعهً ونظيره من غير ما عدّ ولا حسابان
هو أهله سبحانه وبحمده كلُّ المحامد وصف ذى الإحسان

فالله عز وجلّ (حميدٌ) من وجهين :

أحدهما : أن جميع المخلوقات ناطقةً بحمده ، فكل حمدٍ وقع من أهل السموات والأرض الأولين منهم والآخرين ، وكل حمدٍ يقع منهم في الدنيا والآخرة ، وكل حمدٍ لم يقع منهم بل كان مفروضاً ومقدراً حيثما تسلسلت الأزمان واتصلت الأوقات ، حمداً يملأ الوجود كله العالم العلوي والسفلي ، ويملاً نظير الوجود من غير عدّ ولا إحصاء ، فإن الله تعالى مستحقه من وجوه كثيرة : منها أن الله هو الذي خلقهم ورزقهم وأسدى عليهم النعم الظاهرة والباطنة الدينية والدنيوية ، وصرف عنهم النقم والمكاره ، فما بالعباد من نعمة فمن الله ، ولا يدفع الشرور إلا هو ، فيستحق منهم أن يحمدوه في جميع الأوقات ، وأن يثنوا عليه ويشكروه بعدد اللحظات .

وثانيهما : أنه يحمد على ماله من الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العلا والمدائح والمحامد والنعوت الجليلة الجميلة . فله كل صفة كمال وله من تلك الصفة أكملها وأعظمها . فكل صفة من صفاته يستحق عليها أكمل الحمد والثناء ، فكيف بجميع الأوصاف المقدسة ، فله الحمد لذاته ، وله الحمد لصفاته ، وله الحمد لأفعاله لأنها دائرة بين

(١) عبد الرحمن آل سعدى ، الحق الواضح المبين ، ص ٤٠ .

أفعال الفضل والإحسان، وبين أفعال العدل والحكمة التي يستحق عليها كمال الحمد، وله الحمد على خلقه وعلى شرعه وعلى أحكامه القدرية وأحكامه الشرعية وأحكام الجزاء في الأولي والآخرة، وتفاصيل حمده وما يحمد عليه لا تحيط بها الأفكار ولا تحصيها الأقلام^(١).

قال الشاعر:

كلّ شيء يسبحُ اللهَ حمداً	كي يؤدي فرائض الشكران
نعم ساقها المهيمنُ لنا	س فحمداً للمنعم المنان
أعجزَ الخلقَ عدّها فتعالى	باسطُ الرزقِ دائمُ الإحسان

وقال آخر:

أنت كما تثنى على نفسك يا	الله يا عليّ يا حميدُ
تحركُ الفلكَ إلى غاياتها	وتمسكُ الأرضَ فلا تميدُ
والكائناتُ كلّها تمضي إلى	حيث تشاء فهي لا تحيدُ
شموسها نجومها نظامها	ما بعد هذا كلّهُ مزيدُ
يا خالقِ يا من إليه المشتكى	من ذا يريدُ عند ما تريدُ
أنت كما تثنى على نفسك يا	الله يا عليّ يا حميدُ

وقد ورد اسم (الحميد) في القرآن الكريم سبع عشرة مرة؛ اقترن في عشر منها بالغنى.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ

(١) عبدالرحمن آل سعدي، الحق الواضح المبين، ص ٤٠.

لَغْنِي حَمِيدٌ ﴿١﴾ .

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ ﴿٢﴾ .

﴿وَهُوَ الَّذِي يَنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ ﴿٣﴾ .

﴿وَمَا نَقْمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ ﴿٤﴾ .

أما؛ الشاكرُ الشكورُ فأصلُ مادته (الشكر)، والشكر تصور النعمة وإظهارها، ويضاده الكفر وهو نسيانُ النعمة وسترها، ودابة شكور مظهرة بسمتها إسداء صاحبها إليها، فالشكر على هذا هو الامتلاء من ذكر المنعم عليه. وهو على ثلاثة أضرب: شكر القلب، وهو تصور النعمة، وشكر اللسان، وهو الثناء على المنعم، وشكر سائر الجوارح، وهو مكافأة النعمة بقدر الاستطاعة (اعملوا آل داود شكراً) . . وقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾، فيه تنبيه علي أن توفية شكر الله صعب ولذلك لم يُثن بالشكر على أوليائه إلا على اثنين، قال في إبراهيم (عليه السلام): (شاكرأ لأنعمه)، وقال في نوح ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ ﴿٥﴾ .

فالشكر : مقابلة المنعم على فعله بثناء عليه، وقبول لنعمته، واعتراف بها، ولما كان الله عز وجل يجازي عباده على أفعالهم ويشبههم على أقل القليل منها ولا يضيع لديه تبارك وتعالى لهم عمل عامل كان شاكرأ لذلك لهم أى مقابلاً له بالجزاء والثواب . .

(١) سورة إبراهيم آية ٨ . (٢) سورة فاطر آية ١٥ .
(٣) سورة الشورى آية ٢٨ . (٤) سورة البروج الآية : ٨ .
(٥) الراغب الاصفهاني، مرجع سابق، ص ٢٦٥ .

فأله عز وجل تتضاعف لديه الحسنات، ولا يضيع عنده أجر العاملين . . ومعني شكر العباد لله (عز وجل) اعترافهم بطوله (عز وجل) وإنعامه ومقابلة ذلك بالإقرار والخضوع والطاعة له^(١).

قال ابن القيم (رحمه الله):

وهو الشكور فلن يضيع سعيهم
ما للعباد عليه حق واجب
كلا ولا عمل لديه ضائع
إن عذبوا فبعده أو نعموا
لكن يضاعفه بلا حسابان
هو أوجب الأجر العظيم الشأن
إن كان بالإخلاص والإحسان
فبفضله والحمد للمنان

فهو (سبحانه) (الشكور الشكور) الذي لا يضيع سعي العاملين لوجهه بل يضاعفه أضعافاً مضاعفة، فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، وقد أخبر في كتابه وسنة نبيه بمضاعفة الحسنات الواحدة بعشر إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة، وذلك من شكره لعباده . . ومن فعل لأجله أعطاه فوق المزد، ومن ترك شيئاً لأجله عوضه خيراً منه، وهو الذي وفق المؤمنين لمرضاته ثم شكرهم علي ذلك وأعطاهم من كراماته ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وكل هذا ليس حقاً واجباً عليه، وإنما هو الذي أوجهه علي نفسه جوداً منه وكرماً^(٢).

قال الشاعر:

إنك تشني على عبادك ... يا
والحسنات التي تضاعفها
إن يشكروا فالشكور أنت بما
وجنة الخلد أنت جاعلها
رباه إن أحسنوا وإن عملوا
منك ثناء علي الذي فعلوا
تعطي وفيض العطاء متصل
لن بأعمالهم لها وصلوا

(١) الزجاجي، مرجع سابق، ص ٨٧.

(٢) عبد الرحمن آل سعدي، الحق الواضح المبين، ص (٧٠-٧١).

وقد ورد اسمُ الشاكرِ مرتين في القرآن الكريم ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ (١) . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ (٢) .

أما اسمُ الشكورِ فقد ورد أربع مرات :

قال تعالى : ﴿ لِيُوفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ (٣) .

﴿ وَمَنْ يَّقْتِرِفْ حَسَنَةً نَّزِدَ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ (٤) .

أما اسم (الودود) ففيه قولان أحدهما : أنه «فعول» بمعنى «فاعل» كقولك غفور بمعنى غافر . وشكور بمعنى شاكر فيكون الودود سبحانه هو الذي يود عباده الصالحين ويحبهم والود والمحبة في المعنى سواء .

فالله عز وجلّ ، ودود لأوليائه والصالحين من عباده وهو محبوب لهم ، والقول الآخر أنه «فعول» بمعنى «مفعول» كما يقال : «رجل هيب» أي «مهيب» فتقديره : أنه (عزّ وجلّ) مودود أي يوده عباده ويحبونه وهما وجهان جيدان (٥) .

وقد تأتت الصفة بالفعل (عزّ وجلّ) ولعبده فيقال : «العبد شكور» أي يشكر نعمته ، والله شكور للعبد أي يشكر له عمله أي يجازيه على عمله ، والعبد ثواب إلى الله من ذنبه ، والله ثواب عليه أي يقبل توبته ويعفو عنه (٦) .

وهناك معنى ثالث للودود وهو الذي يودد أحبابه إلى خلقه بما

(١) سورة البقرة آية ١٥٨ .

(٢) سورة النساء آية ١٤٧ . (٣) سورة فاطر آية ٣٠ .

(٤) سورة الشوري آية ٢٣ .

(٥) الزجاجي ، مرجع سابق ، ص ١٥٢ .

(٦) المرجع السابق ، ص ١٥٢ .

يجعله من ود في قلوب الخلق لهم . قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾ (١) .

فالله (عز وجل) ودود أى محب محبوب فهو الواد لأنبيائه وملائكته وعباده المؤمنين ، وهو المحبوب لهم فلا شيء أحب إليهم منه ، وهو الذي يوددهم إلي خلقه بما يجعل لهم من ود وحب في قلوبهم .
قال ابن القيم (رحمه الله) :

وهو الودودُ يحبهم ويحبّه أحبابه والفضلُ للمنان
وهو الذى جعل المحبّه فى قلبه سويهم وجازهم بحب ثان
هذا هو الإحسانُ حقاً لا معاً وضه ولا لتوقع الشكران
لكن يحب شكورهم وشكورهم لا لاحتياج منه للشكران

فالودود هو المحبّ المحبوب بمعنى واد مودود ، فهو الواد لأنبيائه وملائكته وعباده المؤمنين ، وهو المحبوب لهم بل لا شيء أحب إليهم منه ، ولا تعادل محبة الله من أصفياه محبة أخرى ، لا في أصلها ولا في كیفيتها ولا في متعلقاتها ، وهذا هو الفرض والواجب أن تكون محبة الله في قلب العبد سابقة لكل محبة ، غالبية كل محبة وبقيّة المحاب تبعاً لها . ومحبة الله هي روح الأعمال ، وجميع العبودية الظاهرة والباطنة ناشئة عن محبة الله . ومحبة العبد لربه فضل من الله وإحسان ، ليست بحول العبد ولا قوته فهو تعالى الذى أحبّ عبده فجعل المحبة في قلبه ، ثم لما أحبه العبد بتوفيقه جازاه الله بحب آخر ، فهذا هو الإحسان المحض علي الحقيقة ، إذ منه السبب ومنه المسبب ،

ليس المقصود منها المعاوضه وإنما ذلك محبة منه تعالى للشاكرين من عباده ولشكرهم لله فالمصلحة كلها عائدة إلى العبد فتبارك الذي جعل وأودع المحبة في قلوب المؤمنين، ثم لم يزل ينميها ويقويها حتي وصلت في قلوب الأصفياء إلي حالة تتضاءل عندها جميع المحاب . . فمحبة العبد لربه محفوفة بمحبتين من ربه : محبة قبلها صار بها محباً لربه ، ومحبة بعدها شكراً من الله علي محبة صار بها من أصفياه المخلصين^(١).

فالودود من الود ، وهو خالص الحب ، فهو سبحانه (ودود) بمعنى أنه يحب أهل طاعته . ومودته ومحبته سبحانه وتعالى كما يليق بجلاله وليستا كمودة ومحبة المخلوق^(٢).

وقد ورد اسم الودود في القرآن الكريم مرتين :

قال تعالى : ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾^(٣).

قال تعالى : ﴿إِنَّهُ هُوَ يَدْعُو وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ﴾^(٤).

ونعم الله (عز وجل) وآلائه علي عباده لا تعد ولا تحصى فهي أجل وأعظم وأوسع من أن تحيط عقول البشر بأدنى جزء منها ، ولكن قد رضى سبحانه من عباده بالثناء عليه ، وذكر آلائه ونعمائه بقدر الطاقة ، مع أنه لا يحصى ثناء عليه أبداً بل هو كما أثنى علي نفسه فلا يحصى مخلوق ثناء عليه تبارك وتعالى .

(١) عبد الرحمن السعدي ، الحق الواضح المبين ، ص (٦٩-٧٠).

(٢) صالح الفوزان ، شرح العقيدة الواسطية ، ص ٤٥ .

(٣) سورة هود آية ٩٠ .

(٤) سورة البروج آية (١٣-١٤) .

فالدنيا التي نعيش فيها قرية، والمؤمن رئيسها، والكل مشغول به، ساع في مصلحته، والكل قد أقيم في خدمته وحوادثه، فالملائكة الذين هم حملة العرش ومن حوله يستغفرون له، والملائكة، الموكلون به يحفظونه، والموكلون بالقطر والنبات يسعون في رزقه ويعملون فيه، والأفلاك سخرت منقادة دائرة بما فيه مصالحه والشمس والقمر والنجوم مسخرات جاريات بحساب أزمنته وأوقاته وإصلاح رواتب أقواته، والعالم الجوى مسخر له برياحه، وهوائه، وسحابه، وطيّره، وما أودع فيه، والعالم السفلى كله مسخر له، مخلوق لمصالحه أرضه وجباله، وبحاره وأنهاره، وأشجاره وثماره ونباته وحيوانه^(١).

قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)﴾ (٢).

ولو تأملت أيها الإنسان في خلقك وكيف صنعك أحسن الخالقين من ماء مهين، ودبرك بالطف التدبير وأنت جنين في بطن أمك، في موضع لا يد تناله، ولا بصر يدركه، ولا حيلة لك في التماس الغذاء ولا في دفع الضرر، فمن الذي أجرى إليك من دم الأم ما يغذوك، ولم يزك يغذوك في أضيق المواضع وأبعدها عن حيله التكسب والطلب حتى إذا كمل خلقك واستحكم وقوى أديمك على مباشرة الهواء، وبصرك على ملاقة الضياء، وصلبت عظامك على مباشرة الأيدي

(١) ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ص ٣٢٨.

(٢) سورة إبراهيم آية (٣٢-٣٤).

والتقلب على الغبراء . هاج الطلق بأمك فخرجت إلى عالم الابتلاء .
فركضك الرحم ركضة من مكانك كأنه لم يشتمل عليك قط . . فبعد أن
كان مبتهجاً بحملك صار يستغيث من ثقلك .

فمن الذي فتح لك الباب حتي ولجت ، ثم ضمه عليك حتي
حفظت وكملت ، ثم فتح لك ذلك الباب حتي خرجت منه كلمح
البصر . . لم يخنقك ضيقه ، ولم تحبسك صعوبة ! فخرجت فريداً
وحيداً ضعيفاً لا قشرة ولا لباس ، ولا متاع ، ولا مال ، أحوج خلق الله
وأضعفهم وأفقرهم ! فصرف ذلك اللبن الذي كنت تتغذى به في بطن
أمه إلى خزانتي معلقين علي صدرها ، تحمل غذاءك علي صدرها كما
حملتك في بطنها ، ثم ساقه إلي تينك الخزانتي اللطيف سوق علي مجار
وطرق قد تهيأت له ، فلا يزال واقفاً في طرقه ومجاريه حتي يستوفي ما
في الخزانة ، فيجرئ وينساق إليك ، فهو بشر لا تنقطع مادتها ولا تنسد
طرقها ، يسوقها إليك لا يهتدي إليها الطواف ولا يسلكها الرجال ، فمن
رققه لك وصفاه وأطاب طعمه وحسن لونه وأحكم طبخة أعدل
إحكام ؟ لا بالجار المؤذى ولا بالبارد الرديء ، ولا المر ولا المالح ، ولا
الكرية الرائحة ، بل قلبه إلى ضرب آخر من التغذية والمنفعة خلاف ما
كان في البطن ، فواك في أشد أوقات الحاجة إليه علي حين ظمأ شديد
وجوع مفرط ، جمع لك بين الشراب والغذاء . .

فحين تولد قد تلمظت وحركت شفتيك للرضاع فتجد الثدي المعلق
كالإداوة قد تدلي إليك ، وأقبل بدره عليك ، ثم جعل رأسه تلك الحلمة
التي هي بمقدار صغر فمك ، فلا يضيق عنها ، ولا تتعب بالتقامها ثم
نقب لك في رأسها نقباً لطيفاً بحسب احتمالك .

ولم يوسعه فتختق باللبن ، ولم يضيقه فتمص بكلفة ، بل جعله

بقدر اقتضته حكمته ومصلحتك .

فمن عطف عليك قلب الأم ووضع فيه الحنان العجيب والرحمة الباهرة حتي تكون أهناً ما يكون من شأنها وراحتها ومقيلها، فإذا أحست منك بأذننى صوت أو بكاء قامت إليك بغير قائد ولا سائق إلا قائد الرحمة وسائق الحنان فمن الذي وضع ذلك في قلبها؟

حتي إذا قوى بدنك واتسعت أمعاؤك وخشنت عظامك واحتجت إلى غذاء صلب ليشد به عظمك ويقوي به لحمك، وضع في فيك آلة القطع والطحن، فنصب لك أسناناً تقطع بها الطعام وطواحين تطحن بها، فمن الذي حبسها عنك أيام رضاعتك رحمة بأمك ولطفاً بك؟ فلو أنت خرجت من البطن ذا سن وناب وناجد وضررس، كيف يكون حال أمك بك؟ ولو أنك منعتها وقت الحاجة إليها كيف كان حالك بهذه الأطعمة التي لا تسيغها إلا بعد تقطيعها وطحنها؟ ثم إنه اقتضت حكمته أن أخرجك من بطن أمك لا تعلم شيئاً، بل غيباً لا عقل ولا فهم ولا علم، وذلك من رحمته بك، فإنك على ضعفك لا تحتمل العقل والفهم، بل كنت تتمزق وتتصدع . بل جعل ذلك ينتقل فيك بالتدريج شيئاً فشيئاً فلا يصادفك ذلك وهلة واحدة، بل يصادفك يسيراً حتي يتكامل فيك . .

ثم لو ولدت عاقلاً فهِمّاً كحالك في كبرك تنغصت عليك حياتك أعظم تنغيص، وتنكدت أعظم تنكيد، لأنك ترى نفسك محمولاً رضيعاً معصباً بالخرق، مربوطاً بالقمط، مسجوناً في المهد؟ ثم لم يكن يوجد لك من الحلاوة واللطافة والوقع في القلب والرحمة بك ما يوجد للمولود الطفل، بل تكون أنكد الخلق، وأثقلهم، وأعتتهم، وأكثرهم فضولاً، فكان دخولك هذا العالم وأنت غيبى لا تعقل شيئاً ولا تعلم ما

فيه رحمة وحكمة من ربك . .

فمن هذا الذي هو قيم عليك بالمرصاد، يرصدك حتي يوافيك بكل شيء من المنافع والآراب والآلات في وقت الحاجة لا يقدمها عن وقتها ولا يؤخرها عنه (١)؟

هذه غيض من فيض من نعم الله (عز وجل) عليك، وأنت لا تري شيئاً ولا تملك لنفسك نفعاً ولا ضرراً .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾ (٢) .

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٣) .

والإنسان يحمد الله عز وجل أن خلق السموات وسخر ما فيها له .

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ (٤) .

ويحمد الله عز وجل لانفراده بالملك .

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكِبْرُهُ تَكْبِيرًا ﴾ (٥) .

(١) ابن القيم الجوزية، المرجع السابق، ص ٣١٨ : ص ٣٢١ .

(٢) سورة المؤمنون / ١٢ : ١٤ .

(٣) سورة النحل آية ٧٨ .

(٤) سورة الأنعام آية ١ .

(٥) سورة الإسراء آية ١١١ .

ويحمدُ اللهَ عزَّ وجلَّ أن أنزل القرآن الكريم هداية ورحمة :

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۖ (١) قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَا كَثُرَ فِيهِ أَبَدًا﴾ (١).

ويحمدُ اللهَ عزَّ وجلَّ أن سواه ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وأمدّه بكل النعم التي تصلحه وتسعده في الدنيا وهداه إلى ما يسعده في الآخرة في جنات النعيم .

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ (٢).

ويشكرُ الإنسانُ ربَّه على النعم التي أمدّه ويمدّه بها في كل لحظة من لحظات حياته، فهو الذي جعل له السمع والبصر والفؤاد بل ركب له سائر الأعضاء أحسن تركيب وأتمه .

وهو الذي سخر له الليل والنهار والفلك والدواب، وجعل له الماء الذي يشربه عذاباً فراتاً والطعام الذي يأكله طيباً نضيجاً .

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٣).

﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٤).

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ

(١) سورة الكهف آية (٣-١).

(٢) سورة الزمر آية ٧٤.

(٣) سورة النحل آية ٧٨.

(٤) سورة القصص آية ٧٣.

تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حُلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاحِرَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١﴾ .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (٢) .

وشكر العبد لربه يقابل بشكر من الشكور سبحانه وتعالى فهو سبحانه وتعالى يجازي العمل القليل بالثواب العظيم ، فهو يعطى بالعمل في أيام معدودة في الدنيا نعيماً في الآخرة غير محدود .

فنوح (عليه السلام) يصبر على أذى قومه ، ويتفنن في دعوتهم إلى توحيد الله (عز وجل) فيقر الحق عينه ، ويجعل العالم من بعده من ذريته ، ويجعله من أولى العزم الذين هم أفضل الرسل . ويأمر نبيه محمداً ﷺ أن يصبر كصبره ويشتنى عليه بكمال الشكر : «إنه كان عبداً شكوراً» .

وإبراهيم (عليه السلام) بذل نفسه لله لنصرة دينه فاتخذه الله خليلاً ، وأمر رسوله وخليله محمداً أن يتبع ملته ، وجازاه علي تسليمه ولده لأمر الله بأن بارك في نسله وكثره حتى ملأ السهل والجبل ، وجعل النبوة والكتاب في ذريته خاصة وأخرج منهم محمداً ﷺ .

ويوسف (عليه السلام) تحمل ضيق السجن وتوالت عليه المحن محنة وراء أخرى ، ولكنه ظل موصولاً بربه داعياً إلى توحيده .

﴿يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَرَأَيْتَ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (٤) .

(١) سورة فاطر آية ١٢ .

(٢) سورة البقرة آية ١٧٢ .

(٣) سورة يوسف آية ٣٩ .

فمكّن الله عزّ وجلّ في الأرض يتبّوا منها حيث يشاء :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ٥٤ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ٥٥ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ٥٦ وَلَا جُرْ الْآخِرَةَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ٥٧ ﴾ (١).

ومحمد ﷺ احتمل ما لم يحتمله نبي قبله وأذاه الكفار بصنوف الأذى من القول والفعل ، وهو مع ذلك كله صابر علي أمر الله يدعو إلى توحيده فأعطاه الله عزّ وجلّ ما لم يُعطِ نبياً قبله فرفع ذكره ، وقرن اسمه باسمه ، وجعله سيد الناس كلّهم ، وجعله أقرب الخلق إليه وسيلة ، وأعظمهم عنده جاهاً ، وأسمعهم عنده شفاعة . . .

فالله عزّ وجلّ لا يتكرم عليه أحد وهو أكرم الأكرمين وهو الشاكر الشكور فمن ترك لوجهه أمراً أو فعلاً بذل له أضعاف ما تركه من ذلك الأمر ، وجازاه أحسن الجزاء أضعافاً مضاعفة .

﴿ وَلَا جُرْ الْآخِرَةَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ٥٧ ﴾ (٢).

قال نافع : خرجت مع ابن عمر (رضي الله عنهما) في بعض نواحي المدينة ومعه أصحاب له فوضعوا سفرة فمرّ بهم راع فقال له : عبد الله : هلم يا راعي فأصب من هذه السفرة ، فقال : إني صائم . فقال له عبد الله : في مثل هذا اليوم الشديد حره وأنت في هذه الشعاب في آثار هذه الغنم وبين الجبال ترعي هذه الغنم وأنت صائم؟ فقال الراعي : أبادر أيامي الخالية . فعجب ابن عمر وقال : هل

(١) سورة يوسف آية (٥٤-٥٧) .

(٢) سورة يوسف آية ٥٧ .

لك أن تبيعنا شاة من غنمك نجتزرها ونطعمك من لحمها ما تفطر عليه ونعطيك ثمنها؟ قال: إنها ليست لى إنها لمولائى. قال: فما عسيت أن يقول لك مولاك إن قلت أكلها الذئب؟ فمضى الراعى وهو رافع إصبعه إلى السماء وهو يقول فأين الله؟

قال: فلم يزل ابن عمر يقول: قال الراعى: فأين الله فما عدا أن قدم المدينة فبعث إلى سيده فاشترى منه الراعى والغنم فأعتق الراعى ووهب له الغنم (رحمه الله) (١).

فانظر هذا الراعى الذي اتقى الله عز وجل فى «غنم سيده كيف كافأه الشكور (سبحانه وتعالى) فصار حراً وصارت الغنم كلها ملكاً له.

وعن عباية بن رفاعه، عن أم سليم قالت: توفي ابن لى وزوجى غائب فقامت فسجيت فى ناحية من البيت، فقدم زوجى فقامت فتطيت له فوق علفى. ثم أتته بطعام فجعل يأكل فقلت: ألا أعجبك من جيراننا؟ قال: وما لهم؟ قلت: أعيروا عارية فلما طُلبت منهم جزعوا فقال: بش ما صنعوا. فقلت: هذا ابنك. فقال: لا جرم لا تغلبينى على الصبر الليلة.

فلما أصبح غدا على رسول الله (ﷺ) فأخبره، فقال: اللهم بارك لهم فى ليلتهم. فلقد رأيت لهم بعد ذلك فى المسجد سبعة كلهم قد قرأ القرآن (٢).

فهذه المرأة وزوجها تركا الجزع وصبرا اتباعاً لمرضاة الله عز وجل، فعوضهم الشكور وجازاهم بدلاً من الولد سبعة أولاد كلهم قد قرأ

(١) أبو الفرج ابن الجوزي، صفة الصفوة، ح ٢، ص ١٨٨.

(٢) أخرجه مسلم فى فضائل أم سليم.

القرآن . فياله من تعويض ومكافأة وشكر من شكور حميدا

وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى، قال : كان معاذ بن عفراء لا يدع شيئاً إلا تصدق به ، فلما ولد له استشفعت إليه امرأته بأخواله فكلموه وقالوا له : إنك قد أعلت ، فلو جمعت لولدك . قال : أبت نفسي إلا أن أستتر بكل شيء أجده من النار . . . فلما مات ترك أرضاً إلى جنب أرض لرجل . قال عبد الرحمن وعليه مائة صفراء ما تساوى ثلاثة دراهم : ما يسرنى الأرض بملاءتى هذه . فامتنع والى الصبيان عن بيعها . فاحتاج إليها جار الأرض فباعها بثلاثمائة ألف (١) .

فانظر كيف شكر الله عزّ وجلّ له صدقته ، وصنيعه فبارك لأولاده من بعده فباعوا قطعة الأرض بثلاثمائة ألف وهى لا تساوى ثلاثة دراهم .

فالعبد هو الذي ينتفع بالشكر، قال تعالى : ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ (٢) .

فشكر العبد إحسان منه إلى نفسه دنيا وأخرى وليس مكافأة لنعم الربّ . فالرب تعالى لا يستطيع أحد أن يكافئه بنعمه أبداً ، ولا أقلها ولا أدنى نعمة من نعمه ، فإنه تعالى هو المنعم المتفضل ، الخالق للشكر والشاكر ، وما يشكر عليه . فلا يستطيع أحد أن يحصى ثناء عليه . فإنه هو المحسن إلى عبده بنعمه ، وأحسن إليه بأن أوزعه شكرها . فشكره نعمة من الله أنعم بها عليه ، تحتاج إلى شكر آخر وهكذا . . . فمهما شكر العبد فإنه لا يفي شكر نعمة الربّ . والربّ (سبحانه وتعالى)

(١) أبو الفرج بن الجوزى، مرجع سابق، ج ١، ص ٤٧٣ .

(٢) سورة لقمان آية ١٢ .

يعطى مع استغنائه عن العبد، والعبد يشكر مع افتقاره إلى الرب. فهل يكافئ شكر المحتاج الفقير عطاء الغنى الكريم!

قال ابن القيم:

ومن تمام نعمة الله (عز وجل) وعظيم بّره وجوده وكرمه وشكره، محبته للعبد على هذا الشكر، ورضاه منه به. وثناؤه عليه به، ومنفعته وفائده مختصة بالعبد، لا تعود منفعته على الله. وهذا غاية الكرم الذي لا كرم فوقه. ينعم عليك ثم يوزعك شكر النعمة، ويرضى عنك، ثم يعيد عليك منفعة شكر. ويجعله سبباً لتوالى نعمه واتصالها إليك. والزيادة على ذلك منها (١).

والتأمل في القرآن الكريم يجد أن الله سبحانه وتعالى قد استثنى في الإغناء فقال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ﴾ (٢).

واستثنى في الإجابة فقال تعالى: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾ (٣).

واستثنى في الرزق فقال تعالى: ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٤).

واستثنى في المغفرة فقال تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (٥).

واستثنى في التوبة فقال سبحانه: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ (٦).

(١) ابن القيم الجوزية/ مدارج السالكين، ح ٢، ص ٢٥٣.

(٢) سورة التوبة آية ٢٨. (٣) سورة الأنعام آية ٤١.

(٤) سورة البقرة آية ٢١٢. (٥) سورة النساء آية ٤٨.

(٦) سورة التوبة آية ٢٧.

واستثنى في العلم فقال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ (١).

واستثنى في الملك فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكُهُ مَن يَشَاءُ﴾ (٢).

واستثنى في الرحمة فقال تعالى: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ﴾ (٣).

أما الشكر فقطع الله تعالى فيه بتحقيق المزيد من النعمة مع الشكر ولم يستثن في ذلك، فقال سبحانه: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (٤).

والشكر مبنى على خمس قواعد: خضوع الشاكر للمشكور، وحب له، واعترافه بنعمته. وثناؤه عليه بها، وأن لا يستعملها فيما يكره (٥).

والتأمل في القواعد الخمس السابقة يجدها تتعلق باللسان والقلب والجوارح.

فاللسان يشكر وشكره اعتراف وثناء، والقلب يشكر وشكره حب وخضوع للمشكور، والجوارح تشكر وشكرها أن لا تستعمل النعمة فيما يكره المشكور، فلا يكفي أن يشكر اللسان فقط، ولا أن يشكر القلب مع اللسان فقط، وإنما لابد من تضافر هذه الثلاثة. اللسان يعترف ويشنئ، والقلب يخضع ويحب، والجوارح تنقاد وتطيع.

وقد فرق العلماء بين الحمد والشكر: فقالوا إنَّ الشكر أعم من جهة أنواعه وأسبابه فهو يكون باللسان والقلب والجوارح، وأخص من جهة متعلقاته فيكون على أشياء كلها نعم قريبة تتعلق بالعبد كالسمع والبصر والفؤاد، والطعام والشراب... أما الحمد فهو أعم من جهة المتعلقات

(١) سورة البقرة آية ٢٥٥.

(٢) سورة البقرة آية ٢٤٧. (٣) سورة يوسف آية ٥٦.

(٤) سورة إبراهيم آية ٧. (٥) ابن قيم الجوزية، المرجع السابق، ص ٢٤٤.

فهو يتناول النعم السابقة وغيرها من صفات الله عز وجل الذاتية كحياته وسمعه وبصره وعلمه وإحسانه وعدله . كما أنه أخص من جهة أسبابه وأنواعه فهو يقع بالقلب واللسان . فكل ما يتعلق به الشكر يتعلق به الحمد من غير عكس ، وكل ما يقع به الحمد يقع به الشكر من غير عكس (١) .

والعبدُ يحمَدُ اللهَ (عزَّ وجلَّ) في السَّراءِ والضَّراءِ ؛ لأن فعله كلّ حكمة وخير للعبد .

عن أبي موسى الأشعري (رضي الله عنه) ، أن رسول الله (ﷺ) قال : «إذا مات ولدُ العبدِ قال الله تعالى ملائكته: قبضتم ولدَ عبدي؟ فيقولون: نعم، فيقول: قبضتم ثمرةَ فؤاده؟ فيقولون: نعم فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع فيقول الله تعالى: ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة، وسموه بيت الحمد» (٢) .

وعندما يمتحن العبد بنقص في ماله أو أهله أو صحته فعليه أن يحمَد الله (عزَّ وجلَّ) لأن ما أخذ أقل بكثير مما أبقى .

عن هشام بن عروة قال : خرج أبي (عروة بن الزبير) إلى الوليد بن عبد الملك فوقع في رجله الأكلة (داء في العضو يأكل منه) فقال الوليد: يا أبا عبد الله أرى لك قطعها . قال : فقطعت وإنه لصائم فما تضور وجهه . قال : ودخل ابن له أكبر ولده اصطبله ففرسته دابة فقتلته فما سُمع من أبي في ذلك شيء ، حتى قدم المدينة فقال : «اللهم إنه كان

(١) ابن القيم الجوزية ، المرجع السابق ، ص ٢٤٦ (بتصرف) .

(٢) رواه الترمذي وقال : حديث حسن (في الجنايز) باب فضل المصيبة إذا احتسبت .

لِي بنون أربعة فأخذت واحداً وأبقيت لِي ثلاثة فلك الحمد . وكان لِي أطراف أربعة فأخذت واحداً وأبقيت لِي ثلاثة فلك الحمد ، وأيم الله لثن أخذت فلقد أبقيت ولثن ابتليت طالما عافيت» (١) .

وكلمة «الحمد لله» لها فضلٌ عظيمٌ وثوابٌ جليلٌ عند الله (عز وجل) ولذلك كان يحرسُ عليها رسولُ الله (ﷺ) .

عن ابن مسعود (رضي الله عنه) قال : كان نبي الله (ﷺ) إذا أمسى قال : أمسينا وأمسي الملك لله ، والحمد لله ، لا إله إلا الله وحده لا شريك له... وإذا أصبح قال ذلك أيضاً : «أصبحنا وأصبح الملك لله» (٢) .

وعن أنس (رضي الله عنه) ، أن النبي (ﷺ) ، كان إذا أوى إلى فراشه قال : «الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا ، فكم ممن لا كافي له ولا مؤوى» (٣) .

فكلمة الحمد لله كلمةٌ عظيمةٌ جليلة القدر ، كثيرة النفع ، عن محمد بن مسعر ، قال : قال جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب : فقد أبى بغلة له فقال : قال لثن ردها الله (عز وجل) لأحمدته محامد يرضاها . فما لبث أن أتى بها بسرجها ولجامها . فركبها . فلما استوى عليها وضم ثيابه رفع رأسه إلى السماء ، وقال : الحمد لله . لم يزد عليها . ففيل له في ذلك فقال : وهل تركت أو أبقيت شيئاً؟ جعلت الحمد لله عز وجل (٤) .

(١) أبو الفرج بن الجوزي ، صفة الصفوة ، ح ٢ ، ص ٨٦ .

(٢) رواه مسلم (٢٠٨٨/٤) وأبو داود والترمذي والنسائي .

(٣) رواه مسلم (٢٠٨٤/٤) وأحمد وأصحاب السنة الأربعة .

(٤) أبو الفرج بن الجوزي ، مرجع سابق ، ص ١١١ .

والتحميدُ مع التسبيح أحب الكلام إلى الله (عز وجل) ولذلك جاء الأمر من الله عز وجل بذلك . قال تعالى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ (٢) .

وعن أبي ذر (رضي الله عنه) قال : قال لي رسول الله (ﷺ) : ألا أخبرك بأحب الكلام إلى الله «قلت: يا رسول الله أخبرني بأحب الكلام إلى الله تعالى، فقال: «إِنَّ أَحَبَّ الْكَلَامِ إِلَيَّ اللَّهُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ» وفي روايه : إن رسول الله (ﷺ) سئل أي الكلام أفضل وفي روايه : إن رسول الله (ﷺ) سئل أي الكلام أفضل قال : «ما اصطفى الله لملائكته أو لعباده سبحانه الله وبحمده» (٣) .

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) : أن رسول الله (ﷺ) قال : «ومن قال سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة غفرت ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر» (٤) .

وشكر الناس من شكر الله (عز وجل) ، وفي الحديث النبوي الشريف : «لا يشكر الله من لا يشكر الناس» (٥) .

فلا بد من مكافأة المحسن وشكره على صنيعه . قال رسول الله (ﷺ) : «... ومن أتى إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تعلموا أن قد كافأتموه» (٦) ، وحين اقترض رسول الله (ﷺ)

(١) سورة طه آية ١٣٠ . (٢) سورة غافر آية ٥٥ .

(٣) أخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب فضل سبحان الله وبحمده .

(٤) جزء من حديث أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء، باب فضل التهليل والتسبيح .

(٥) رواه أبو داود وصححه الألباني برقم ٤٠٢٦ .

(٦) رواه أحمد وأبو داود والنسائي وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود وصحيح سنن النسائي .

من عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي قبل حنين رد إليه القرض بعد الغزوة وقال له: «بارك الله لك في أهلك ومالك، إنما جزاء السلف الوفاء والحمد» (١).

ومحبة الرب لعبده والعبد لربه ثابتة. قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ فهو سبحانه وتعالى يحب ويود بعض الأشخاص والأعمال والأخلاق، فهو يحب بعض الأشياء دون بعض على ما تقتضيه حكمته البالغة فهو يحب المحسنين ويحب المقسطين ويحب المتقين ويحب المتبعين لرسوله (ﷺ) ويحب المجاهدين في سبيله ويحب التوايين والمطهرين (٢) ومحبة الرب لأوليائه وأنبيائه ورسله صفة زائدة على رحمته، وإحسانه وعظائه. فإن ذلك أثر المحبة وموجبها فإنه لما أحبهم كان نصيبهم من رحمته وإحسانه وبره أتم نصيب (٣).

ومحبة الله عز وجل للعبد تكون باتباع الرسول (ﷺ) قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (٤).

فالاتباع يوجب المحبة والمحبة معاً، ولا يتم الأمر إلا بهما، فليس الشأن في أن تحب الله بل الشأن في أن يحبك الله، ولا يحبك الله إلا إذا اتبعت حبيبه ظاهراً وباطناً، وصدقته خبراً وأطعته أمراً، وأجبتة دعوة وآثرته طوعاً (٥).

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهُ

(١) رواه أحمد والنسائي وابن ماجه وابن السنن وسنده جيد.

(٢) صالح الفوزان، شرح العقيدة الواسطية، ص ٤٥.

(٣) ابن القيم الجوزية، مدارج السالكين ج ٣، ص ١٨.

(٤) سورة آل عمران آية ٣١.

(٥) ابن القيم الجوزية، المرجع السابق، ص ٣٨.

بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ ﴿١﴾ .

فعلامات الحب في الآية السابقة أربع علامات: (٢) .

أحدهما: أنهم (أذلة على المؤمنين) أي رحماء مشفقين عليهم، فهم للمؤمنين كالوالد لوالده، والعبد لسيده .

ثانيها: (أعزة على الكافرين) أي أشداء عليهم كالأسد علي فريسته .

ثالثها: الجهاد في سبيل الله بالنفس واليد، واللسان والمال .

رابعها: أنهم لا تأخذهم في الله لومة لائم . وهذا علامة صحة المحبة فكل محب يأخذه اللوم عن محبوه فليس بمحب على الحقيقة .

ويعدد ابن القيم (رحمه الله) الأسباب الجالبة لمحبة الله (عز وجل) لعبده والموجبة لها: (٣) .

أولها: قراءة القرآن بالتدبر والفهم لمعانيه وما أريد به، كتدبر الكتاب الذي يحفظه العبد ويشرحه، ليتفهم مراد صاحبه منه .

وقد كان السلف يستشعرون هذا المعنى وهم يقرءون القرآن، حتى إنهم كانوا يتلقونه تلقى الغائب لرسالة جاءت علي شوق من الحبيب: قال الحسن بن علي (رضي الله عنه): «إن من كان قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربهم، فكانوا يتدبرونها بالليل، ويتفقدونها في النهار» (٤) .

(١) سورة المائدة آية ٥٤ .

(٢) ابن القيم الجوزية، مدارج السالكين، ج ٣، ص ٢٢ .

(٣) المرجع السابق، ص ١٧، (شرح يسير) .

(٤) النووي، التبيان في آداب جملة القرآن، ص ٢٨ .

وقد استجلب صحابى من أصحاب رسول الله ﷺ محبة الله (عز وجل) بتلاوة سورة واحدة وتدبرها ومحبتها ، وهي سورة الإخلاص التي فيها صفة الرحمن جلّ وعلا فظل يرددّها في صلاته ، فلما سئل عن ذلك قال : « لأنها صفة الرحمن ، وأنا أحب أن أقرأ بها » فقال النبي (ﷺ) : « أخبروه أن الله يحبه » (١) .

الثانى: التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض ، فإنها توصل إلى درجة المحبوبة بعد المحبة .

فمؤدى الفرائض كاملة محب لله ومؤديها وبعدها النوافل محبوب من الله ؛ يدل على ذلك الحديث الذي يرويه رسول الله ﷺ عن ربّ العزة سبحانه وتعالى وفيه « . . . وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلى مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه » (٢) .

الثالث: دوام ذكره على كل حال باللسان والقلب ، والعمل والحال . فنصييه من المحبة على قدر نصييه من هذا الذكر .

فذكر الله عز وجلّ هو شعار المحبين لله ، المحبوبين من الله قال رسول الله : « إن الله عز وجلّ يقول : أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بى شفّاه » (٣) .

(١) أخرجه البخاري (فى التوحيد) ومسلم فى صلاة المسافرين فضل قراءة قل هو الله أحد .

(٢) رزواه البخاري فى صحيحه (٦٥٠٢) .

(٣) رواه أحمد وابن ماجه فى سنته (كتاب الأدب فضل الذكر) وصححه الألباني فى صحيح ابن ماجه .

فالذاكر لله (تعالى) مذكور عند الله بالثناء والمحمدة والمحبة، وموعد بالمغفرة والأجر العظيم. قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ (١).

﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٢).

والذكر أنواع منها: تلاوة القرآن الكريم وهو أفضلها، والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والاستغفار، والصلاة علي النبي (ﷺ)، والأذكار الماثورة المقسمة على اليوم والليلة.

وسئل ابن الصلاح - رحمه الله - عن القدر الذي يصير به العبد من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات، فقال: «إذا واطب علي الأذكار الماثورة المثبتة صباحاً ومساءً، وفي الأوقات والأحوال المختلفة في ليل العبد ونهاره كان من الذاكرين الله تبارك وتعالى كثيراً» (٣).

الرابع: إيثار محابه علي محابك عند غلبات الهوى، والتسنى إلى محابه وإن صعب المرتقى.

وإيثار محاب الله علي محاب غيره تتجلي آثاره في أمور ثلاثة من خلالها يتسنى العبد إلى محاب الله وإن صعب المرتقى، وهي: قهر هوي النفس، ومخالفة هوى الناس، ومجاهدة الشيطان وأوليائه (٤).

والهوى المذموم هو الميل إلى كل باطل ومحرم، وإليه ينصرف (الهوى) عند الإطلاق، وإنما سمي بذلك لأنه يهوى بصاحبه في الدنيا إلى كل داهية وفي الآخرة إلى الهاوية (٥).

(١) سورة البقرة آية ١٥٢. (٢) سورة الأحزاب آية ٣٥.

(٣) فتاوى ومسائل ابن الصلاح، ج ١ ص ١٥٠.

(٤) عبد العزيز مصطفى، شرح الأسباب العشرة الموجبة لمحبة الله، ص ٧٢.

(٥) الراغب الأصفهاني، مرجع سابق، ص ٥٤٨.

قال شيخ الإسلام ابن تيميه - رحمه الله - : «يحتاج المسلم إلى أن يخاف الله ، وينهى النفس عن الهوى . ونفس الهوى والشهوة لا يعاقب عليه ، بل على اتباعه والعمل به ، فإذا كانت النفس تهوى وهو ينهاها ، كان نهيه عبادة ، وعملاً صالحاً . وثبت عن النبي ﷺ أنه قال : (الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ) (١) . فيؤمر بجهادها كما يؤمر بجهاد من يأمر بالمعاصي ويدعو إليها ، وهو إلى جهاد نفسه أحوج ، فإن هذا فرض عين ، وذاك فرض كفاية . والصبر في هذا من أفضل الأعمال فإنَّ الجهاد حقيقة ذلك الجهاد . . » (٢) .

ومخالفة هوى النفس بعدم الانحراف أو الانحراف وراء رغائبهم فيما لا يوافق الحق .

ومدافعة الشيطان ومجاهدة أوليائه ؛ لأن الشيطان وأوليائه لا يدعون المؤمن في طريق الخير والفلاح قال تعالى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (٣) .

فمحببة الله (عز وجل) محققه وواقعه للمجاهدين من أجل رفع كلمته وإعلاء دينه قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٤) .

فالمحبة مستلزمة للجهاد ، لأن المحب يحب ما يحبه محبوبه ،

(١) أخرجه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح (١٦٢١) وأخرجه أحمد (٦/ ٢٠ ، ٢٢) .

(٢) ابن تيميه ، مجموع الفتاوى ، م ١٠ ص (٦٣٥ - ٦٣٦) .

(٣) سورة فاطر آية ٦ .

(٤) سورة المائدة آية ٥٤ .

ويبغض ما يبغضه محبوبه ، ويوالي من يواليه ، ويعادي من يعاديه ، ويرضى لرضاه ويبغضه لغضبه . فالمحوبات لا تنال إلا باحتمال المكروهات .

الخامس : مطالعة القلب لأسمائه وصفاته ، ومشاهدتها ومعرفتها ، وتقلبه في رياض هذه المعرفة . فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله ، أحبه الله لا محالة .

ويكون ذلك بالوقوف عند ما جاء في نصوص الوحي من صفات الله وأسمائه فيثبتها كما جاءت في الكتاب والسنة من غير تحريف لألفاظها ولا تعطيل لمعانيها ولا تشبيه لها بصفات المخلوقين ، وأن يعتمد في إثباتها على الكتاب والسنة فقط لا يتجاوز الكتاب والسنة لأنها توقيفية .

والتحريف هو التغيير وإمالة الشيء عن وجهه وهو يشمل تحريف اللفظ أي العدول به عن جهته كقول المحرفين في قوله تعالى : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (١) أي استولوا فزادوا في الآية حرفاً ، أو قولهم في قوله تعالى : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ (٢) أي أمر ربك فزادوا كلمة . وكقولهم في قوله تعالى : ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ (٣) بنصب لفظ الجلالة فغيروا الحركة الإعرابية من الرفع إلى النصب ، وتحريف المعنى وهو العدول به عن وجهه وحقيقته إعطاء اللفظ معني لفظ آخر كقولهم : إن معنى الرحمة : إرادة الإنعام . وإن معنى الغضب إرادة الانتقام .

والتعطيل : لغة الإخلاء - يقال : عطلة أي إخلاء والمراد هنا نفى الصفات عن الله سبحانه وتعالى .

والتكييف : هو تعيين كيفية الصفة يقال : كيف الشيء إذا جعل له

(١) سورة طه ، آية : ٥ .

(٢) سورة الفجر ، آية : ٢٢ .

(٣) سورة النساء ، آية : ١٦٤ .

كيفية معلومة فتكثيف صفات الله هو تعيين كیفيتها والهيئة التي تكون عليها وهذا لا يمكن للبشر لأنه مما استأثر الله تعالى بعلمه فلا سبيل إلى الوصول إليه ؛ لأن الصفة تابعة للذات ، فكما أن ذات الله لا يمكن للبشر معرفة كیفيتها - فكذلك صفته سبحانه لا تعلم كیفيتها ولهذا لما سئل الإمام مالك (رحمه الله) فقل له : (الرحمن على العرش استوى) كيف استوي ؟ فقال : الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعه .

والتمثيل : هو التشبيه بأن يقال : إن صفات الله مثل صفات المخلوقين كأن يقال له : يد كأيدينا وسمع كسمعنا تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (١) .

ثم ينظر إلى آثار أسماء الله الحسنى وصفاته العلا في الوجود والكون من حوله ففي المخلوقات ما يدل على وجود خالقها وعلى حياته وعلى قدرته وعلى علمه وحكمته ومشئته . ففي عالم الشهادة شهود على أسماء الله وصفاته ، فنفس المخلوق شاهد لاسم (الخالق) والمرزوق شاهد لاسم (الرازق) وتعرض الخلق للرحمة يشهد لاسمه (الرحمن) واسمه (الرحيم) وهكذا ولعل هذه الدراسة خطوة في هذا المنحنى إن شاء الله تعالى .

قال الشاعر :

تأمل سطور الكائنات فإنها	من الملك الأعلى إليك رسائل
وقد خط فيها . لو تأملت خطها	ألا كل شيء ما خلا الله باطل
تشير بإثبات الصفات لربها	فصامتة يهدي ومن هو قائل

(١) سورة الشورى آية ١١ . انظر : صالح الفوزان ، مرجع سابق ، ص (١٣-١٤) .

السادس: مشاهدة برّه وإحسانه، وآلائه ونعمه الباطنة والظاهرة، فإنها داعية إلى محبته.

فمشاهدة نعم الله عزّ وجلّ ومطالعتها والتفكر فيها تجعل العبد أسير إحسان الله (عزّ وجلّ)، فالإنسان يحب بقاءه وكماله ودوام وجوده، فإذا عرف أن وجوده ودوامه وكماله من الله وحده اقتضى ذلك أن يحب الله وحده، ولا يحب غيره، لأنه سبحانه هو المحسن إلى الكلّ كافة بإيجادهم وتكميلهم ومدّهم بالأسباب التي هي من ضروراتهم وترفيهم، إلى غير ذلك من النعم التي لا تحصى.

فنعم الله عزّ وجلّ تتري علي الإنسان في كل لحظة من لحظات حياته، وما الإنسان إلا أثر من آثار إحسانه (سبحانه وتعالى) فكيف لا يحب الإنسان ربه الذي أوجده وأعدّه وأمدّه وهداه وأسعده؟!

السابع: انكسار القلب بكليته بين يديّ الله تعالى، وليس في التعبير عن هذا المعنى غير الأسماء:

فيتذل القلب ويخشع أمام ربه. ثم ينعكس ذلك على الجوارح، ويظهر ذلك جلياً في الصلاة ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿١﴾.

فالخشوع محله القلب، وثمرته علي الجوارح. وهى تظهره. فالأعضاء تابعة للقلب، تصلح بصلاحه وتفسد بفساده، فإذا لم يكن قائماً بعبوديته، فالأعضاء أولى أن لا يعتد بعبوديتها، فإذا فسدت عبوديته - بالغفلة والبسواس - فأنى تصح عبوديته رعيته وجنده ومادتهم

منه ، وعن أمره يصدرون ، وبه يأتمرون؟ (١) .

فتذل القلب وخضوعه وخشوعه بين يدي الرب ، يورث محبة الله (عز وجل) .

الثامن : الخلوة به في وقت النزول الإلهي ، لمناجاته وتلاوة كلامه ، والوقوف بالقلب والتأدب بأدب العبودية بين يديه ، ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة .

وقد أثنى الله عز وجل علي أهل الليل بقوله : ﴿ تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (٢) .

وصلاة الليل هي أفضل نوافل الصلاة ، ففي الحديث قال رسول الله (أفضل الصلاة بعد الفريضة ، صلاة الليل) (٣) .

وعن أبي أمامة الباهلي (رضي الله عنه) عن رسول الله قال : (عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم ، وقربة إلى ربكم ، ومكفرة للسيئات ، ومنهاة عن الإثم) (٤) .

فأصحاب الليل هم بلا شك من أهل المحبة ، بل هم من أشرف أهل المحبة ؛ لأن قيامهم بين يدي الله يجمع لهم جل أسباب المحبة .

عن أبي الدرداء (رضي الله عنه) عن النبي ﷺ : «قال ثلاثة يحبهم الله ويضحك إليهم ويستبشر بهم ، الذي إذا انكشفت فئة قاتل وراءها

(١) ابن القيم الجوزية ، مرجع سابق ، ج ٢ ، ص ٥٢٧ .

(٢) سورة السجدة آية ١٦ .

(٣) جزء من حديث رواه مسلم (١١٦٣) كتاب الصيام ، باب فضل صوم المحرم .

(٤) رواه الترمذي في كتاب الدعوات ، وأخرجه الحاكم وقال : هذا حديث صحيح على شرط البخاري ووافقه الذهبي .

بنفسه لله عزّ وجلّ، فإما أن يقتل، وإما أن بنصره الله ويكفيه، فيقول: انظروا إلى عبدي هذا كيف صبر لي بنفسه. والذي له امرأة حسنة وفراش لين حسن فيقوم من الليل فيقول يذر شهوته ويذكرني ولو شاء رقد. والذي إذا كان في سفره وكان معه ركب فسهروا ثم هجعوا فقام من السحر في ضراء وسراء»^(١).

ثم يختم قيام الليل بالاستغفار والتوبة إلى الله عزّ وجلّ. والاستغفار في هذا الوقت مشهود لأنه عقب طاعة من الطاعات وهي صلاة الليل وما أعظمها من طاعة. قال رسول الله ﷺ: (يتنزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له)^(٢).

التاسع: مجالسة المحبين الصادقين، والتقاط أطياب ثمرات كلامهم كما ينتقى أطياب الثمر، ولا تتكلم إلا إذا ترجمت مصلحة الكلام وعلمت أن فيه مزيداً لحالك ومنفعة لغيرك.

فمحببة المحبين الصادقين ومجالستهم من موجبات محبة الله، ولا عجب فإن البشري بذلك قد زفت إليهم. قال رسول الله ﷺ: قال الله (عزّ وجلّ): ووجبت محبتي للمتحابين فيّ، ووجبت محبتي للمتجالسين فيّ، ووجبت محبتي للمتزاورين فيّ)^(٣).

وروي أبو هريرة (رضي الله عنه) عن رسول الله ﷺ: (أن رجلاً زار أخاه في قرية أخرى. فأرصد الله تعالى علي مدرجته ملكاً، فلما أتى عليه

(١) رواه الطبراني بإسناد حسن، وقال عنه الهيثمي في المجمع ٢/ ٢٥٥ رجاله ثقات.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٧٤٩٤)، ومسلم (١٦٨).

(٣) أخرجه أحمد في سننه، ومالك في الموطأ، وصححه الألباني: مشكاة المصابيح (٥٠١١).

قال: أين تريد؟ قال: أريد أخالي. قال هل لك من نعمة تربها عليه؟ قال: لا، غير أنني أحبته في الله تعالى. قال: إني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحبته فيه^(١).

وعن أنس (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ: «ما تحاب رجلان في الله إلا كان أحبهما إلى الله (عز وجل) أشدهما حباً لصاحبه»^(٢).

ومن أسباب محبة الله عز وجل أيضاً الصمت، ففي الحديث: «من صمت نجاً»^(٣).

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه): أن رسول الله ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»^(٤).

العاشر: مبادعة كل سبب يحول بين القلب وبين الله (عز وجل): فلا بد أن يظل القلب سليماً معافى. فلا يتعلق بغير الله (عز وجل) فلا يوالي إلا من والاه الله، ولا يعادئ إلا من عاداه الله، ولا يخاف إلا من الله، ولا يرجو إلا الله. ويحذر الأبواب والأسباب التي تحول بين القلب وبين الله (عز وجل) وهي:

* باب شبهة أورثت شكاً في دين الله.

* باب شهوة أورثت تقديم الهوى على طاعته ورضاه.

-
- (١) أخرجه مسلم في صحيحه ٤/ ١٩٨٨ كتاب البر والصلة، باب في فضل الحب في الله.
 (٢) رواه الطبراني وأبو يعلى وابن حبان والحاكم وقال: صحيح الاستاذ، ووافقه الذهبي.
 (٣) أخرجه الترمذي وأحمد والدارمي، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم (٥٣٦).
 (٤) رواه البخاري في صحيحه ١١/ ٣٠٨ كتاب الرقائق باب حفظ اللسان.

* باب غضب يورث العدوان علي خلق الله (١).

فمن هذه الأبواب الثلاثة، تلج كل الذنوب والمعاصي المفسده للقلوب، وهي ترجع في أصولها إلى ثلاثة :

* تعلق القلب بغير الله، وغايته الشرك ودعاء غير الله .

* طاعة النفس في الغضب، وغايته القتل .

* طاعة النفس في الشهوة، وغايته الزنا .

وقد جمع الله سبحانه تلك الثلاثة في سلك واحد ، ونزه عباده أصحاب القلوب السليمة عنها، فقال في صفة عباد الرحمن : ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ (٢).

وقد كان الصحابة -رضوان الله عليهم- يتحاشون هذه المفسدات من الذنوب ويسألون عن كبارها وأصولها؛ ليجعلوا بينهم وبينها حاجزاً من التقوي . عن ابن مسعود (رضي الله عنه) قال : سألت رسول الله ﷺ : أي الذنب أعظم؟ فقال : « أن تجعل لله نداً وقد خلقك . قلت : إن ذلك لعظيم، قلت : ثم أي؟ قال : وأن تقتل ولدك تخاف أن يطعم معك . قلت : ثم أي قال : أن تزاني حيلة جارك» (٣).

فالقلب السليم هو القلب الخالي من الأمراض والعلل والآفات، ومن ثم فصاحبه محب محبوب .

(١) ابن القيم الجوزية، الفوائد، ص ٥٨ .

(٢) سورة الفرقان آية ٦٨ .

(٣) رواه البخاري (٤٤٧٧)، ورواه مسلم (١٤٢-١٤١).

﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (١).

«رب أعني ولا تعن عليّ، وانصرني ولا تنصر عليّ. وامكر لي ولا تمكر عليّ، واهدني ويسر الهدى لي، وانصرني علي من بغى عليّ. رب اجعلني لك شكَارًا، لك ذَكَارًا، لك رهَابًا، لك مطَوَاعًا، إليك مخبتاً أواهاً منيباً، رب تقبل توبتي، واغسل حوبتي، وأجب دعوتي، وثبت حجتي، واهد قلبي. وسدد لساني، واسلل سخيمة قلبي» (٢).

«اللهم ارزقني حبك، وحب من ينفعني حبه عندك، اللهم ما رزقتني مما أحب فاجعله قوة لي فيما تحب، اللهم ما رزيت عني مما أحب فاجعله فراغاً لي فيما تحب» (٣).

«اللهم إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين وأن تغفر لي، وترحمني، وإذا أردت فتنة قوم فتوفني غير مفتون. ، وأسألك حبك، وحب من يحبك، وحب عمل يقرني إلى حبك» (٤).

* * *

(١) سورة الأحقاف آية ١٥.

(٢) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه والحاكم وصححه ووافقه الذهبي وصححه الألباني في صحيح الترمذي ١٧٨/٣.

(٣) أخرجه الترمذي وحسنه، وقال الشيخ عبد القادر الأرناؤوطي وهو كما قال.

(٤) أخرجه أحمد ٣٧٩/٥ وحسنه.

الوليُّ المتوليُّ النصيرُ

٨٩ ٩٠ ٩١

القريبُ المجيبُ

٩٢ ٩٣

قال الزجاجي : الوليُّ في كلام العرب علي ضروب عشرة مخرجها كلها من قولهم : « هذا الشيء يلي هذا الشيء » وأوليت الشيء الشيء : إذ جعلته يليه لا حاجز بينهما . . تقول العرب « فلان ولي فلان » أي هو متولي أمره والقيام بشؤونه كأنه يلي إصلاح أمره بنفسه لا يكله إلى غيره . . وفلان ولي فلان أي ناصره كأنه يوليه نصره فلا يحول بينه وبينه . . وفلان ولي فلان أي يوليه وده وموالاته ، ويشي عليه بالجميل ، ولا يتبرأ منه في حال (١) .

فأله (عز وجل) وليُّ المؤمنين أي ناصرهم ومصلح شؤونهم والمثني عليهم ، كما قال الله عز وجل ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ (٢) . فهو سبحانه وتعالى ولي المؤمنين أي يتولي أمرهم ، ويتكفل بحاجاتهم ، يتولاهم بعنايته ، ويحفظهم برعايته ، ويختصهم برحمته .

وولاية الله (عز وجل) ليست كغيرها ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (٣) .

(١) الزجاجي ، مرجع سابق ، ص ١١٣ .

(٢) سورة البقرة ، آية : ٢٥٧ . (٣) سورة الشورى آية ١١ .

فهو سبحانه الولي الذي تولى أمور العالم والخلائق، وهو مالك التدبير، وهو الولي الذي صرف خلقه ما ينفعهم في دينهم ودنياهم وأخراهم.

وإذا كان الله (عز وجل) قد أنعم على الكافرين كما أنعم على المؤمنين أفيجوز أن تقول : الله ولي الكافرين؟

يجيب عن هذا السؤال الزجاجي بقوله : إن الله (عز وجل) لما أنعم على المؤمنين قابلوها إنعامه بالشكر والإقرار والطاعة والتوحيد فجاز أن يقال الله ولي الذين آمنوا بإنعامه عليهم وقبولهم وشكرهم، أما الكافرون فقد أنعم عليهم فقابلوها إنعامه بجهودهم وكفرهم وعدم إقرارهم فلذا لا يقال هو مولاهم . . كما أن الولي من معانيه النصره والثناء ولذا فلا يقال : الله ولي الكافرين حتى لا يسبق إلى ذهن السامع أنه ينصرهم ويثنى عليهم . . فللكافرين أولياء غير الله وهي طواغيتهم وأصنامهم ومعبوداتهم^(١).

قال تعالى : ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾^(٢).

أما المولي في كلام العرب فعلى وجوه : المولي : الناصر، والمنعم، والمنعم عليه . . والمولى : الحليف، والولي والوارث، والمالك، والسيد، والمعتق، والمحِب^(٣) . . والله (عز وجل) هو المولي، والرب، والمالك، والسيد، وهو المأمول منه النصر والمعونة، لأنه هو المالك لكل

(١) الزجاجي، المرجع السابق، ص ١١٤ بتصرف.

(٢) سورة البقرة آية ٢٥٧.

(٣) الزجاجي، المرجع السابق، ص ١٤٥.

شئاً، وهو الذي سمى نفسه (عزّ وجلّ) بهذا الاسم فقال (سبحانه): ﴿فَأَقِمْوَا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ (١).

فالله عزّ وجلّ هو مولى الذين آمنوا وهو سيدهم وناصرهم على أعدائهم، وهو الذي يتولاهم بإيصال مصالحهم، وتيسير منافعهم. فهو نعم المولى لمن تولاه في تدبير شئونه، وتحصيل مطلوبه. ولذلك فمن دعاء المؤمنين: ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (٢).

وقد أرشد رسول الله ﷺ الصحابة حينما قال لهم أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم فقال: «قولوا الله مولانا ولا مولى لكم».

قالولى والمولى يستعملان في القرب والنصر والمعونة والودّ والثناء والحبّ، وتولى الأمر. ويستعملان في معنى الفاعل، أي الموالى، وفي معنى المفعول أي الموالى، ولذلك يقال للمؤمن: هو ولىّ الله (عزّ وجلّ)، والله ولىّ المؤمنين ومولاهم. ولا يقال المؤمن: مولى الله.

والنصير: فعيل بمعنى فاعل أو مفعول لأن كل واحد من المتناصرين ناصر ومنصور وقد نصره سينصره نصراً إذا أعانه على عدوه وشدّ منه (٣).

قال الراغب الأصفهاني: «النصر والنصرة العون... ونصرة الله العبد ظاهرة، ونصرة العبد لله هو نصرته لعباده والقيام بحفظ حدوده

(١) سورة الحج آية ٧٨.

(٢) سورة البقرة آية ٢٨٦.

(٣) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث، ج ٥ ص ٦٤.

ورعاية عهوده واعتناق أحكامه ، واجتناب نهيه ، قال تعالى : ﴿ إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ ﴾ (١) ، ﴿ كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ ﴾ (٢) ، والانتصار رالاستنصار طلب النصره . قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴾ (٣) ، وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ ﴾ (٤) ، وقال تعالى : ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴾ (٥) ، وإنما قال فانتصر ولم يقل انصر تنبيهاً أن ما يلحقني يلحقك من حيث إنى جثتهم بأمرك ، فإذا نصرتني فقد انتصرت لنفسك (٦) .

أما القريب فهو الذي ليس ببعيد فالله (عز وجل) قريب من عباده كما قال (عز وجل) : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ (٧) . أى أنا قريب الإجابة ، وهو مثل قوله (عز وجل) ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ (٨) . وكما قال (عز وجل) : ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَاسِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ (٩) .

وكما قال (عز وجل) : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ (١٠) .

قال ابن القيم :

وهو القريب وقربه المختص بـ — الداعى وعباده على الإيمان

فقربه سبحانه وتعالى نوعان :

ـ قرب عام : وهو إحاطة علمه بجميع الأشياء ، وهو أقرب إلى

(١) سورة محمد ، آية : ٧ .

(٢) سورة الصف ، آية : ١٤ .

(٣) سورة الشورى ، آية : ٣٩ .

(٤) سورة الأنفال ، آية : ٧٢ .

(٥) سورة القمر ، آية : ١٠ .

(٦) الراغب الأصفهاني ، مرجع سابق ، ص ٤٩٥ .

(٧) سورة البقرة آية ١٨٦ .

(٨) سورة الحديد آية ٤ .

(٩) سورة المجادلة آية ٧ .

(١٠) سورة ق آية ١٦ .

الإنسان من حبل الوريد، وهو بمعنى المعية العامة.

٢- قرب خاص بالداعين والعابدين، وهو قرب يقتضى المحبة والنصرة، والتأييد في الحركات والسكنات، والإجابة للداعين، والقبول والإنابة للعبادين^(١).

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دُعَاةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾^(٢).

وإذا فهم القرب بهذا المعنى في العموم والخصوص لم يكن هناك تعارض أصلاً بينه وبين ما هو معلوم من وجوده تعالى فوق عرشه فسبحان من هو علي في دنوه قريب في علوه^(٣).

فأله عز وجل قريب ممن دعاه بإجابته، عن أبي موسى الأشعري رضى الله عنه أنهم كانوا مع النبي ﷺ في سفر، فكانوا يرفعون أصواتهم بالتكبير، فقال: «يا أيها الناس أربعوا علي أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً إنما تدعون سميعاً قريباً، إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»^(٤).

وكذلك قول صالح (عليه السلام) لقومه، في القرآن الكريم، ﴿وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾. فقوله قريب مجيب مقرون بالتوبة والاستغفار، أراد قريب مجيب لاستغفار المستغفرين التائبين إليه.

أما المجيب فاسم فاعل من أجاب يجيب فهو مجيب. فأله (عز)

(١) عبد الرحمن آل سعدى، الحق الواضح المبين، ص ٦٤.

(٢) سورة البقرة آية ١٨٦.

(٣) أحمد عيسى، توضيح المقاصد، ج ٢ ص ٢٢٩.

(٤) متفق عليه، انظر مسلم (٢٧٠٤).

وجلّ) مجيب دعاء عباده إذا دعوه كما قال (عزّ وجلّ): ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (١).

فهو سبحانه وتعالى: المجيب الذي يجيب المضطر إذا دعاه، ويغيث الملهوف إذا ناداه، ويقابل مسألة السائلين بالإسعاف، ودعاء الداعين بالإجابة، وضرورة المضطرين بالكفاية، بل ينعم قبل النداء، ويتفضل قبل الدعاء.

قال ابن القيم:

وهو المجيب يقول من يدعو أجيب — أنا المجيب لكل من ناداني
وهو المجيب لدعوة المضطر إذ يدعو — يدعوه في سر وفي إعلان

وإجابة الله (عزّ وجلّ) لعباده نوعان:

١- إجابة عامة لكل من دعاه دعاء عبادة أو دعاء مسألة، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (٢) فدعاء المسألة أن يقول العبد اللهم أعطني كذا أو اللهم ادفع عني كذا، وهذا يقع من البرّ والفاجر، ويستجيب الله فيه لكلّ من دعاه بحسب الحال المقتضية وبحسب ما تقتضيه حكمته، وهذا يستدل به على كرم المولى وشمول إحسانه للبرّ والفاجر، ولا يدل بمجردده على حسن حال الداعي الذي أجيب دعوته إن لم يقترن بذلك ما يدل عليه وعلي صدقه وتعين الحق معه، كسؤال الأنبياء ودعائهم لقومهم وعلي قومهم فيجيبهم الله، فإنه يدل على صدقهم فيما أخبروا به وكرامتهم على ربهم، ولهذا كان النبي ﷺ كثيراً

(١) سورة البقرة آية ١٨٦.

(٢) سورة غافر آية ٦٠.

ما يدعو بدعاء يشاهد المسلمون وغيرهم إجابته، وذلك من دلائل نبوته وآيات صدقه، وكذلك ما يذكرونه عن كثير من أولياء الله من إجابة الدعوات، فإنه من أدلة كراماتهم على الله.

٢- إجابة خاصة ولها أسباب عديدة، منها دعوة المضطر الذي وقع في شدة وكربة عظيمة، فإن الله يجيب دعوته، قال تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ (١).

وسبب ذلك شدة الافتقار إلى الله وقوة الانكسار وانقطاع تعلقه بالمخلوقين، ولسعة رحمة الله التي تشمل بها الخلق بحسب حاجتهم إليها، فكيف بمن اضطر إليها، ومن أسباب الإجابة طول السفر، والتوسل إلى الله بأحب الوسائل إليه من أسمائه وصفاته ونعمه، وكذلك دعوة المريض والمظلوم والصائم والوالد على ولده أو له وفي الأوقات والأحوال الشريفة (٢).

قال الشاعر:

وسرت على الطريق إلى حماكا	مجيب السائلين.. حملت ذنبي
ومعتذرا.. ومنتظراً رضاكا	ورحت أدق بابك مستجيراً
ولست ترد مكروباً دعاكا	دعوتك يا مفرج كل كرب
غريقاً في الدموع.. ولا يراكا	وتبت إليك.. توبة من تراه

وقد وردت هذه الأسماء كلها (الوليّ المولى النصير القريب المجيب) في القرآن الكريم:

(١) سورة النمل آية ٦٢.

(٢) عبد الرحمن آل سعدى، المرجع السابق، ص ٦٦.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (١).
 ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ (٢).
 ﴿إِنَّ وَلِيَّيَ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ (٣).
 قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ (٤).

﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ (٥).
 وقال تعالى: ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ (٦).
 وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ (٧).
 ﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُمْ فِيمَا يُرْسِلُ إِلَيَّ رَّبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ (٨).
 ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ (٩).
 وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ (١٠).

وآثار نصر الله عز وجل لأوليائه، وإجابته لدعائهم لا يحصيها
 العدد.

قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ
 الْأَشْهَادُ﴾ (١١).

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ

-
- | | |
|----------------------------|---------------------------|
| (١) سورة الجاثية آية ١٦ . | (٢) سورة النساء آية ٤٥ . |
| (٣) سورة الأعراف آية ١٩٦ . | (٤) سورة محمد آية ١١ . |
| (٥) سورة الحج آية ٧٨ . | (٦) سورة الفرقان آية ٣١ . |
| (٧) سورة البقرة آية ١٨٦ . | (٨) سورة سبا/ ٥٠ . |
| (٩) سورة هود/ ٦١ . | (١٠) سورة الصافات/ ٧٥ . |
| (١١) سورة غافر/ ٥١ . | |

فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلِيُمَكِّنَ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلِيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴿١﴾ .

قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (٢) .

فنصر الله عز وجل لدينه ولعباده المؤمنين آتٍ لا محالة ، والتمكين للإسلام يتم بعز عزيز أو بذل ذليل .

يقول الإمام بن كثير رحمه الله عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز﴾ أى : قد حكم وكتب في كتابه الأول وقدره الذي لا يخالف ولا يمانع ولا يبدل بأن النصر له ولكتابه ورسله وعباده المؤمنين في الدنيا والآخرة (٣) .

وقد أورد أبو جعفر بن جرير الطبري - رحمه الله - سؤالاً عند تفسير قوله تعالى ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا﴾ فقال : «قد علم أن بعض الأنبياء عليهم السلام قتله قومه كيحيى وزكريا واشعيا ، ومنهم من خرج من بين أظهرهم إما مهاجراً كإبراهيم ، وإما إلى السماء كعيسى ، فأين النصر في الدنيا؟

ثم أجاب عن ذلك بجوابين ، أحدهما : أن يكون الخبر خرج عاماً والمراد به البعض فإن هذا سائغ في اللغة ، والثاني : أن يكون المراد بالنصر الانتصار لهم ممن آذوهم وسواء كان ذلك بحضرتهم أم في غيبتهم ، أم بعد موتهم كما فعل بقتلة يحيى وزكريا واشعيا ، سلط عليهم من أعدائهم من أهانهم وسفك دماءهم .

(١) سورة النور / ٥٥ .

(٢) سورة الصافات / ١٧١ - ١٧٣ .

(٣) ابن كثير ، مرجع سابق ، ص ٣٣٩ .

وقد ذكر أن النمرود أخذه الله أخذ عزيز مقتدر، وأما الذين راموا صلب عيسى (عليه السلام) من اليهود فسلط الله عليهم الروم فأهانوهم وأذلّوهم، وأظهرهم الله تعالى عليهم. ثم قبل يوم القيامة سينزل عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام إماماً عادلاً وحاكماً مقسطاً فيقتل المسيح الدجال وجنوده من اليهود، ويقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويضع الجزية فلا يقبل إلا الإسلام وهذه نصرة عظيمة، وهذه سنة الله تعالى في خلقه في قديم الدهر وحديثه، أنه ينصر عباده المؤمنين في الدنيا ويقر أعينهم ممن آذوهم. ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن رسول الله (ﷺ) أنه قال: «يقول الله تبارك وتعالى: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب» وفي الحديث الآخر: «إني لأثار لأوليائي كما يثار الليث الحرب».

ولهذا أهلك الله (عز وجل) قوم نوح وعاداً وثمود وأصحاب الرس وقوم لوط وأهل مدين وأشباههم وأضرابهم ممن كذب بالرسول وخالف الحق، وأنجى الله تعالى من بينهم المؤمنين فلم يهلك منهم أحداً. وعذب الكافرين فلم يفلت منهم أحداً. قال السدي: لم يبعث الله (عز وجل) رسولا قط إلى قوم فيقتلونه، أو قوماً من المؤمنين يدعون إلى الحق يقتلون، فيذهب ذلك القرن حتى يبعث الله تبارك وتعالى لهم من ينصرهم يطلب بدمائهم ممن فعل ذلك بهم في الدنيا. قال: فكانت الأنبياء والمؤمنون يقتلون في الدنيا وهم منصورون فيها. وهكذا نصر الله نبيه محمداً (ﷺ) وأصحابه على من خالفه وناواه وكذبه وعاداه فجعل كلمته هي العليا ودينه هو الظاهر على سائر الأديان، وأمره بالهجرة من بين ظهرائي قومه إلى المدينة وجعل له فيها أنصاراً وأعواناً، ثم منحه أكتاف المشركين يوم بدر فنصره عليهم وخذلهم وقتل صناديدهم، وأسر سراتهم فساقهم مقرنين في الأصفاد، ثم من عليهم

بأخذ الفداء منهم، ثم بعد مدة قريبة فتح عليه مكة فقرت عينه ببلده وهو البلد المحرم الحرم المشرف المعظم، فأنقذه الله تعالى به مما كان فيه من الكفر والشرك وفتح به اليمن ودانت له جزيرة العرب بكمالها، ودخل الناس في دين الله أفواجا، ثم قبضه الله تعالى إليه لما له عنده من الكرامة العظيمة فأقام الله تبارك وتعالى أصحابه خلفاء بعده فبلغوا عنه دين الله (عز وجل)، ودعوا عباد الله تعالى إلى الله جل وعلا وفتحوا البلاد والرساتيق والأقاليم والمدائن والقرى والقلوب حتى انتشرت الدعوة الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها، ثم لا يزال هذا الدين قائماً منصوراً ظاهراً إلى قيام الساعة، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا...﴾ الآية. أي يوم القيامة تكون النصره أعظم وأجل وأكبر.

على أن نصر الله (عز وجل) لأوليائه قد يبطل، وما ذاك إلا لحكم كثيرة قد تخفى على كثير من الناس فيضعف إيمانهم وتتزعزع إرادتهم لأنهم يستعجلون.

وقد ذكر سيد قطب - رحمه الله تعالى - بعض الأمور التي قد يتأخر نصر الله عز وجل بسببها فقال: والنصر قد يبطل لأن بنية الأمة المؤمنة لم تنضج بعد نضجها، ولم يتم بعد تمامها، ولم تحشد بعد طاقتها، ولم تتحفز كل خلية وتتجمع لتعرف أقصى المدخور فيها من قوى واستعدادات، فلو نالت النصر حينئذ لفقدته وشيكاً لعدم قدرتها على حمايته طويلاً.

وقد يبطل النصر حتى تبذل الأمة المؤمنة آخر ما في طوقها من قوة وآخر ما تملكه من رصيد فلا تستبقى عزيزاً ولا غالياً إلا وتبذله هيناً رخيصاً في سبيل الله.

وقد يبطل النصر حتى تجرب الأمة المؤمنة آخر قواها، فتدرك أن هذه القوى وحدها بدون سند من الله لا تكفل النصر، إنما يتنزل النصر

من عند الله عندما تبذل آخر ما في طوقها ثم تكل الأمر بعدها إلى الله .
وقد يبطيء النصر لأن البيئة لا تصلح بعد لاستقبال الحق والخير
والعدل الذي تمثله الأمة المؤمنة ، فلو انتصرت حينئذ للقيت معارضة من
البيئة لا يستقر معها قرار ، فيظل الصراع قائماً حتى تنهيا النفوس من
حوله لاستقبال الحق الظافر ولاستقباله من أجل ذلك كله ، ومن أجل
غيره مما يعلمه الله قد يبطيء النصر ، فتضاعف التضحيات ، وتضاعف
الآلام ، مع دفاع الله عن الذين آمنوا وتحقيق النصر لهم في النهاية ،
وللنصر تكاليفه وأعباءه حين يتأذن الله به بعد استيفائه أسبابه ، وأداء
ثمنه ، ونهيو الجوحوله لاستقباله واستبقائه .

وقد يبطيء النصر لتزيد الأمة المؤمنة صلتها بالله ، وهي تعاني وتتألم
وتبذل ، ولا تجد لها سنداً إلا الله ولا متوجهاً إلا إليه وحده في
الضراء . . وهذه الصلة هي الضمانة الأولى لاستقامتها على النهج بعد
النصر عندما يتأذن به الله . . فلا تطغى ولا تنحرف عن الحق والعدل
والخير الذي نصرها الله به .

وقد يبطيء النصر لأن الأمة المؤمنة لم تتجرد بعد في كفاحها وبذلها
وتضحياتها لله ولدعوته فهي تقاتل لمغنم تحققة ، أو تقاتل حمية لذاتها ،
أو تقاتل شجاعة أمام أعدائها ، والله يريد أن يكون الجهاد له وحده وفي
سبيله ، بريئاً من المشاعر الأخرى التي تلبسه . . وقد سئل رسول الله
(ﷺ) عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء ، أى ذلك
في سبيل الله؟ فقال رسول الله (ﷺ): «من قاتل لتكون كلمة الله هي
العليا فهو في سبيل الله» (١) .

كما قد يبطيء النصر لأن في الشر الذي تكافحه الأمة المؤمنة بقية

(١) متفق عليه (البخارى ١/١٩٧، ٦/٢١، ٦/٢٢، ٢٢، ٢١) ومسلم (١٩٠٤)، (١٥٠) .

من خير يريد الله أن يجرد الشر منها ليتمحص خالصاً، ويذهب وحده هالكاً، لا تلتبس به ذرة من خير تذهب في الغمار.

وقد يبطئ النصر لأن الباطل الذي تحاربه الأمة المؤمنة لم ينكشف زيفة للناس تماماً، فلو غلبه المؤمنون حيثئذ فقد يجد له أنصاراً من المخدوعين فيه، لم يقتنعوا بعد بفساده وضرورة زواله، فتظل له جذور في نفوس الأبرياء الذين لم تنكشف لهم الحقيقة، فيشاء الله أن يبقى الباطل حتى ينكشف عارياً للناس ويذهب غير مأسوف عليه من ذئ بقية (١).

وقد أوصى رسول الله ﷺ أصحابه بالصبر عندما شكوا له تأخر النصر. عن أبي عبد الله خباب بن الارت (رضي الله عنه) قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا؟ فقال: قد كان من قبلكم يؤذئ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، ما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون (٢).

وقد أورد القرآن الكريم كثيراً من دعوات الأنبياء وأعقبها باستجابة الله (عز وجل) لهم. وإجابة هذه الدعوات أثر من آثار الولي المولى النصير القريب المجيب، وفيه لمسات تعليمية يقتدى بها المؤمنون عندما

(١) سيد قطب، مرجع سابق ص ٢٤٢٦، ص ٢٤٢٧.

(٢) رواه البخاري (١٢٦/٧) والنسائي وأبو داود.

يدعون ربهم القريب المجيب (١).

من أمثلة هذه الدعوات :

١- فآدم (عليه السلام) يحكى القرآن عنه أنه دعا قائلاً :

﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٢).

فجاءت الإجابة :

﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (٣).

ثم أكرمه الله (عز وجل) بالاصطفاء فقال (سبحانه) : ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٤).

ثم خصه بالاجتباء فقال تعالى : ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (٥).

(١) ينقسم الدعاء إلى نوعين : النوع الأول : دعاء العبادة وهو طلب الثواب بالأعمال الصالحة كالنطق بالشهادتين والعمل بمقتضاها، والصلاة والصيام والزكاة والحج . . إلخ النوع الثاني : دعاء المسألة ، وهو دعاء الطلب : أى طلب ما ينفع الداعي من جلب نفع أو كشف ضرر ، وهذا النوع من الدعاء إذا صدر من عبد لمثله من المخلوقين وهو قادر حتى حاضر فليس بشرك .

كقولك : اسقني ماءً ، أو يا فلان إعطني طعاماً . وفى الحديث من سأل بإفَاعطوه ، ومن استعاذ بإفَاعِذوه ، ومن دعاكم فاجيبوه . . إلخ . أما إذا صدر هذا النوع من الدعاء من مخلوق لمخلوق مثله ويطلب منه ما لا يقدر عليه إلا وحده فهو شرك سواء كان المدعو حياً أم ميتاً حاضرأ أم غائباً كمن يقول : يا سيدى فلان أشف مرضى ، رد غائبى ، اعطنى ولداً . وكل من استغاث بغيره أو دعا غير ادعاء عبادة أو دعاء مسألة فيما لا يقدر عليه إلا فهو مشرك . ودعاء المسألة متضمن لدعاء العبادة ، ودعاء العبادة مستلزم لدعاء المسألة ، ويراد بالدعاء فى القرآن دعاء العبادة تارة ، ودعاء المسألة تارة ، ويراد به مجموعهما . (انظر فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ، ص ١٢٨).

(٢) سورة الأعراف / ٢٣ . (٣) سورة البقرة / ٣٧ .

(٤) سورة آل عمران / ٣٣ . (٥) سورة طه / ١٢٢ .

٢- ونوح (عليه السلام)، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ (١).

٣- وإبراهيم (عليه السلام)، قال الله تعالى عن دعائه: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ (٢).

فاستجاب الله له في طلبه الأول: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ (٣).

واستجابه لدعوته: ﴿وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ فقال: ﴿وَأِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٤).

وفى دعوته: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ قال: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥).

٤- وأيوب (عليه السلام): قال تعالى عنه: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ (٦).

٥- ويونس (عليه السلام): قال عنه الله عز وجل: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذُهِبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٧).

-
- (١) سورة الصافات/ ٧٥-٧٦. (٢) سورة الشعراء/ ٨٢.
 (٣) سورة النساء/ ٥٤. (٤) سورة العنكبوت/ ٢٧.
 (٥) سورة الصافات/ ١٠٨-١١١. (٦) سورة الأنبياء/ ٨٣-٨٤.
 (٧) سورة الأنبياء/ ٨٧-٨٨.

٦- وزكريا (عليه السلام): قال الله تعالى عنه: ﴿هَذَاكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (٣٨) فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمَحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١﴾.

وقال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٢﴾.

٧- وموسى (عليه السلام): قال الله تعالى عن دعائه: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ أَشَدُّ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴿٣﴾.

وقال تعالى عنه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٤).

وقال تعالى عن موسى وهارون عليهما السلام: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (٨٨) قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾.

٨- ومحمد (ﷺ) وأصحابه، قال تعالى عنهم: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِآلِفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ﴾ (٩) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى

(١) سورة آل عمران/ ٣٨-٣٩. (٢) سورة الأنبياء/ ٨٩-٩٠.

(٣) سورة طه/ ٢٥-٣٦. (٤) سورة القصص/ ١٦.

(٥) سورة يونس/ ٨٨، ٨٩.

وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١﴾ .

وقال تعالى عنهم: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّ لَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانِ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ (٢) .

وقد دعا رسول الله ﷺ بأدعية كثيرة، وشوهدت إجاباتها كفلق الصبح . ومن هذه الدعوات :

١- دعاؤه ﷺ لأنس بن مالك رضي الله عنه قال ﷺ : اللهم أكثر ماله، وولده، وبارك له فيما أعطيته (٣)، (وأطل حياته، واغفر له) (٤) .

قال أنس : فو الله إن مالي لكثير، وإن ولدتي وولد ولدتي ليتعادون نحو المائة اليوم (٥) . وحدثني ابنتي أمينة أنه دفن لصلبي مقدم الحجاج البصرة بضع وعشرون ومائة (٦) . وطالت حياتي حتى استحييت من الناس وأرجو المغفرة (٧) .

وكان له رضي الله عنه بستان يحمل في السنة الفاكهة مرتين، وكان فيها ريحان يجيء منها ريح المسك (٨) .

٢- دعاؤه ﷺ لأم أبي هريرة فأسلمت فوراً، قال أبو هريرة رضي الله عنه : كنت أدعو أمي إلى الإسلام وهي مشركة، فدعوته يوماً فأسمعتني في رسول الله ﷺ ما أكره، فأتيت رسول الله ﷺ وأنا أبكي . قلت يا رسول الله إنني كنت أدعو أمي إلى الإسلام فتأبى علي فدعوته

(١) سورة الأنفال/٩-١٠ .

(٢) سورة آل عمران/ ١٧٣- ١٧٤ . (٣) رواه البخاري ومسلم ١٩٢٨/٤ .

(٤) رواه البخاري في الأدب المفرد رقم/ ٦٥٣ وصححه الألباني .

(٥) رواه مسلم/ ١٩٢٩/٤ . (٦) رواه البخاري مع الفتح ٢٢٨/٤ .

(٧) رواه البخاري في الأدب المفرد وصححه الألباني .

(٨) رواه الترمذي، وصححه الألباني انظر صحيح الترمذي، ٢٣٤/٣ .

اليوم فأسمعني فيك ما أكره، فادعوا الله أن يهدي أم أبي هريرة. فقال رسول الله: «اللهم اهد أم أبي هريرة» فخرجت مستبشراً بدعوة نبي الله ﷺ فلما جئت فصرت إلى الباب فإذا هو مجاف (١) فسمعت أمي خشف قدمي فقالت: مكانك يا أبا هريرة، وسمعت خضخضة الماء قال: فاغتسلت ولبست درعها، وعجلت عن خمارها ففتحت الباب ثم قالت: يا أبا هريرة: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله قال: فرجعت إلى رسول الله ﷺ وأتيته وأنا أبكي من الفرح، قال: قلت: يا رسول الله أبشر قد استجاب الله دعوتك وهدى أم أبي هريرة، فحمد الله وأثنى عليه وقال خيراً، قال: قلت: يا رسول الله! ادع الله أن يحبني أنا وأمي إلى عباده المؤمنين ويحببهم إلينا. قال: فقال رسول الله ﷺ: «اللهم حب عبيدك هذا وأمه إلى عبادك المؤمنين وحبب إليهم المؤمنين فما خلق مؤمن يسمع بي ولا يراني إلا أحبنى» (٢).

٣- دعاؤه ﷺ لعروة بن أبي الجعد البارقى، فقد أعطاه النبي ﷺ ديناراً يشتري له به شاة فاشترى له به شاتين فباع إحداهما بدينار، فجاء بدينار وشاة، فدعا له النبي (ﷺ) بالبركة في بيعه، وكان لو اشترى التراب لربح فيه (٣).

٤- دعاؤه ﷺ على بعض أعدائه فلم تتخلف الإجابة، ومن ذلك أن المشركين آذوه في مكة وأمر أبو جهل بعض القوم أن يضع سلا الجذور بين كتفي النبي ﷺ وهو ساجد ففعل ذلك عقبة بن أبي معيط فلما قضى النبي ﷺ صلاته رفع صوته ثم دعا عليهم: «اللهم عليك بقريش» ثلاث مرات فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك وخافوا دعوته ثم

(١) أئى مغلق.

(٢) رواه مسلم / ٤ / ١٩٣٩.

(٣) البخارى مع الفتح ٦ / ٦٣٢.

قال: «اللهم عليك بأبي جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمّية بن خلف، وعقبة بن أبى معيط» قال ابن مسعود: فوالذي بعث محمداً ﷺ بالحق لقد رأيت الذين سمى صرعى يوم بدر، ثم سحبوا إلى القليب، قليب بدر^(١).

ودعا ﷺ عليهم يوم الأحزاب، فقال ﷺ: «اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم»^(٢).

وأرسل الله على الأحزاب جنداً من الريح فجعلت تقوض خيامهم، ولا تدع لهم قدراً إلا كفأته، ولا طنباً إلا قلعتته، ولا يقر لهم قرار، وجند الله من الملائكة يزلزلونهم ويلقون في قلوبهم الرعب والخوف^(٣).

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (١١)﴾^(٤).

وقد دعا ﷺ يوم حنين على المشركين، عن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه قال: «فلما غشوا رسول الله ﷺ نزل عن البغلة ثم قبض قبضة من تراب من الأرض ثم استقبل به وجوههم فقال: «شاهت الوجوه» فما خلق الله منهم إنساناً إلا ملأ عينيه تراباً بتلك القبضة، فولوا مدبرين، فهزمهم الله (عز وجل)، وقسم رسول الله ﷺ غنائمهم بين المسلمين»^(٥).

(١) رواه مسلم ١٤١٨/٣. (٢) البخارى مع الفتح ٤٠٦/٧.

(٣) ابن القيم الجوزية، زاد المعاد، ج٣، ص ٢٧٤.

(٤) سورة الأحزاب آية ٩-١١. (٥) رواه مسلم ١٤٠٢/٣.

والدعاء من أقوى الأسباب في دفع المكروه، ونيل المطلوب، وهو من أنفع الأدوية، وعدو للبلاء، يدافعه ويعالجه ويمنع نزوله، ويرفعه، أو يخففه إذا نزل، وهو سلاح المؤمن، وللدعاء مع البلاء ثلاثة مقامات :

- ١- أن يكون الدعاء أقوى من البلاء فيدفعه .
 - ٢- أن يكون أضعف من البلاء فيقوى عليه البلاء فيصاب به العبد، ولكن قد يخففه وإن كان ضعيفاً .
 - ٣- أن يتقاوما ويمنع كل واحد منهما صاحبه (١) .
- وقد كثرت الأحاديث النبوية التي تحث على الدعاء وتحض عليه .
- عن النعمان بن بشير (رضي الله عنهما) عن النبي ﷺ قال «الدعاء هو العبادة» ثم قرأ ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾ (٢) .
- وعن ثوبان (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله : «لا يرد القدر إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البرّ وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنوب يذنبه» (٣) .
- وعن سلمان (رضي الله عنه) : أن رسول الله ﷺ قال : «لا يرد القضاء إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البرّ» (٤) .

(١) ابن القيم الجوزية، الجواب الكافي، ص ٢٢-٢٤ .

(٢) أخرجه أبو داود والترمذي وقال عنه : حديث حسن صحيح، والنسائي، وابن ماجه،

وابن حبان في صحيحه . وانظر صحيح الترمذي ١/١٣٨ .

(٣) أخرجه بن حبان في صحيحه، والحاكم في المستدرک، وقال : هذا حديث حسن صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي .

(٤) رواه الترمذي، وقال : حديث حسن غريب، وحسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم ٥٤ .

وعن ابن عمر (رضي الله عنهما) قال: قال رسول الله ﷺ «من فتح له منكم باب الدعاء فتحت له أبواب الرحمة وما سئل الله شيئاً يعنى أحب إليه من أن يسأل العافية وإن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل فعليكم عباد لله بالدعاء» (١).

وعن عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله: «من نزلت به فاقة فأنزلها بالناس لم تُسد فاقته ومن نزلت به فاقة فأنزلها بالله فيوشك الله له برزق عاجل أو آجل» (٢).

والأحاديث في هذا الباب كثيرة.

وهناك شروط لابد من توافرها ليتحقق المطلوب ويستجاب الدعاء، لأن الأدعية والتعوذات - كما يقول ابن القيم - بمنزلة السلاح، والسلاح بضاربه، لا يحده فقط، فمتى كان السلاح سلاحاً تاماً لا آفة به، والساعد ساعداً قوياً، والمانع مفقوداً، حصلت به النكاية في العدو، ومتى تخلف واحد من هذه الثلاثة تخلف التأثير.

فإن كان الدعاء في نفسه غير صالح، أو الداعي لم يجمع بين قلبه ولسانه، أو كان ثم مانع من الإجابة، لم يحصل التأثير (٢).
ومن أهم شروط قبول الدعاء ما يأتي (٣).

الشرط الأول: الإخلاص: وهو تصفية الدعاء والعمل من كل شائبة، فلا يرجو إلا الله، ولا يطمع إلا فيما عنده.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ

(١) رواه الترمذی، وقال: حديث غريب، والحاكم، وقال: صحيح الإسناد.

(٢) رواه الترمذی، وقال: حديث حسن صحيح، والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

(٣) ابن القيم، المرجع السابق، ص ٣٦.

(٤) سعيد القحطاني، شروط الدعاء وموانع الإجابة في ضوء الكتاب والسنة، ص ٢٤ - ٤٤.

بتصرف.

مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿١﴾ .

وقال تعالى: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (٢) .

وفى الحديث عن عبد الله بن عباس (رضى الله عنهما) قال : كنت خلف النبي ﷺ فقال : « يا غلام إني أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله ... إلخ » (٣) .

الشرط الثاني : المتابعة ، وهي شرط في جميع العبادات ، لقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ (٤) .

والعمل الصالح هو ما كان موافقاً لشرع الله تعالى ويراد به وجه الله (سبحانه) فلا بد أن يكون الدعاء والعمل خالصاً لله صواباً على شريعة رسول الله ﷺ . وكما قال الفضيل بن عياض : إنَّ العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل ، حتي يكون خالصاً صواباً . والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة (٥) .

الشرط الثالث : الثقة بالله تعالى واليقين بالإجابة : وهذا شرط من أعظم الشروط لأن الله (عز وجل) على كل شيء قدير ، ويقول للشئ كن فيكون . وجميع خزائن الخيرات والبركات ، ومقاليد كل الأمور بيده سبحانه .

(١) سورة الأعراف / ٢٩ . (٢) سورة غافر / ١٤ .

(٣) أخرجه الترمذى ، وقال : حديث حسن صحيح . ورواه أحمد ، وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى ٣٠٩ / ٢ .

(٤) سورة الكهف / ١١٠ .

(٥) ابن القيم الجوزية ، مدارج السالكين ج ٢ ، ص ٨٩ .

وفي الحديث القدسي الذي رواه الرسول (ﷺ) عن ربه تبارك وتعالى: «... يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص الخيط إذا أدخل البحر» (١).

فالمسلم عندما يدعو عليه أن يوقن بالإجابة، ويثق في أن الله (عز وجل) قريب مجيب. وفي الحديث عن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي (ﷺ) قال: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة» (٢).

وقريب من هذا الشرط العزم والجد والجزم في الدعاء، ولهذا نهى رسول الله ﷺ عن الاستثناء في الدعاء.

عن أنس (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دعا أحدكم فليعزم في الدعاء ولا يقل اللهم إن شئت فأعطني فإن اد لا مُستكره له» (٣).

وفي رواية: «فإن الله لا مكره له»

وفي حديث آخر عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال النبي ﷺ: «لا يقولن أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ولكن ليعزم المسألة وليعظم الرغبة فإن اد لا يتعاضمه شيء أعطاه» (٤).

الشرط الرابع: حضور القلب والتضرع والخفية والرغبة والرهبة،

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم (٢٥٧٧).

(٢) رواه الترمذي وأحمد والحاكم، وحسنه الألباني في الأحاديث الصحيحة، برقم (٥٩٤).

(٣) رواه البخاري برقم (٦٣٣٨) ومسلم (٢٦٧٨).

(٤) رواه البخاري برقم ٣٣٩، ومسلم برقم (٢٦٧٩).

فالمسلم في دعائه لابد من حضور قلبه ، وهذا من أعظم شروط قبول الدعاء . وفي الحديث عن عبد الله بن عمر (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله ﷺ : «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلب غافلٍ لاهٍ» (١) .

والتضرعُ رُوح الدعاء كما أنه رُوح الذكر . وفي الذكر الحكيم ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ (٢) وفي آية أخرى : ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ (٣) .

فذكر التضرع فيهما معاً وهو التذلل والتمسكن والانكسار . وإخفاء الدعاء له فوائد عديدة (٤) :

- ١- أنه أعظم إيماناً لأن صاحبه يعلم أن الله يسمعُ دعاءه الخفي .
- ٢- أنه أعظم في الأدب والتعظيم ولهذا لا تخاطب الملوك ولا تسأل برفع الأصوات ، وإنما تخفض عندهم الأصوات .
- ٣- أنه أبلغ في التضرع والخشوع الذي هو روحُ الدعاء ولِّبه ومقصوده فإن الخاشع الذليل الضارع إنما يسئل مسألة مسكين ذليل قد انكسر قلبه ، وذلت جوارحه ، وخشع صوته فلسانه لشدة ضراعتة وذله لا يكاد يطاوعه .

٤- أنه أبلغ في الإخلاص .

٥- أنه أبلغ في جمعية القلب على الله في الدعاء فإن رفع الصوت

(١) رواه الترمذي وأحمد ، والحديث حسنه الألباني في الأحاديث الصحيحة برقم ٥٩٤ .

(٢) سورة الأعراف / ٢٠٥ .

(٣) سورة الأعراف / ٥٥ .

(٤) ابن القيم الجوزية ، بدائع الفوائد ، ج ٣ ، ص ٦ : ص ٩ .

يفرقه ويشتته فكلما خفض صوته كان أبلغ في صمده وتجريد همته وقصده .

٦- أنه دال على قرب صاحبه من الله ، وأنه لاقترابه منه وشدة حضوره يسأله مسألة أقرب شيء إليه فيسأله مناجاة القريب للقريب لا مسألة نداء البعيد للبعيد ولهذا أثنى الله عز وجل على عبده زكريا بقوله ﴿إِذ نَادَى رَبَّهُ نَدَاءً خَفِيًّا﴾ ، وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المعنى بقوله لما رفع الصحابة أصواتهم بالتكبير وهم معه في السفر : « اربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً إنكم تدعون سميعاً قريباً أقرب إلى أحدكم من عنق راحلتها » (١) .

٧- أنه ادعى إلى دوام الطلب والسؤال فإن اللسان لا يمل والجوارح لا تتعب بخلاف ما إذا رفع صوته فإنه قد يكل لسانه وتضعف بعض قواه .

٨- إن إخفاء الدعاء أبعد له من القواطع والمشوشات والمضعفات لأنه لا يدري به أحد فلا يحصل هناك تشويش ولا غيره .

٩- إن الإقبال على الله عز وجل والتضرع إليه من أعظم النعم ، ولكل نعمة حاسد على قدرها دقت أو جلت ، ولا نعمة أعظم من هذه النعمة فإخفاء هذه النعمة أسلم لها من الحاسدين .

والرغبة فيما عند الله من الثواب ، والرغبة مما عنده من العقاب من شروط قبول الدعاء أيضاً . فقد أثنى الله تعالى على زكريا وأهل بيته فقال : ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا

(١) متفق عليه (البخاري برقم ٤٢٠٥ ومسلم برقم ٢٧٠٤) .

رَغْبًا وَرَهْبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿١﴾ .

أما موانع إجابة الدعاء فهي كالتالى :

المانع الأول: التوسع فى أكل الحرام.

ففى الحديث عن أبى هريرة (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله ﷺ : «إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَهُ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (٢) وقال : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ (٣) ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يارب! يارب! ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذى بالحرام فأنى يستجاب لذلك» (٤) .

ففى هذا الحديث نجد الرجل قد أتى بأربعة أسباب من أسباب إجابة الدعاء وهى :

١- إطالة السفر .

٢- حصول التبذل فى اللباس والهيئة ، وهذا من أسباب قبول الدعاء لقول رسول الله ﷺ : «كم من أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه به لو أقسم على الله لأبره» (٥) .

٣- يمد يديه إلى السماء ، وهذا أيضاً من أسباب قبول الدعاء ففى الحديث قال رسول الله ﷺ «إِنَّ اللَّهَ حَيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِ مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صَفْرًا خَائِبِينَ» (٦) .

(١) سورة الأنبياء/ ٨٩- ٩٠ . (٢) سورة المؤمنون/ ٥١ .

(٣) سورة البقرة/ ١٧٢ . (٤) رواه مسلم برقم (١٠١٥) .

(٥) رواه الترمذى وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى ٢٣٩/٣ .

(٦) رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى ١٧٩/٣ .

٤ - الإلحاحُ على الله بتكرير ذكر ربوبيته وهو من أعظم ما يطلب به إجابة الدعاء .

ومع ذلك كله قال ﷺ: «فَأَنى يَسْتَجَابُ لَذَلِكَ» وهذا استفهام وقع على سبيل التعجب والاستبعاد^(١) . فأكل الحرام يمنع إجابة الدعاء حتى مع توافر شروط أخرى لإجابته كما تبين من الحديث السابق .

المانع الثاني: الاستعجال : وهو من الموانع التي تمنع إجابة الدعاء ، ففي الحديث عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ «يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ فِيَقُولْ: قَدْ دَعَوْتُ فَلَمْ يَسْتَجِبْ لِي»^(٢) .

فالعبد لا يستعجل في عدم إجابة الدعاء ، لأنَّ الله قد يؤخر الإجابة لأسباب : إما لعدم القيام بالشروط ، أو الوقوع في الموانع ، أو لأسباب أخرى تكون في صالح العبد وهو لا يدري ، فعلى العبد إذا لم يستجب له أن يراجع نفسه ويتوب إلى الله (عزَّ وجلَّ) من جميع المعاصي ، ويبشر بالخير العاجل والآجل ، والله تعالى يقول :

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٣) . فما دام العبد يلج في الدعاء ويطمع في الإجابة من غير قطع فهو قريب من الإجابة ، ومن أدام قرع الباب يوشك أن يفتح له^(٤) .

وقد تؤخر الإجابة لمدة طويلة كما أخر سبحانه وتعالى إجابة يعقوب في ردِّ ابنه يوسف إليه ، وهو نبي كريم ، وكما أخر إجابة نبيه أيوب

(١) ابن رجب ، جامع العلوم والحكم ، ج١ ، ص ٢٦٩ - ص ٢٧٥ .

(٢) متفق عليه (البخاري برقم / ٦٣٤٠ ، ومسلم برقم ٢٧٣٥) .

(٣) سورة الأعراف / ٥٦ .

(٤) ابن رجب ، المرجع السابق ، ج٢ ، ص ٤٠٤ .

(عليه السلام) في كشف الضر عنه ، وقد يعطى السائل - بتأخير الإجابة - خيراً مما سأل ، وقد يصرف عنه من الشر أفضل مما سأل ^(١) . والله يعلم والناس لا يعلمون .

المانع الثالث: ترك الواجبات وارتكاب المحرمات : فإذا كان فعل الطاعات سبباً من أسباب إجابة الدعاء فكذلك ترك الواجبات يكون مانعاً من موانع استجابة الدعاء ، ففي الحديث عن حذيفة (رضي الله عنه) عن النبي (ﷺ) قال : «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتتهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم» ^(٢) .

كما أن ارتكاب المحرمات يعتبر مانعاً من إجابة الدعاء ، ولهذا قال بعض السلف : لا تستبطن إجابة وقد سددت طريقها بالمعاصي ، ولذلك يقول بعض الشعراء :

نحن ندعو الإله في كل كرب ثم ننساه عند كشف الكرب
كيف نرجو إجابة لدعاء قد سدنا طريقها بالذنوب

ومن المعاصي والمحرمات أيضاً الدعاء بإثم أو قطيعة رحم . ففي الحديث عن أبي سعيد (رضي الله عنه) أن النبي (ﷺ) قال : «ما من مسلم يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم : إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث : إما أن يجعل له دعوته ، وإما أن يدخرها له في الآخرة ، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها » قالوا : إذا نكث . قال : «الله أكثر» ^(٣) .

المانع الرابع: الحكمة الربانية : فقد يؤخر الله إجابة دعاء عبده بل لا

(١) انظر مجموع فتاوى العلامة ابن باز ج ١ ، ص ٢٦١ ، جمع الطيار .

(٢) رواه الترمذي وحسنه ، وهو في صحيح الجامع برقم ٦٩٤٧ .

(٣) رواه أحمد والترمذي وحسنه الألباني في صحيح الترمذي ٣ / ١٤٠ ، ١٨١ .

يستجيب له ولا يعطيه ما يرجوه لحكمة يعلمها الله (عز وجل)، كما تبين من الحديث السابق وأن الله عز وجل قد يصرف عنه من المصائب والأمراض أفضل مما سأل، أو يدخر له الدعوة إلى يوم القيامة فيعطيه خيراً كثيراً في الآخرة.

وهناك آداب للدعاء ينبغي أن يراعيها المؤمن عندما يسأل القريب المجيب.

ومن هذه الآداب:

١- أن يبدأ بحمداً، ويصلي على النبي ﷺ ويختتم بذلك. عن فضالة بن عبيد الله رضي الله عنه قال: سمع رسول الله ﷺ رجلاً يدعو في صلاته لم يمجّد الله تعالى، ولم يصل على النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «عجل هذا» ثم دعاه فقال له ولغيره: «إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد الله والثناء عليه، ثم يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم يدعو بعد بما شاء» (١).

وقد ذكر ابن القيم (رحمه الله) أن للمصلاة على النبي (ﷺ) عند الدعاء ثلاث مراتب (٢).

المرتبة الأولى: أن يصلي عليه ﷺ قبل الدعاء وبعد حمد الله تعالى.
المرتبة الثانية: أن يصلي عليه ﷺ في أول الدعاء وفي أوسطه وفي آخره.

المرتبة الثالثة: أن يصلي عليه ﷺ «في أوله وآخره ويجعل حاجته متوسطة بينهما».

(١) رواه أبو داود والترمذي، وصححه الألباني: صحيح الترمذي برقم ٢٧٦٧.

(٢) ابن القيم الجوزية، جلاء الأفهام، ص ٣٧٥.

٢- الدعاءُ في الرخاء كما يدعو في الشدة: عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ: «من سره أن يستجيب الله له عند الشدائد والكرب فليكثر في الدعاء في الرخاء» (١).

فمن أحب أن يستجيب الله له عند الشدائد والكربات فليكثر من الدعاء في حال الرخاء والصحة والعافية. قال الله تعالى عن يونس (عليه السلام) حين نجاه ﴿فلولا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (٢).

٣- التوسلُ إلى الله (عز وجل) بأنواع التوسل المشروعة:

وأنواع التوسل المشروعة ثلاثة: النوع الأول، التوسل باسم من أسماء الله تعالى أو صفة من صفاته، كأن يقول الداعي اللهم إني أسألك يا شافي أن تشفيني، أو أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء أن ترحمنني وتغفر لي. قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ (٣).

والنوع الثاني: التوسل إلى الله تعالى بعمل صالح قام به الداعي، كأن يقول المسلم، اللهم بإيماني بك، أو محبتى لك، أو اتباعي لرسولك أن ترحمنني وتغفر لى.

أو يقول اللهم إني أسألك بمحبتى لحمد (ﷺ) وإيماني به واتباعي لسنته أن تفرج عني.

(١) رواه الترمذي والحاكم وصححه ووافقه الذهبي وحسنه الألباني في صحيح الترمذي وهو في الأحاديث الصحيحة برقم ٥٩٣.

(٢) سورة الصافات / ١٤٣-١٤٤.

(٣) سورة الأعراف / ١٨٠.

ومن ذلك أن يذكر الداعي عملاً صالحاً ذا بال، عمله خالصاً لله عز وجل ثم يتوسل به . كقصة أصحاب الغار الذين توسل كل منهم بعمل صالح فاستجاب الله لهم .

ويدل على مشروعية هذا النوع من التوسل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَمْنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (١) .

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٢) .

النوع الثالث: التوسل إلى الله تعالى بدعاء الرجل الصالح الحي الحاضر: كأن يقع المسلم في ضيق أو كرب، ويعلم من نفسه التفريط في جنب الله تبارك وتعالى، فيجب أن يأخذ بسبب قوي إلى الله تعالى، فيذهب إلى رجل يعتقد فيه الصلاح والتقوى أو الفضل والعلم بالكتاب والسنة فيطلب منه أن يدعو له ربه، ليفرج عنه كرب، ومن ذلك سؤال أبي هريرة (رضي الله عنه) للنبي أن يدعو لأمه بالهداية إلى الإسلام - كما سبق - فدعاه (ﷺ) فهداها الله تعالى . ومن ذلك أن عمر (رضي الله عنه) كان يطلب من العباس عم النبي (ﷺ) أن يدعو لهم الله (عز وجل) أن يغيثهم فيغيثهم (سبحانه وتعالى) (٣) .

ومن ذلك قول النبي (ﷺ) لعمر (رضي الله عنه): «يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مراد ثم من قرن، كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم، له والدة هو بها بر، لو أقسم على الله لأبره . فإن استطعت أن تستغفر لك فافعل» (٤) .

(١) سورة آل عمران / ١٦ .

(٢) سورة آل عمران / ٥٣ .

(٣) رواه البخاري في كتاب الاستغفار .

(٤) رواه مسلم برقم (٢٥٤٢) .

٤ - الدعاء ثلاثاً مع استقبال القبلة ورفع الأيدي مع الإلحاح في الدعاء فقد كان رسول الله (ﷺ) يدعو ثلاثاً . ويستقبل القبلة .

عن عبد الله بن زيد قال : خرج النبي (ﷺ) إلى المصلى يستسقي فدعا واستسقى ، ثم استقبل القبلة وقلب رداءه (١) .

وقال أبو موسى الأشعري (رضي الله عنه) : دعا النبي (ﷺ) ثم رفع يديه ، ورأيت بياض إبطيه (٢) .

أما الإلحاح في الدعاء فهو المواظبة عليه ولزومه ، فالعبد يكثر من الدعاء ، ويكرره ، ويلح على الله بتكرير ربوبيته وألوهيته ، وأسمائه وصفاته . فالإلحاح على الله عز وجل بتكرير ذكر ربوبيته وألوهيته من أعظم ما يطلب به إجابة الدعاء .

٥ - إظهار الافتقار في الدعاء والبكاء من خشية الله تعالى : قال تعالى : ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسْنِي الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (٣) .

عن عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) أن النبي (ﷺ) تلا قول الله (عز وجل) في إبراهيم ﴿رَبِّ إِنِّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ (٤) وقول عيسى : ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٥) . فرفع يديه وقال : « اللهم أمتي وبكى » فقال الله عز وجل يا جبريل اذهب إلى محمد - وربك أعلم - فسله ما يبكيك ؟ فأتاه جبريل - عليه السلام - فسأله ، فأخبره رسول الله (ﷺ) بما قال ، وهو أعلم فقال الله : يا جبريل اذهب إلى محمد فقل : إنا سنرضيك في

(١) رواه البخاري في كتاب الدعوات برقم ٦٣٤٣ .

(٢) رواه البخاري في كتاب الدعوات برقم ٦٣٤١ .

(٣) سورة الأنبياء / ٨٣ .

(٤) سورة إبراهيم / ٣٦ .

(٥) سورة المائدة / ١١٨ .

أمتك ولا نسوءك» (١).

٦- لا يدعو على أهله، أو ماله، أو ولده، أو نفسه: عن جابر (رضي الله عنه) في الرجل الذي لعن بغيره، فقال رسول الله (ﷺ): «من هذا اللاعن بغيره؟» قال: أنا يا رسول الله! قال: «انزل عنه فلا تصحبنا بملعون، لا تدعو على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعو على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة، يسأل فيها عطاء فيستجيب لكم» (٢).

بقى أن يعرف المؤمن أن هناك أوقاتاً مخصوصة، وأماكن مخصوصة، ودعوات مخصوصة، إذا وفق العبد إليها استجاب الله له.

أولاً: الأوقات الخاصة:

من هذه الأوقات ما يتعلق بمواسم معينة كليلة القدر، وشهر رمضان، ويوم عرفة، ومنها ما يتعلق بساعات معينة في الليل والنهار كجوف الليل الآخر، وساعة من ساعات يوم الجمعة. ومنها ما يتعلق بالصلاة وعند النداء للصلاة، وبين الأذان والإقامة، وعند إقامة الصلاة وعند قراءة الفاتحة في الصلاة بالتدبر، وفي السجود، وبعد الصلاة على النبي في التشهد الأخير. ومنها ما يتعلق بأحداث معينة كعند زحف الصفوف في سبيل الله، وعند نزول الغيث، وعند شرب ماء زمزم، وبعد وفاة الميت، وفي مجالس الذكر.

والأدلة على ذلك في النصوص التالية:

١- ليلة القدر: قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿ (٣).

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان باب دعاء النبي ﷺ لأمته.

(٢) رواه مسلم برقم (٢٠٠٩). (٣) سورة القدر.

٢ - في رمضان: عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): «إذا دخل رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب جهنم، وسلسلت الشياطين» وفي رواية: «فتحت أبواب الرحمة» (١).

٣ - يوم عرفة: عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده أن النبي (ﷺ) قال: «خير الدعاء دعاء يوم عرفة، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد وهو على كل شيء قدير» (٢).

٤ - ثلث الليل الآخر: عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله (ﷺ) قال: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا، حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له» (٣).

٥ - ساعة يوم الجمعة: وعنه أيضاً قال إن رسول الله (ﷺ) ذكر يوم الجمعة فقال: «فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم، وهو قائم يصلي يسأل الله تعالى شيئاً إلا أعطاه إياه» (٤). وعن جابر (رضي الله عنه) عن النبي (ﷺ) قال: «يوم الجمعة اثنا عشر ساعة، فيها ساعة لا يوجد مسلم يسأل الله فيها شيئاً إلا أعطاه، فالتمسوها آخر ساعة بعد العصر» (٥).

وعن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري قال: قال عبد الله بن عمر: أسمعت أباك يحدث عن رسول الله (ﷺ) في ساعة الجمعة؟ قال:

(١) متفق عليه، والرواية الثانية لمسلم ٧٥٨/٢.

(٢) أخرجه الترمذی، وحسنه الألبانی فی صحيح الترمذی ١٨٤/٣.

(٣) متفق عليه (البخاری برقم ١١٤٥ ومسلم برقم ٧٥٨).

(٤) متفق عليه (البخاری برقم ٩٣٥ ومسلم برقم ٨٥٢).

(٥) رواه أبو داود والنسائي وإسناده (جيد) وصححه الحاكم (٢٧٩/١) ووافقه الذهبي.

قلت : نعم سمعته يقول : سمعت رسول الله (ﷺ) يقول « هي ما بين أن يجلس الإمام إلى أن تقضى الصلاة » (١).

وقد رجَّح ابن القيم (رحمه الله تعالى) وغيره من أهل العلم أن الساعة في يوم الجمعة هي بعد العصر، وهو قول أحمد، وجمهور الصحابة والتابعين.

قال ابن القيم : « وعندى أن ساعة الصلاة ساعة ترجى فيها الإجابة أيضاً، فكلاهما ساعة إجابة، وإن كانت الساعة المخصوصة هي آخر ساعة بعد العصر، لأن اجتماع المسلمين وصلاتهم وتضرعهم وابتهالهم إلى الله تعالى تأثيراً في الإجابة.

وعلى هذا تتفق الأحاديث، ويكون النبي (ﷺ) قد حض أمته على الدعاء والابتهال إلى الله تعالى في هاتين الساعتين (٢).

بقي إشكال يسير، وهو أن النبي (ﷺ) قال : « لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلي » وتلك الساعة - آخر ساعة بعد العصر - لا يصلي فيها؟ وقد رد على ذلك الصحابي عبد الله بن سلام قائلاً : إن رسول الله (ﷺ) قال : « من جلس مجلساً ينتظر الصلاة، فهو في صلاة حتى يصلي » (٣).

وفي الصلاة وردت النصوص والأدلة التالية :

١ - عند النداء: عن سهل بن سعد (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله ﷺ : « ثنتان لا تردان، أو قلما تردان: الدعاء عند النداء، وعند البأس

(١) رواه مسلم برقم ٨٥٣.

(٢) ابن القيم الجوزية، زاد المعاد، ج١، ص ٣٩٤.

(٣) المرجع السابق، ص ٣٩٢.

حين يلحم بعضهم بعضاً»^(١). وفي رواية: «وقت المطر».

٢ - بين الأذان والإقامة: عن أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): «الدعاء لا يُرد بين الأذان والإقامة فادعوا»^(٢).

٣ - عند إقامة الصلاة: عن سهل بن سعد (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): «ساعتان لا ترد على داع دعوته: حين تُقام الصلاة، وفي الصف في سبيل الله»^(٣).

٤ - عند قراءة الفاتحة بالتدبر: عن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي (ﷺ) قال: «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداجٌ. ثلاثاً غير تامة» فقل لأبي هريرة: إنا نكون وراء الإمام. فقال: اقرأ بها في نفسك، فإني سمعت رسول الله (ﷺ) يقول:

قال الله تعالى: قَسَمْتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبي ما سأل، فإذا قال العبدُ: الحمد لله رب العالمين، قال الله تعالى حمدي عبدي، وإذا قال: الرحمن الرحيم، قال الله تعالى: أثني عليّ عبدي، وإذا قال: مالك يوم الدين، قال مجدي عبدي، فإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين. قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبي ما سأل. فإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين. قال: هذا لعبي ولعبي ما سأل»^(٤).

٥ - وفي السجود: عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول

(١) رواه أبو داود، وصححه الألباني في صحيح أبي داود، وهو في سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم ١٤٦٩.

(٢) رواه الترمذي وأبو داود وأحمد وصححه الألباني في صحيح الترمذي ١٨٥/٣.

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم ٢٥٦، ورقم ٢٦٢.

(٤) رواه مسلم ١/٢٩٦١.

الله (ﷺ): «أقرب ما يكون العبدُ من ربِّه وهو ساجدٌ فأكثرُوا الدعاء» (١).

٦ - وبعد الصلاة على النبي (ﷺ) في التشهد الأخير: عن عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) قال: كنت أصلي والنبي (ﷺ) وأبو بكر وعمر معه، فلما جلست بدأت بالشثناء على، ثم الصلاة على النبي (ﷺ)، ثم دعوت لنفسي فقال النبي (ﷺ): «سَلْ تعطه سل تعطه» (٢).

قال ابن القيم (رحمه الله): «وأما المواضع التي كان يدعو فيها في الصلاة، فسبعة مواطن:

أحدها: بعد تكبيرة الإحرام في محل الاستفتاح.

الثاني: قبل الركوع وبعد الفراغ من القراءة في الوتر.

الثالث: بعد الاعتدال من الركوع، كما ثبت ذلك في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن أبي أوفى: كان رسول الله (ﷺ) إذا رفع من الركوع قال «سمع الله لمن حمده، اللهم ربنا لك الحمد، ملء السموات وملء الأرض، وملء ما شئت من شيء بعد، اللهم طهرني بالثلج والبرد، والماء البارد، اللهم طهرني من الذنوب والخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الوسخ».

الرابع: في ركوعه كان يقول «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي» (٣).

(١) رواه مسلم ١/٣٥٠.

(٢) أخرجه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الترمذي برقم ٢٧٦٥.

(٣) رواه البخاري ومسلم (٤٨٤).

الخامس: في سجوده، وكان فيه غالب دعائه .

السادس: بين السجدين .

السابع: بعد التشهد وقبل السلام .

وأما الدعاء بعد السلام من الصلاة مستقبل القبلة أو المأمومين فلم يكن ذلك من هديه (ﷺ) أصلاً، ولا روى عنه بإسناد صحيح، ولا حسن (١).

وفيما يتعلق بالأحداث:

١ - عند زحف الصفوف أو تلاحمها في الجهاد، وعند نزول المطر سبق الحديث .

٢ - عند شرب ماء زمزم: عن جابر (رضي الله عنه) عن النبي (ﷺ) قال: «ماء زمزم لما شرب له» (٢).

٣ - عند دعاء الناس بعد وفاة الميت: عن أم سلمة (رضي الله عنها) قالت دخل رسول الله (ﷺ) على أبي سلمة وقد شقّ بصره فأغمضه، ثم قال: «إنّ الروح إذا قبض تبعه البصر» فضج ناس من أهله. فقال: «لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير، فإنّ الملائكة يؤمنون على ما تقولون» ثم قال: «اللهم اغفر لأبي سلمة، وارفع درجته في المهديين وأخلفه في عقبه في الغابرين، واغفر لنا وله يا رب العالمين، وأفسح له في قبره ونور له فيه» (٣).

٤ - في مجالس الذكر: عن أبي هريرة (رضي الله عنه)، عن النبي

(١) ابن القيم الجوزية، زاد المعاد، ج١، ص ٢٥٧.

(٢) رواه أحمد وابن ماجه، وصححه الألباني وهو في الأحاديث الصحيحة برقم / ٨٨٣.

(٣) رواه مسلم ٢ / ٤٢٠.

(ﷺ) قال: «إنَّ الله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تنادوا: هلموا إلى حاجتكم، قال: فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا، قال: فيسألهم ربهم (عز وجل) - وهو أعلم منهم -

ما يقول عبادي لله قالوا: يقولون: يسبحونك، ويكبرونك، ويحمدونك، ويمجدونك. . . الحديث فيقول: فأشهدكم إني قد غفرت لهم. قال: يقول ملك من الملائكة فيهم فلان ليس منهم إنما جاء لحاجة قال: هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم» (١).

أما الأماكن المخصوصة التي يقبل فيها الدعاء، فداخل الكعبة أو داخل الحجر: ففي الحديث عن أسامة بن زيد أن النبي (ﷺ) لما دخل البيت دعا في نواحيه كلها (٢).

وعن عائشة (رضي الله عنه) قالت: سألت رسول الله (ﷺ) عن الجدر أي (الحجر) أمن البيت هو؟ قال: «نعم». قلت: فلم لم يدخلوه في البيت؟ قال: «إن قومك قصرت بهم النفقة» (٣).

وكذلك الدعاء في عرفة يوم عرفة للحديث الذي سبق، «خيرُ الدعاء دعاء يوم عرفة، وخير ما قلت: أنا والنبیون من قبلي» لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير» (٤).

وهناك دعوات مستجابات يجب على المسلم أن يحرص عليهن لورود الأخبار بذلك. كدعوة المسلم لأخيه بظهر الغيب. ففي الحديث

(١) متفق عليه (البخاري في كتاب الدعوات ومسلم في الذكر والدعاء ٤/ ٢٠٦٩).

(٢) أخرجه مسلم برقم / ١٣٢٠.

(٣) متفق عليه (البخاري برقم / ١٥٨٤، ومسلم برقم / ١٣٣٣).

(٤) سبق تخريجه

عن أم الدرداء (رضي الله عنها) أنها قالت لصفوان: أتريد الحج العام؟ قال: فقلت: نعم، قالت: فادع الله لنا بخبر فإن النبي (ﷺ) كان يقول: «دعوة المرء لأخيه بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملك كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكل به: آمين ولك بمثل»^(١). وكذلك دعوة الوالد لولده، ودعوة المسافر، ودعوة الصائم، ودعوة الإمام العادل، ودعوة المظلوم.

عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ) «ثلاث دعوات يستجاب لهن ولا شك فيهن: دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد لولده، وفي رواية: على ولده»^(٢).

وعنه (رضي الله عنه) قال: عن النبي (ﷺ) «... ثلاثة لا ترد دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حين يفطر، ودعوة المظلوم يرفعها فوق الغمام وتفتح لها أبواب السماء، ويقول الرب عز وجل: وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين»^(٣).

فليحذر المسلم من دعوة هؤلاء، ويطلب منهم الدعاء له لا عليه، فإن دعوتهم مستجابة.

ودعوة الولد الصالح مستجابة لحديث رسول الله (ﷺ): «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»^(٤).

(١) رواه مسلم برقم ٢٧٣٣.

(٢) رواه الترمذی وأبو داود، وابن ماجه وحسنه الألبانی فی صحيح الترمذی ١٥٦/٣.

(٣) رواه الترمذی، وصححه الألبانی فی صحيح الترمذی ٣١١/٢.

(٤) رواه مسلم، رقم ١٦٣١.

ومن ذلك إخبار النبي (ﷺ) عن أفضل التابعين، وأنه لو أقسم على الله لأبره، والسبب أن له والدته هو بها بر. عن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: «يأتى عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن، من مراد، ثم من قرن، كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم، له والدته هو بها بر، لو أقسم على الله لأبره، فإن استطعت أن تستغفر لك فافعل» (١).

ومن ذلك أيضاً دعوة الحاج والمعتمر والغازي في سبيل الله، لحديث ابن عمر عن النبي (ﷺ) قال: «الغازي في سبيل الله، والحاج، والمعتمر وقد الله دعاهم فأجابوه، وسألوه فأعطاهم» (٢).

ويستجاب الدعاء عندما يدعو المسلم بالاسم الأعظم: عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: سمع النبي (ﷺ) رجلاً يدعو وهو يقول: «اللهم إني أسألك بأنني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت، الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، قال فقال: «والذي نفسي بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى» (٣).

وعن أنس (رضي الله عنه) قال: كنت جالساً مع النبي (ﷺ) في المسجد ورجل يصلي فقال: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد. لا إله أنت المنان، بديع السموات والأرض. يا ذا الجلال والإكرام، يا حيّ يا قيوم، فقال النبي (ﷺ): «لقد دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا دعي به

(١) رواه مسلم، رقم ٢٥٤٢.

(٢) رواه ابن ماجه، وحسنه الألباني، وهو في سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم ١٨٢.

(٣) أخرجه الترمذي وأبو داود وابن ماجه والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين وصححه الألباني في صحيح الترمذي ٣/١٦٣.

أجاب، وإذا سئل به أعطى» (١). ومن أحبه الله (عز وجل) استجاب لدعائه، عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): «إن الله تعالى قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته» (٢).

* * *

خير الدعاء

الخلق جميعاً مفتقرون إلى الله (عز وجل) في جلب مصالحهم ودفع مضارهم في أمور دينهم ودنياهم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (٣).

والله (عز وجل) يحب أن يسأله العباد جميع مصالحهم، ففي الحديث عن أنس (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): «ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى يسأل شسع نعله إذا انقطع» (٤).

بيد أن هناك أموراً عظيمة فيها سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، ولذا ينبغي أن يسأل العبد ربه هذه الأشياء، كالهداية والثبات والمغفرة والعفو والعافية والجنة والاستعاذة بالله من النار ومن درك الشقاء ومن شماتة الأعداء، وجهد البلاء.

(١) أخرجه النسائي وأبو داود وأحمد والحاكم، وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح النسائي ٢٧٩/١.

(٢) أخرجه البخاري برقم / ٦٥٠٢ (باب التواضع). (٣) سورة فاطر / ١٥.

(٤) أخرجه الترمذي وحسنه برقم (٣٦٠٧) (٣٦٠٨) في الدعوات.

فقد كان النبي (ﷺ) يستفتح صلاته بالليل داعياً: «... اهدني لما
اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم» (١).

وأمر عليّ بن أبي طالب (رضي الله عنه) أن يسأل الله الهدى
والسداد: «اللهم إني أسألك الهدى والسداد» (٢).

وعلم الحسن بن علي (رضي الله عنهما) أن يقول في قنوت
الوتر: «اللهم اهدني فيمن هديت» (٣).

ومن خير من يسأل العبد ربّه الثبات على الهداية، فعن أم سلمة
(رضي الله عنها) قالت: كان أكثر دعائه: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي
على دينك»، قالت: قلت: يا رسول الله مال أكثر دعائك «يا مقلب
القلوب ثبت قلبي على دينك»؟ قال: «يا أمّ سلمة إنه ليس آدمي إلا
وقلبه بين أصبعين من أصابع الله فمن شاء أقام، ومن شاء أزاغ» (٤). ومن
أهم ما يسأل العبد ربّه مغفرة الذنوب، عن عبد الله ابن عمر (رضي الله
عنهما) قال: إن كنا لتعد لرسول الله (ﷺ) في المجلس الواحد مائة مرة
يقول: «رب اغفر لي وتب عليّ، إنك أنت التواب الرحيم» (٥).

وقال (ﷺ): «من قال استغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي
القيوم وأتوب إليه غفر له وإن كان فرّ من الزحف» (٦).

(١) رواه مسلم برقم ٧٧٠.

(٢) رواه مسلم برقم ٢٧٢٥.

(٣) أخرجه أصحاب السنن، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ١٤٤/١.

(٤) رواه الترمذي، وأحمد، والحاكم، وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في
صحيح الترمذي ١٧١/٣.

(٥) رواه أبو داود وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح أبي داود، وصحيح ابن ماجه
٣٢١/٢.

(٦) رواه أبو داود والترمذي والحاكم وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح
الترمذي ١٨٢/٣.

وخبر ما يعطى العبد بعد اليقين العافية . عن العباس بن عبد المطلب قال : قلت يا رسول الله علمنى شيئاً أسأله الله ؟ قال : « سل الله العافية » فمكثت أياماً ثم جئت فقلت : يا رسول الله علمنى شيئاً أسأله الله ؟ فقال لى : « يا عباس ، يا عم رسول الله : سل الله العافية فى الدنيا والآخرة » (١) .

وعن أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) أن النبي (ﷺ) قال على المنبر : « سلوا الله العفو والعافية ، فإن أحداً لم يعط بعد اليقين خيراً من العافية » (٢) .

وكان رسولُ الله (ﷺ) يستعيذُ بالله من جهد البلاء ، ودرك الشقاء ، وسوء القضاء ، وشماتة الأعداء .

عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن النبي (ﷺ) « كان يتعوذُ من سوء القضاء ، ومن درك الشقاء ، ومن شماتة الأعداء ، ومن جهد البلاء » (٣) .

ومن أفضل ما يسأل ربّه للآخرة أن يدخله الجنة ، وأن يجيره من النار .

عن أنس (رضي الله عنه) قال : قال : رسول الله (ﷺ) : « من سأل الله الجنة ثلاثَ مراتٍ قالت الجنة : اللهم ادخله الجنة ، ومن استجار من النار ثلاثَ مراتٍ قالت النار : اللهم أجره من النار » (٤) .

فالجنة أعلى المطالب لبقائها وخلودها . ولما فيها من نعيم مقيم بجوار الرحمن وفي رضوانه . وهناك أدعية جامعة شاملة لا ينبغي أن

(١) رواه الترمذي ، وصححه الألباني في صحيح الترمذي ١٧٠ / ٣ .

(٢) رواه الترمذي وابن ماجه ، وحسنه الألباني فى صحيح الترمذي ١٨٠ / ٣ ، وصحيح ابن ماجه (٣٨٤٩) .

(٣) رواه مسلم برقم / ٢٧٠٧ .

(٤) رواه الترمذي وابن ماجه ، وصححه الألباني فى صحيح الترمذي ٣١٩ / ٢ .

يحرم المسلم خيرها وفيوضاتها:

عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: كان رسول الله (ﷺ) يقول: «اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر» (١).

وعن بسر بن أرطاة (رضي الله عنه) قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يدعو: «اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة» (٢).

ومن خير الدعاء دعوة ذى النون: عن سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه) قال قال رسول الله (ﷺ): «دعوة ذى النون إذا دعا وهو في بطن الحوت لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين. لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له» (٣).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية معلقاً على هذا الحديث: لفظ الدعاء والدعوة في القرآن الكريم يتناول معنيين: دعاء العبادة، ودعاء المسألة... وقد سماها رسول الله (ﷺ) في الحديث السابق دعوة، لأنها تتضمن نوعي الدعاء. فقوله لا إله إلا أنت اعتراف بتوحيد الإلهية، وتوحيد الإلهية يتضمن أحد نوعي الدعاء فإن الإله هو المستحق لأن يدعى دعاء عبادة ودعاء مسألة. وهو الله لا إله إلا هو... وقوله: «إني كنت من الظالمين» اعتراف بالذنوب. وهو يتضمن طلب المغفرة، فإن الطالب السائل تارة يسأل بصيغة الطلب، وتارة يسأل بصيغة الخبر، إما

(١) رواه مسلم برقم ٢٧٢٠.

(٢) رواه أحمد ١٨١/٤ وقال الهيثمي: رجال أحمد ثقات.

(٣) أخرجه الترمذي والنسائي والحاكم وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي، وحسنه ابن حجر، وصححه الألباني في صحيح الترمذي ١٦٨/٣.

بوصف حاله وإما بوصف حال المسؤول، وإما بوصف الحالين. كقول نوح (عليه السلام) رب إنني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين» ومن هذا الباب قول أيوب (عليه السلام) «إنني مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين». . وهذا من باب حسن الأدب فى السؤال والدعاء. . فقوله (لا إله إلا أنت) فيه إثبات انفراده بالإلهية. والإلهية تتضمن كمال علمه وقدرته وحكمته، ففيها إثبات إحسانه إلى العباد، وقوله (سبحانك): يتضمن تعظيم الرب وتنزيهه، والمقام يقتضى تنزيهه عن الظلم والعقوبة بغير ذنب، فهو يقول: أنت مقدس ومنزه عن ظلمي وعقوبتي بغير ذنب، بل أنا الظالم الذى ظلمت نفسي ﴿إنى كنت من الظالمين﴾ وهذا اعتراف بالذنب، وهو استغفار (١).

﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴾ (٢).

« اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى » (٣).

« اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك » (٤).

« اللهم إني أسألك يا الله بآنك الواحد الأحد، الصمد، الذى لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، أن تغفر لى ذنوبى، إنك أنت الغفور الرحيم » (٥).

« اللهم أغفر لى، وارحمنى، واهدنى، وعافنى، وارزقنى » (٦).

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، المجلد العاشر، ص ٢٣٧، ص ٢٥٥ بتصرف.

(٢) سورة إبراهيم / ٤٠. (٣) رواه مسلم ٢٠٨٧ / ٤.

(٤) رواه مسلم ٢٠٤٥ / ٤.

(٥) سبق تخريجه.

(٦) رواه مسلم ٢٠٧٢ / ٤.

« اللهم إنك عفوٌ كريمٌ تحبُّ العفوَ فاعفُ عني » (١).

« اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة » (٢).

« اللهم إني أسألك من الخير كله عاجله وآجله ما علمتُ منه وما لم أعلم، وأعوذ بك من الشرِّ كله عاجله وآجله ما علمتُ منه وما لم أعلم. اللهم إني أسألك من خير ما سألك عبدك ونبيك، وأعوذ بك من شرِّ ما عاذ منه عبدك ونبيك. اللهم إني أسألك الجنة، وما قرَّب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار، وما قرَّب إليها من قول أو عمل، وأسألك أن تجعل كل قضاء قضيته لي خيراً » (٣).

« اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك. المنان يا بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام يا حي يا قيوم، إني أسألك الجنة وأعوذ بك من النار » (٤).

* * *

(١) رواه الترمذی، وصححه الألبانی فی صحیح الترمذی ١٧٠ / ٣.

(٢) انظر صحیح الترمذی ١٧٠ / ٣، ١٨، ١٨٥.

(٣) رواه ابن ماجه وأحمد والحاكم وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألبانی فی صحیح ابن ماجه ٣٧٧ / ٢.

(٤) سبق تخريجه.

الحاسب الحسيب الوكيل

٩٦

٩٥

٩٤

الحسيب في اللغة على أوجه ثلاثة، الحسيب: المحاسب على الشيء، الموافق عليه. فالله (عزّ وجلّ) حسيب عباده أي محاسبهم على أعمالهم، ومجازيهم عليها والحسيب: الكفي، يقال: «هذا حسيب فلان» أي كفيه، ويقال: «حسبك كذا» أي يكفيك، ومنه قوله (عزّ وجلّ): ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١). أي يكفيك الله ومن اتبعك من المؤمنين. والحسيب في غير هذا: الرجل: الشريف الكريم الذي يعد لنفسه آباء كراماً، ومآثر حسنة كأنه من الحساب (٢).

فأله (عزّ وجلّ) هو الحاسب الحسيب الذئ يحاسب خلقه يوم لقائه، على أعمالهم فيثيب الطائعين، ويعاقب العصاة والمجرمين. قال تعالى: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ (٣).

وهو سبحانه وتعالى الحسيب الكافي لعباده، وهو الحسيب الذئ عليه الاعتماد وليس في الوجود حسيب سواه. فهو الذي يكفي عباده بفضلله، ويصرف الآفات بطوله، وإذا رفعت إليه الحوائج قضاه، وإذا حكم في قضية أبرمها وأمضاها.

وهو سبحانه الحسيب الذئ انتهى إليه كل شرف في الوجود له صفات الكمال والجلال والجمال. قال ابن القيم (رحمه الله):

وهو الحسيبُ حماية وكفاية والحسبُ كما في العبد كلّ أوانٍ

(١) سورة الأنفال/ ٦٤.

(٢) سورة النساء/ ٦.

(٣) الزجاجي، مرجع سابق، ص ١٢٩.

(فالحسب) هو الكافي للعباد جميع ما أهمهم في أمر دينهم ودنياهم من حصول المنافع ودفع المضار . والحسب بالمعنى الأخص هو الكافي لعبده المتقنى المتوكل عليه كفاية خاصة يصلح بها دينه ودنياه . والحسب أيضاً هو الذي يحفظ أعمال عباده من خير وشر ويحاسبهم ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر . قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١) . أي كافيك وكافي أتباعك فكفاية الله لعبده بحسب ما قام به من متابعة الرسول ظاهراً وباطناً وقيامه بعبودية الله تعالى (٢) .

وقد ورد اسما الحاسب والحسب في القرآن الكريم خمس مرات :

قال تعالى : ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ (٣) .

﴿وإن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (٤) .

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ (٥) .

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ (٦) .

﴿الَّذِينَ يَلْعَنُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ (٧) .

فهو سبحانه وتعالى الحسب المحاسب الشاهد الرقيب الكافي الناصر المعين (٨) .

والوكيل : فعيل من قولك وكّلت أمري إلى فلان وتوكل به أي

(١) سورة الأنفال / ٦٤ . (٢) عبد الرحمن آل سعدى ، الحق الواضح المبين ، ص ٧٨ .

(٣) سورة الأنعام / ٦٢ . (٤) سورة الأنبياء / ٤٧ .

(٥) سورة النساء / ٦ . (٦) سورة النساء / ٨٦ .

(٧) سورة الأحزاب / ٣٩ . (٨) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم . ج ٣ ، ص ٤٩٢ .

جعلته يليه دوني وينظر فيه . فאלله (عز وجل) وكيل عباده أي كافيهم أمورهم وأسبابهم^(١) .

فهو سبحانه وتعالى الوكيل أي الكفيل بأرزاق العباد، والقائم عليهم بمصالحهم .

وهو سبحانه الوكيل الذي يتولى بإحسانه أمور عباده المتقين ، الذين يلجأون إليه ويعتمدون عليه ، فيكفيهم ويغنيهم ويرضيهم .

والمتوكلون يكلون كل أمورهم إلى الوكيل سبحانه وتعالى ، وهو سبحانه وتعالى يكفيهم ويدبر أمورهم ويحفظهم ويرعاهم وينصرهم ويسددهم . فهو القادر على كل شيء ، ولا يعجزه شيء ، وهو الحي القيوم الذي لا يموت .

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾^(٢) .

وفرق الراغب الأصفهاني بين الوكيل والكفيل فقال : وربما فُسر الوكيل بالكفيل والوكيل أعم من الكفيل لأن كل كفيل وكيل وليس كل وكيل كفيلًا^(٣) .

وقد ورد اسم الوكيل في القرآن الكريم أربع عشرة مرة :

قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾^(٤) .

﴿ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾^(٥) .

﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾^(٦) .

(١) الزجاجي ، مرجع سابق ، ص ١٣٦ .

(٢) سورة الفرقان / ٥٨ . (٣) الراغب الأصفهاني ، مرجع سابق ، ص ٥٣٢ .

(٤) سورة آل عمران / ١٧٣ . (٥) سورة هود / ١٢ .

(٦) سورة النساء / ٨١ .

﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ (١).

وآثار الحسيب الوكيل فى الحياة والوجود لا تعد ولا تحصى . فهو سبحانه المتكفل بأرزاق مخلوقاته فهو الذى يرزقهم ويكلّهم بالليل والنهار . وهو الذى ينصر عباده الطائعين ويؤيدهم ويحفظهم . فما على الأرض من رزق شامل لجميع الأحياء ، وإعاشة كريمة لطيفة إنما هو أثر من آثار الحسيب الوكيل سبحانه وتعالى . فإخراج الأقوات والثمار والحبوب والفواكه متلاحقة متتابعة متنوعة متوافقة مع مصالح وحاجة المقتاتين تدل دلالة قاطعة على عظم آثار الحسيب الوكيل (سبحانه وتعالى) .

ثم إنّ هذه الأقوات تأتى منصحوبة بمنافع أخرى للأحياء من العصف ، والخشب والورق والعشب وغيرها ، وهذه تستخدم ، كعلف للبهائم ، وأدوات للبناء والترحال وأوانى للاستخدام ، ثم هذه الأقوات وتلك المنافع تساق فى منظر بهيج يشوق الناظرين ، فالثمار مثلاً مختلفة الأنواع والأشكال والمقادير والألوان والروائح والمنافع :

﴿ أَمِنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا إِلَهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ (٢) .

﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لِبَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٣) .

فمن الذى سخر هذه الأشجار والنباتات الشمس والرياح وأنزل

(١) سورة المزمل / ٩ .

(٢) سورة النمل / ٦٠ .

(٣) سورة الرعد / ٤ .

عليها المطر ودفع عنها الآفات؟

ثم تأمل البركة والنماء في الزرع حتى صارت الحبة تنبت سبعمئة حبة، ولو أنبتت الحبة حبة واحدة لماتت المخلوقات جوعاً. ولما وجدت القوات.

ويصحبنا ابن القيم (رحمه الله) في رحلة ممتعة مع النخلة وما أودعه الله (عز وجل) فيها من منافع. فهى شجرة أصلها ثابت فى الأرض مستقر فيها، وثمرتها طيبة حلوة، ولباسها دائم وزيتها فلا يسقط عنها صيفاً ولا شتاءً. وثمرتها من أنفع ثمار العالم فإنه تؤكل رطبة فاكهة، وحلاوة يابسة، يكون قوتاً وأدماً وفاكهة، ويتخذ منه الخل والناطف والحلوى. ويدخل فى الأدوية والأشربة وعموم المنفعة به فوق كل الثمار، وهى سهلة التناول فقصيرها لا يحوج المتناول أن يرقاها، وبأسقها سهل الصعود لما هيئت من مراقى ودرج. وهى كلها منفعة لا يسقط منها شئ بغير منفعة فثمرتها منفعة، وجذعها فيه من المنافع ما لا يجهل للأبنية والسقوف وغير ذلك. وسعفا تسقف به البيوت، مكان القصب، ويستر به الفرج والخلل، وخواصها يتخذ منه المكاتل والزنايل وأنواع الآنية والحصر وغيرها، وليفها وكربها فيه من المنافع ما هو معلوم عند الناس (١).

فأساسيات حياة المخلوقات تكفل بها الحسيب الكفيل وفى سورة الواقعة إشارة واضحة إلى ذلك.

قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (٦٧) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٨) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٩) إِنَّا لَمَغْرُمُونَ (٧٠) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٧١) أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٧٢) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (٧٣)﴾

(١) ابن القيم الجوزية، مفتاح دار السعادة ج١، ص ٢٨٨: ص ٢٩٠ (بتصرف).

(٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠) أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَنَّكُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَرَةً وَنَمَتًا لِلْمُقْوِينَ (٧٣) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿١﴾ .

فالآيات السابقة تضمنت أساسيات الحياة من غذاء وهواء وكساء يأتي من الزرع وماء ينزل من السحاب، ونار توقد من الأشجار، فمن الذي تكفل بكل هذه الأساسيات؟

وفي الحديث الصحيح، قال رسول الله (ﷺ) فيما يرويه عن ربِّ العزة (سبحانه وتعالى): «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا، يا عبادي كلِّم ضالاً إلا من هديته فاستهدوني أهدكم. يا عبادي كلِّم جائعاً إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلِّم عارٍ إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم» (٢).

قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٣).

فما من دابة تدب في الأرض تكمن في باطنها أو تتخفى في دروبها ومسارها إلا ويعلمها الله (عز وجل)، وعليه رزقها، وهو يعلم أين تستقر وأين تكمن، من أين تجيء وأين تذهب. فكل هذا الحشد الهائل من المخلوقات التي تدب في الأرض لا متكفل برزقه إلا الله (عز وجل).

قال سيد قطب (رحمه الله):

-
- (١) سورة الواقعة/ ٦٣ : ٧٤ .
(٢) جزء من حديث رواه مسلم (٢٥٧٧) .
(٣) سورة هود/ ٦ .

وقد أوجب الله سبحانه على نفسه مختاراً أن يرزق هذا الحشد الهائل الذى يدب على هذه الأرض . فأودع هذه القدرة على تلبية حاجات هذه المخلوقات جميعاً . وأودع هذه المخلوقات القدرة على الحصول على رزقها من هذا المودع في الأرض في صورة من صورته . شاذجاً خامه ، أو منتجاً بالزرع ، أو مصنوعاً أو مركباً إلى آخر هذه الصور المتجددة لإنتاج الرزق وإعداده حتى إن بعضها ليتناول رزقه دماً حياً مهضوماً ممثلاً كالبعوض والبرغوث ^(١) .

فلكل مخلوق رزق مذكور ومقدر في هذا الكون ، فمن الذى تكفل بأرزاق هذه المخلوقات ، وجعل فيها الكفاية لهم ؟ وما توكل أحد على الله (عز وجل) إلا حفظه وكفاه وأعان وقواه ، لأنه (سبحانه وتعالى) لا يعجزه شئ ، وهو على كل شئ قدير . قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ ^(٢) .

عن ابن عباس (رضى الله عنهما) قال : « حسبنا الله ونعم الوكيل ، قالها إبراهيم (عليه السلام) حين ألقى في النار ، وقالها محمد (ﷺ) حين قالوا : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً . وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » ^(٣) .

فإبراهيم (عليه السلام) جابه قومه بالتوحيد : ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾ ^(٤) أف لكم ولما تعبدون من دونه أفلا تعقلون ^(٤) .

(١) سيد قطب ، مرجع سابق ، ص ١٨٥٦ .

(٢) سورة الطلاق / ٣ .

(٣) رواه البخاري ٨ / ١٧٢ .

(٤) سورة الأنبياء / ٦٦ ، ٦٧ .

فأخذتهم العزة بالإثم حين فقدوا الحجة فلبجأوا إلى القوة الغاشمة والعذاب الشديد ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (١). فالإلى من يلجأ إبراهيم (عليه السلام) ليس له إلا خالقه ورازقه ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ فجاءت الكلمة العليا فأبطلت كل كلمة ، وأحبطت كل كيد : ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ (٢٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ (٢).

وبعد غزوة أحد والمسلمون مشخنون بجراحاتهم ترامت إلى أسماعهم مقالة أن أبا سفيان وقريشاً قد جمعوا جموعهم ليكروا على المسلمين كرة أخرى وهم في شدتهم والمسلمون في ضعفهم بعد هزيمة أحد فدعا الرسول (ﷺ) المسلمين إلى الخروج معه مرة أخرى فاستجابوا لله والرسول غير مباينين بمقالة الناس لأنهم متوكلون على الله وحده . فهم لا يعرفون غيره وكيلاً ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (٣).

حسبنا الله أي كافينا وحافظنا وهو نعم الوكيل الذي توكل إليه الأمور ، لأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء فهو الذي ينصرنا على عدونا مع قلتنا وكثرتهم فجاءت النتيجة المتوقعة الواقعة وهي سنة من سنن الله (عز وجل) لا تتخلف ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ جاءت النتيجة : ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ (٤) . لقد أصابوا النجاة . لم يمسه سوء . ونالوا رضوان الله ، وعادوا بالفضل العظيم من الحسيب الوكيل .

(١) سورة الأنبياء / ٦٨ .

(٢) سورة الأنبياء / ٦٩ ، ٧٠ .

(٣) سورة آل عمران / ١٧٣ .

(٤) سورة آل عمران / ١٧٤ .

عن أبى بكر الصديق (رضى الله عنه) قال: نظرت إلى أقدام المشركين ونحن في الغار وهم على رؤوسنا فقلت: يا رسول الله لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا. فقال: «ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما» (١).

قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢).

لقد هدّى الرسول (ﷺ) روح أبى بكر بكلمة ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ معنا بنصره وعونه وتأييده. فكانت النتيجة نزول السكينة، وتأييده بجنود لم يرها الناس، والهزيمة والذل والصغار للكفار ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى﴾ وظلت كلمة الله في مكانها العالى منتصرة قوية ﴿وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾.

ويعقوب (عليه السلام) لم يجد بداً من إرسال ابنه (شقيق يوسف) مع إخوته وأخذ عليهم الموثق فلما آتوه موثقهم جعل الله وكيلاً على كلامهم: ﴿قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ (٣). فجمع الله عز وجل بينه وبين ابنه يوسف وأخيه ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبْوِيهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مَعِيَ فِي الْمِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ (٩٩) ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً وقد أحسن بي إذ أخرجني من

(١) رواه البخارى (١٠) ومسلم (٢٣٨١).

(٢) سورة التوبة / ٤٠.

(٣) سورة يوسف / ٦٦.

السَّجْنُ وَجَاءَ بِكُمْ مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ .

فالتوكل على الله (عز وجل) نصف الدين، والنصف الآخر «الإِثَابَةُ» فَإِنَّ الدين استعانة وعبادة، فالتوكل هو الاستعانة، والإِثَابَةُ هي العبادة . . ومنزلته من أوسع المنازل وأجمعها، وهي معمورة بالنازلين، لسعة متعلق التوكل، وكثرة حوائج العالمين، وعموم التوكل، وإن تباين متعلق توكلهم . فأولياؤه وخاصته يتوكلون عليه في الإيمان، ونصرة دينه، وإعلاء كلمته، وجهاد عدوه، وفي محابه وتنقيذ أوامره . ودون هؤلاء من يتوكل عليه في استقامته في نفسه، وحفظ حاله مع الله، فارغاً عن الناس . ودون هؤلاء من يتوكل عليه في معلوم يناله منه من رزق أو عافية، أونصر على عدو، أو زوجة أو ولد، ونحو ذلك، ودون ذلك من يتوكل عليه في حصول الإِثْمِ والفواحش . فَإِنَّ أصحاب هذه المطالب لا ينالونها غالباً إلا باستعانتهم وتوكلهم عليه . بل قد يكون توكلهم أقوى من توكل كثير من أصحاب الطاعات . ولهذا يلقون أنفسهم في المتالف والمهالك، معتمدين على الله أن يسلمهم، ويظفرهم بمطالبهم . . ومن صدق توكله على الله في حصول شيء ناله فإن كان محبوباً كانت عاقبته إلى خير وإن كان مبغوضاً كان وبال ذلك عليه (١) .

والتوكل اعتماد على الوكيل (سبحانه)، وهو تسليم وتفويض إليه، فالعبد يفوض ربه في أموره ومصالحه مع قيامه بعبوديته . وقد أمر الله عز وجل رسوله به ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ (٣) .

(١) سورة يوسف/ ٩٩-١٠٠ .

(٢) ابن القيم الجوزية، مدارج السالكين، ج٢، ص ١١٢، ص ١١٤ .

(٣) سورة المزمل/ ٩ .

ونفى سبحانه وتعالى الإيمان عند انتفاء التوكل، فمن لا توكل له لا إيمان له قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١). وقال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (٢).

وكان رسول الله (ﷺ) متوكلاً على ربه أعظم التوكل، ومن أسمائه (ﷺ) المتوكل. وقد قال الله له: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ (٣).

قال ابن القيم رحمه الله: «وفي ذكر أمره بالتوكل، مع إخباره بأنه على الحق: دلالة على أن الدين بمجموعة في هذين الأمرين: أن يكون العبد على الحق في قوله وعمله، واعتقاده ونيته، وأن يكون متوكلاً على الله واثقاً به. فالدين كله في هذين المقامين. وقال رسول الله ﷺ وَمَا لَنَا أَلَّا تَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ (٤). فالعبد آفته: إما من عدم الهداية، وإما من عدم التوكل، فإذا جمع التوكل إلى الهداية فقد جمع الإيمان كله (٥).

ومن ثمرات التوكل الحق دخول الجنة بغير حساب، عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: قال رسول الله (ﷺ): «عرضت علي الأم، فرأيت النبي ومعه الرهيط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد إذ رفع لي سواد عظيم فظننت أنهم أمتي، فقل لي: هذا موسى وقومه، ولكن انظر إلى الأفق الآخر، فإذا سواد عظيم، فقل لي: هذه أمتك هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير

(١) سورة المائدة / ٢٣.

(٢) سورة إبراهيم / ١٣.

(٣) سورة النمل / ٧٩.

(٤) سورة إبراهيم / ١٢.

(٥) ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين، ج ٢، ص ١٢٧.

حساب ولا عذاب» ثم نهض فدخل منزله ، فخاض الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ، فقال بعضهم : فلعلهم الذين صحبوا رسول الله (ﷺ) ، وقال بعضهم فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام ولم يشركوا بالله شيئاً ، وذكروا أشياء . فخرج عليهم رسول الله (ﷺ) فقال : « ما الذي تخوضون فيه ؟ » فأخبروه فقال : « هم الذين لا يرقون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون » فقام عكاشة بن محصن فقال : ادع الله أن يجعلني منهم ، فقال : « أنت منهم ثم قام رجل آخر ، فقال ادع الله أن يجعلني منهم فقال : « سبقك بها عكاشة » (١) .

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي (ﷺ) قال : « يدخل الجنة أقوامٌ أفئدتهم مثل أفئدة الطير » (٢) . قيل معناه : المتوكلون أصحاب القلوب الرقيقة .

وقد علمنا رسول الله (ﷺ) أن نتوكل على الله في كل أمورنا في الحركة والسكون وفي جميع الأمور : عن أم المؤمنين أم سلمة (رضي الله عنها) أن النبي (ﷺ) كان إذا خرج من بيته قال : « بسم الله ، توكلت على الله ، اللهم إني أعوذ بك أن أضل أو أضل ، أو أزل أو أزل ، أو أظلم أو أظلم ، أو أجهل أو يُجهل علي » (٣) .

وعن أبي عمار البراء بن عازب (رضي الله عنهما) قال : قال رسول الله (ﷺ) : « يا فلان إذا أويت إلى فراشك فقل : اللهم أسلمت

(١) أخرجه البخاري ومسلم ، وقد أورده البخاري في (١٠ / ١٣٠) ، ومسلم برقم (٢٢٠) .

(٢) أخرجه مسلم برقم ٢٨٤ .

(٣) رواه أبو داود برقم (٥٠٩٤) والترمذي برقم (٣٤٢٣) وقال : حديث حسن صحيح .

نفسى إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وأجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك. آمنت بكتابك الذي أنزلت، ونبئك الذي أرسلت، فلأنك إن مت من ليلتك مت على الفطرة، وإن أصبحت أصبت خيراً» (١).

وعن ابن عباس (رضي الله عنهما) أن رسول الله (ﷺ) كان يقول: «اللهم لك أسلمت وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت. اللهم إني أعوذ بعزتك، لا إله إلا أنت أن تضلني، أنت الحي الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون» (٢).

والتوكل الحق له أسس وقواعد لا بد من توافرها حتى يؤتى ثماره ومن هذه الأسس (٣):

أولاً: معرفة الرب الوكيل معرفة صحيحة: صفاته، قدرته، كفايته، وقيوميته، انتهاء الأمور إلى علمه، وصدورها عن مشيئته وقدرته، وهذه المعرفة أول درجة في مقام التوكل.

ثانياً: إثبات الأسباب والمسببات. فنفي الأسباب يقدر في التوكل، بل لا يستقيم معه توكل. لأن التوكل من أقوى الأسباب في حصول المتوكل فيه، فهو كالدعاء الذي جعله الله سبباً في حصول المدعوه. فمن ترك الأسباب فالبهائم أفقه منه لأنها تسعى في السبب بالهداية العامة من الله لها. فمن أنكر الأسباب لم يستقم له توكل. وقد كان رسول الله ﷺ أعظم المتوكلين ويأخذ بالأسباب فقد استأجر دليلاً مشركاً على دين قومه يدلّه على طريق الهجرة وقد هدئ الله به العالمين

(١) رواه البخاري ٩٣/١، ومسلم برقم (٢٧١٠).

(٢) رواه البخاري (١٠١)، ومسلم برقم (٢٧١٧).

(٣) ابن القيم الجوزية، المرجع السابق، ص ١١٧: ص ١٢٣ بصرف.

وعصمه من الناس أجمعين . وكان يدخر لأهله قوت سنة وهو سيد المتوكلين ، وكان إذا سافر في جهاد أو حج أو عمرة حمل الزاد والمزاد وجميع أصحابه . فالتوكل مجتهد في الأسباب المأمور بها غاية الإجهاد .

ولكن من تمام التوكل عدم الركون إلى الأسباب ، وقطع علاقة القلب بها .

فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها ، وحال بدنه قيامه بها فالقلوب تتوكل والجوارح تعمل .

ثالثاً: تجريد التوحيد : فلا يستقيم توكل العبد حتى يصلح له توحيده ، بل حقيقة التوكل : توحيد القلب . فما دامت فيه علائق الشرك ، فتوكله معلول مدخول ، وعلى قدر تجريد التوحيد تكون صحة التوكل ، فإن العبد متى التفت إلى غير الله أخذ ذلك الالتفات شعبة من شعب قلبه ، فنقص من توكله على الله بقدر ذهاب تلك الشعبة .

رابعاً: اعتماد القلب على الله ، واستناده إليه ، وسكونه إليه ، واستسلامه بين يديه : بحيث لا يبقى فيه اضطراب من تشويش الأسباب ، ولا سكون إليها . بل يخلع السكون إليها من قلبه ، ويلبسه السكون إلى مسببها . لأن اعتماده على الله وسكونه إليه قد حصنه من خوفها ورجائها ، فحاله حال من خرج عليه عدو عظيم لا طاقة له به فرأى حصناً مفتوحاً فأدخله ربه إليه ، وأغلق عليه باب الحصن ، فهو يشاهد عدوه خارج الحصن ، فاضطراب قلبه وخوفه من عدوه في هذه الحال لا معنى له . وقد قيل : المتوكل كالطفل لا يعرف شيئاً يأوي إليه إلا ثدي أمه ، كذلك المتوكل لا يأوي إلا إلى ربه . ويستسلم القلب للرب كتسليم العبد الذليل نفسه لسيده ، وانقياده له .

خامساً: حسن الظن بالله (عزّ وجلّ): فعلى قدر حسن ظنك بربك، ورجائك له، يكون توكلك عليه. ولذلك فسر بعضهم التوكل بحسن الظن بالله. وحسن الظن هو الذي يدعوك إلى التوكل عليه إذ لا يتصور أن تتوكل على من ساء ظنك به، أو انقطع رجاؤك فيه.

سادساً: التفويض والرضى: والتفويض هو روح التوكل ولّبه وحقيقته، وهو إلقاء أموره كلّها إلى الله وإنزالها به طلباً واختياراً، لا كرهاً واضطراً. بل كتفويض الابن العاجز الضعيف المغلوب على أمره، كل أموره إلى أبيه، العالم بشفقته عليه ورحمته، وتمام كفايته، وحسن ولايته له، وتديبره له. فهو يرى أن تدبير أبيه له خير من تدبيره لنفسه. وقيامه بمصالحه وتوليّه لها خير من قيامه هو بمصالح نفسه وتوليّه لها. فهو يعلم كمال علم من فوض إليه وقدرته وشفقته. ثم ينتقل من التفويض إلى الرضى، وهو ثمرة التوكل فإنه إذا توكل حق التوكل رضى بما يفعله وكيله..

وفى دعاء الإستخارة «اللهم إنى أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم» فهذا توكل وتفويض. ثم «فإنك تعلم ولا أعلم، وتقدر ولا أقدر، وأنت علام الغيوب» فهذا تبرؤ إلى الله من العلم والحول والقوة، وتوسل إليه سبحانه بصفاته التي هي أحب ما توسل إليه بها المتوسلون. ثم يسأل ربه أن يقضى له ذلك الأمر إن كان فيه مصلحته عاجلاً، أو أجلاً، وأن يصرف عنه إن كان فيه مضرته عاجلاً، أو أجلاً. فهذا هو حاجته التي سألها. فلم يبق عليه إلا الرضى بما يقضيه له فيقول «واقدر لى الخير حيث كان ثم رضنى به»

فقد اشتمل هذا الدعاء على توكل وتفويض قبل وقوع المقدور، ورضى بعده وهو ثمرة التوكل فإن لم يرض بما قضى له فتفويضه معلول فاسد.

والله (عز وجل) حسيبٌ سيحاسبُ الخلائق في يوم القيامة . فلا بدّ أن يحاسبَ المسلم نفسه قبل أن يحسابه ربه . قال الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١) . فقلوه تعالى ﴿وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ﴾ هو أمر بالمحاسبة للنفس على ما قدمت لغدها المنتظر . وروى عن عمر (رضي الله عنه) قوله : «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وتزينوا للعرض الأكبر وإنما يخف الحساب يوم القيامة على من حاسب نفسه في الدنيا» (٢) .

فينظر المسلم في أعماله كل يوم ويحاسب نفسه في هذه الأعمال ، هل أدى الفرائض كاملة؟ أم منقوصة؟ وماذا يجب عليه ليسد خللها؟ أى المعاصي ارتكبها؟

هل استغفر منها أم لا؟ هل أدى عمله بإتقان أم أهمل في أداء واجبه؟ وماذا يجب عليه لرأب الصدع وسد الخلل فيه؟ هل أعان على فعل الخيرات أم كان عضداً لارتكاب المنكرات؟ كم ربح اليوم من عمل صالح يبيض صحيفته أمام الله (عز وجل) به؟

وكم خسر من الأعمال؟ ثم يتوب ويستغفر الله (عز وجل) على تفريطه وقد كان رسولنا ﷺ يحاسب نفسه ويستغفر الله عز وجل إذا فتر عن ذكر (الله عز وجل) .

عن الأغر المزني (رضي الله عنه) أن رسول الله ﷺ قال : «إنه ليغان على قلبي، وإنى لأستغفر الله في اليوم مائة مرة» (٣) .

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال : سمعت رسول الله ﷺ

(١) سورة الحشر ١٨ .

(٢) رواه الترمذي برقم ٢٥٧٧ موقوفاً على عمر .

(٣) رواه مسلم وأحمد وأبو داود والنسائي ، والمقصود بالغين الفتور عن الذكر أحياناً .

يقول: «والله إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة»^(١).

ومن كلام الصالحين: «من لم يزن أفعاله وأحواله فى كل وقت بالكتاب والسنة ولم يتهم خواطره، فلا تعده فى ديوان الصالحين»^(٢).

وكان عمر (رضى الله عنه) يضرب قدميه بالدرة إذا جثَّ الليل ويقول لنفسه: ماذا عملت اليوم؟ وقال ميمون بن مهران: لا يكون العبد من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة شريكه، والشريكان يتحاسبان بعد العمل^(٣).

وقال الحسن فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ قال: لا يلقي المؤمن إلا يعاتب نفسه، ماذا أردت بكلمتي؟ وماذا أردت بأكلتي؟ ماذا أردت بشربتي؟ والفاجر يمضى قدماً لا يعاتب نفسه.

عن معاذ بن عون الضرير قال: كنت أكون قريباً من الجبان فكان يمر بى رياح القيسى بعد المغرب إذا خلت الطريق فكنت أسمعه وهو يتشنج بالبكاء ويقول: إلى كم يا ليل يا نهار تحطان من أجلي وأنا غافل عما يراد بى؟ إنا لله إنا لله فهو كذلك حتى يغيب عنى وجهه.

وعن على بن الحسين بن أبي مریم قال: قال رياح القيسى: لى نيف وأربعون ذنباً قد استغفرت لكل ذنب مائة ألف مرة.

وعن مالك بن ضيغم قال: جاء رياح القيسى يسأل عن أبي بعد العصر فقلنا هو نائم. فقال: أنوم فى هذه الساعة؟ أهذا وقت نوم؟ ثم لى منصرفاً فأتبعناه رسولاً فقلنا: قل له ألا نوقظه لك؟ قال: فأبطأ

(١) رواه البخارى والنسائى والترمذى.

(٢) أبو الفرج بن الجوزى، مرجع سابق، ج ٤، ص ١٢.

(٣) رواه الترمذى فى كتاب القيامة من قول ميمون بن مهران.

علينا الرسول . ثم جاء وقد غربت الشمس فقلنا : أبطأت جداً . فهل قلت له ؟ قال : هو كان أشغل من أن يفهم عنى شيئاً ، أدركته وهو يدخل المقابر وهو يعاتب نفسه ويقول : قلت : نوم هذه الساعة ؟ أفكان هذا عليك ؟ ينام الرجل متى شاء . وقلت : هذا وقت نوم ؟ وما يدريك أن هذا ليس بوقت نوم ؟ تسألين عما لا يعنيك وتتكلمين بما لا يعنيك ، أما إن لله علي عهداً لا أنقضه أبداً ألا أوسلك التراب لنوم حولاً إلا لمرض حائل أو لذهاب عقل زائل ، سوءة لك سوءة لك ، أما تستحين ؟ كم توبخين وعن غيبك لا تنتهين ؟ قال وجعل يبكي وهو لا يشعر بمكانى . فلما رأيت ذلك انصرفت وتركته (١) .

وقال أحد الصالحين لو أن الإنسان إذا وقع في الحرام وقصر في الطاعات ، رمى بكل وقعة وتقصير حجراً في داره لامتلات في وقت قصير ، ليرى كم هو متمادي في الخطأ والتقصير ، والإنسان لم يخلق عبثاً ولن يترك سدى وإنما هو حساب وثواب وعقاب ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ (٢) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿ (٢) .

فهناك حفظة يدونون ميثقال الذر ، ويعدون صحائف الحساب التي لا تغادر صغيرة ولا كبيرة :

قال تعالى : ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (٣) .

فالسعيد من حاسب نفسه قبل أن يحاسبه الحسيب ، والشقي من

(١) أبو الفرج بن الجوزي ، مرجع سابق ، ج٤ ، ص ٣٦٧ ، ص ٣٦٨ .

(٢) سورة الزلزلة / ٨ ، ٧ .

(٣) سورة الكهف / ٤٩ .

تعامى عن أخطائه وزلاته وهام في الحياة دون رقيب .

«اللهم لك أسلمت وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ،
وبك خاصمت»

اللهم إنى أعوذ بعزتك ، لا إله إلا أنت أن تضلنى ، أنت الحى الذى
لا يموت والجن والإنس يموتون» (١) .

﴿حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (٢) .

«اللهم حاسبنى حساباً يسيراً» (٣) .

* * *

(١) رواه البخاري (١٠)، ومسلم (٢٧١٧) .

(٢) سورة التوبة/ ١٢٩ .

(٣) رواه أحمد ٤٨/٦ والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي ٢٥٥ / ١ .

الهادي المبين

٩٧ ٩٨

الله عز وجل هو الهادي يهدي ويرشد عباده إليه ويدلهم عليه وعلى سبيل الخير والأعمال المقربة إليه (١).

فهو سبحانه وتعالى الذي يهدي ويرشد خلقه إلى جميع المنافع، وإلى دفع المضار، ويعلمهم ما لا يعلمون، ويوفق الصالحين ويسددهم، ويلهمهم التقوى، ويجعل قلوبهم إليه منيعة، ولاوامره منقادة. فهو الهادي (سبحانه) الهادي الذي يهدي القلوب إلى معرفته، ويهدي النفوس إلى طاعته. والهداية دلالة بلطف، وهي أربعة أنواع:

الهداية الأولى: هداية عامة تشترك فيها المخلوقات، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ (٢). أي أعطى كل شيء صورته التي لا يشبه فيها غيره وأعطى كل عضو شكله وهيأته، وأعطى كل موجود خلقه المختص به ثم هداه إلى ما خلقه له من الأعمال.

ومن أمثلة هذه الهداية: هداية الحيوان المتحرك بإرادته إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره. وهداية الجماد المسخر لما خلق له فله هداية تليق به، وإن اختلفت أنواعها وصورها.

وكذلك كل عضو له هداية تليق به فهدي الرجلين للمشى واليدين للبطش والعمل، واللسان للكلام، والأذن للاستماع، والعين لكشف

(١) الزجاجي، مرجع سابق، ص ١٨٧.

(٢) سورة طه/ ٥٠.

المرئيات وكلّ عضو لما خلق له . وهدى الزوجين من كلّ حيوان إلى الأزواج والتناسل وتربية الولد، وهدى الولد التقام الثدي وهدى النحل إلى أن تتخذ من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومن الأبنية . . . ومن تأمل بعض هدايته المبتوثة في العالم شهد له بأنه الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم وانتقل من معرفة هذه الهداية إلى إثبات النبوة بأيسر نظر . . . فإن من لم يهمل هذه الحيوانات ولم يتركها سدئ بل هداها هذه الهداية التي تعجز عقول العقلاء عنها، كيف يليق به أن يترك النوع الإنسانى الذي هو خلاصة الوجود الذي كرمه وفضّله على كثير من خلقه سهماً وسدئ لا يهديه إلى أقصى كمالاته وأفضل غاياته ؟ .

الهداية الثانية : هداية البيان والدلالة والتعريف بطريقى الخير والشر، طريقى النجاة والهلاك . وهذه الهداية لا تستلزم الهدى التام فإنها سبب وشرط لا موجب ولهذا ينبغى الهدى معها كقوله تعالى : ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ (١) . أى بينا لهم وأرشدناهم ودللناهم فلم يهتدوا . ومنها قوله : ﴿وَأَنكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٢) ، ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ (٣) .

الهداية الثالثة : هداية التوفيق والإلهام، وهى الهداية المستلزمة للاهتمام فلا يتخلف عنها، وهى المذكورة في قوله تعالى : ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ (٤) .

(١) سورة فصلت/ ١٧ .

(٢) سورة الشورى/ ٥٢ .

(٣) سورة السجدة/ ٢٤ .

(٤) سورة النحل/ ٩٣ .

وفى قوله ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ (١). وفى قوله ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ (٢)، ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ (٣)، ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ (٤)، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ (٥).

الهداية الرابعة: الهداية إلى الجنة والنار إذا سيق أهلها إليهما: قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ (٦). وقال أهل الجنة فيها: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ (٧).

وقال تعالى عن أهل النار: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ (٨) (٩).

وكل هداية أثبتها الله عز وجل للنبي ﷺ والبشر فمقصود بها النوع الثاني الخاص بهداية البيان والدلالة. وكل هداية نفاها الله (عز وجل) عن النبي ﷺ فهي تدخل تحت الأنواع الثلاثة الأخرى الخاصة بالهداية العامة، وهداية التوفيق والإلهام، والهداية في الدار الآخرة. إذ لا يقدر أحد على هذه الأنواع إلا الله (عز وجل).

وقد ورد اسم الهادي مرتين في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٠). ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ (١١).

- | | |
|--|------------------------|
| (١) سورة النحل / ٣٧. | (٢) سورة القصص / ٥٦. |
| (٣) سورة محمد / ١٧. | (٤) سورة التغابن / ١١. |
| (٥) سورة العنكبوت / ٦٩. | (٦) سورة يونس / ٩. |
| (٧) سورة الأعراف / ٤٣. | (٨) سورة الصافات / ٢٣. |
| (٩) ابن القيم الجوزية، بدائع الفوائد، ج ٢، ص ٣٥؛ ص ٣٩. | |
| (١٠) سورة الحج / ٥٤. | |
| (١١) سورة الفرقان / ٣١. | |

أما المبين فهو اسم فاعل من أبان يبين فهو مبين إذا أظهر وبين إما قولاً وإما فعلاً فالله سبحانه وتعالى المبين لعباده سبيل الرشاد، والموضح لهم الأعمال الموجبة لثوابه والأعمال الموجبة لعقابه، والمبين لهم ما يأتونه وما يذرونه (١).

فالبيان هو الكشف عن الشيء، والبينة هي الدلالة الواضحة عقلية كانت أم محسوسة. فالله عز وجل بين لعباده طرق الهداية، وحذّره من طرق الغواية.

وأرسل إليهم الرسل وأنزل إليهم الكتب ليعين لهم.

قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٢).

وقد ورد اسم المبين مرة واحدة في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ (٣).

وهداية الله عز وجل العامة واضحة ظاهرة في الكون والحياة، فهو سبحانه وتعالى الهادي الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

فمن الذي يهدي الخلية الآتية من الأب (الحيوان المنوي) لتقطع طريقاً يبلغ طوله مائة ألف ضعف طولها تلتقي بخلية الأم (البويضة) وهي تعبر في طريقها نظاماً معقداً مؤلفاً من قنوات عديدة ملتف بعضها

(١) الزجاجي، مرجع سابق، ص ١٨١.

(٢) سورة المائدة/ ١٥، ١٦.

(٣) سورة النور/ ٢٥.

حول بعض كما أسلفنا، وهي لا تمشي مشياً، وإنما تعدوا عدواً نحو هذا الالتقاء؟

ومن الذي سوى الجنين في بطن أمه فتمنى أعضائه الباطنة والظاهرة وجميع أجزائه في مكان لا تراه العيون ولا تلمسه الأيدي، فيخرج بشراً سوياً مستوفياً لكل ما فيه مصلحته وقوامه، وأعضاؤه متكاملة موجهة نحو وظائفها، اليدين للأخذ والعطاء والدفع . . ، والرجلان للمشي وحمل البدن . . ، والعينان للرؤية . . والأنف للشم والتنفس . . واللسان للبيان وتحريك الطعام والذوق . . ، والأذنان للسمع . . ، والقلب لضخ الدم إلى جميع أجزاء الجسم . . ، والكليتان لتخليص الجسم من نفايات التمثيل الغذائي وامتصاص الماء وعناصر الجسم البناء . . إلى آخر أعضاء الجسم المختلفة . فمن الذي سوى هذه الأعضاء وهداها إلي وظائفها المختلفة؟

« فالجسم مجهزٌ بجهاز للهضم تشمل وظيفته تهشيم المواد الغذائية الخشنة وإذابتها لتحويلها إلى مركبات كيميائية أولية مختلفة يمكن امتصاصها وإضافتها إلى الدم، ويشكل القلب بالاشتراك مع الأوعية الدموية جهاز النقل الرئيسي داخل الجسم فيوزع بدوره العناصر الغذائية الممتصة إلى أجزاء الجسم لإصلاح أنسجته القديمة، وإلباسها بأنسجة جديدة . . والعضلات الصدرية، والحجاب الحاجز قد شقَّ بشكلٍ يمكنه من ضخ تيار من الهواء من الرئتين إليهما، ويتكون هذان العضوان من مجامع من أكياس صغيرة تحاط كل منها بشبكة من الأوعية الدموية حتى يتسنى للأوكسجين عن طريقها أن ينتشر في الدم ويطرد ثاني أكسيد الكربون» (١).

(١) مجموعة من المؤلفين، موسوعة معارف الإنسان عن العالم الحديث، ص ٥١.

فالإنسان يلتهم الطعام، والهادي (سبحانه) قد وجه الأعضاء نحو وظائفها المقدرة ﴿صَنَعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ (١).

ويعرض كريس موريسون ألواناً من الهداية الربانية للحيوانات فيقول: «إنَّ الطيور لها غريزة في العودة إلى الوطن، فعصفور الهزار الذي عشش ببابك يهاجر جنوباً في الخريف ولكنه يعود إلى عشه في الربيع التالي، وفي شهر سبتمبر تطير أسراب من معظم طيور أمريكا إلى الجنوب وقد تقطع في الغالب نحو ألف ميل فوق أرض البحار، ولكنها لا تضل طريقها، وحمام الزاجل إذا تحير من جراء أصوات جديدة عليه في رحلة طويلة يحوم برهة ثم يقصد قدماً إلى موطنه دون أن يضل، والنحلة تجد خليتها مهما طمست الريح في هبوبها على الأعشاب والأشجار. . وأنت إذا تركت حصانك العجوز وحده، فإنه يلزم الطريق مهما اشتدت ظلمة الليل وهو يقدر أن يرى ولو في غير وضوح، ولكنه يلحظ اختلاف درجة الحرارة في الطريق وجانبيه، بعينين تأثرتا قليلاً بالأشعة تحت الحمراء التي للطريق. . ، والبومة تستطيع أن تبصر الفأر الدافئ اللطيف وهو يجرى على العشب البارد مهما تكن ظلمة الليل. . والعاملات من النحل تصنع حجرات مختلفات الأحجام في المشط الذي يستخدم في التربية، وتعد الحجرات الصغيرة للعمال، والأكبر منها للذكور، وتعد غرفة خاصة للملكات الحوامل، والنحلة الملكية تضع بيضاً غير مخصب في الخلايا المخصصة للذكور، وبيضاً مخصباً في الحجرات الصحيحة المعدة للعاملات الإناث والملكات المنتظرات. والعاملات اللاتي هن إناث معدلات بعد أن انتظرن طويلاً مجيء الجيل الجديد، تهيأن أيضاً لإعداد الغذاء للنحل الصغير بمضغ العسل واللحج ومقدمات هضمه. ثم ينقطعن عن عملية

المضغ ومقدمات الهضم عند مرحلة معينة من تطور الذكور والإناث، ولا يغذين سوى العسل واللقح، والإناث اللاتى يعالجن على هذا الشكل يصبحن عاملات. أما الإناث اللاتى في حجرات الملكة، فإنّ التغذية بالمضغ ومقدمات الهضم تستمر بالنسبة لهنّ. وهؤلاء اللاتى يعاملن هذه المعاملة الخاصة يتطورن إلى ملكات للنحل. وسمك السلمون الصغير يمضى سنوات في البحر، ثم يعود إلى نهره الخاص به، والأكثر من ذلك أنه يصعد إلى جانب النهر الذي يصب عنده النهر الذي ولد فيه، فما الذي يجعل السمك يرجع إلى مكان مولده بهذا التحديد الدقيق؟ إن سمكة السلمون التي تصعد في النهر صعداً إذا انتقلت إلى نهر آخر أدركت توجاً أنه ليس جدولها، فهى لذلك تشق طريقها خلال النهر ثم تحيد ضد التيار قاصدة إلى مصيرها. . . وإذا حمل الريح فراشة أثنى من خلال نافذة إلى علية بيتك فهى لا تلبث حتى ترسل إشارة خفية وقد يكون الذكر على مسافة بعيدة، ولكنه يتلقى هذه الإشارة ويجاوبها مهما أحدثت أنت من رائحة بعملك لتضليلهما. ترى هل لتلك المخلوقة الضئيلة محطة إذاعة؟ وهل لذكر الفراشة جهاز راديو عقلى. فضلاً عن السلك اللاقط للصوت (إيريال)؟ أتراها تهز الأثير فهو يتلقى الاهتزاز؟ إن التلفون والراديو من العجائب الآلية، وهما يتيحان لنا الاتصال السريع، ولكننا مرتبطون في شأنهما بسلك ومكان، وعلى ذلك لا تزال الفراشة متفوقة علينا من هذه الوجهة» (١).

فمن الذي هدى كل هذه المخلوقات؟

وتأتى ثعابين الماء من أنهار القارتين الأوربية والأمريكية لتضع بيوضها فوق الحشائش في بحر (سرجاسو). وبعد الوضع تقوم الأم بعملية حياكة الحشائش حولها. وبعد ذلك تموت، وبعد أن يفقس

(١) كريس موريسون «العلم يدعو إلى الإيمان» ص ١١٣ : ص ١٢٣ (بتصرف).

البيض وتكبر ديدان ثعابين الماء تعود إلى نفس الأنهار التي جاءت منها أمهاتها بالضبط . وتجتاز في طريقها المخاطر الكثيرة ، والمشاق الجسام ، إذ تقطع آلاف الأميال بعكس التيارات المائية القوية حتى تصل إلى أماكن عيشها بعد جهد مرير . أما سمك (حوت سليمان) فيقوم بعملية عكسية فهو يقطع أيضاً آلاف الأميال لكي يصل إلى مصاب الأنهار ، ثم يصعد فيها ، ويصعد ضد التيار حتى يصل بعد جهد جهيد إلى منابع الأنهار ، وهناك وعلى رؤوس ينباع بالذات يضع بيوضه . ثم تعود صغاره إلى موطنها الأصلي . وقد أجريت تجارب مماثلة على سرطان البحر ، بعد أن وضع عليها علامات ، ونقلت إلى مسافات تصل أحياناً إلى أكثر من ثلاثة أميال وبعد فترة قصيرة وجدت في أماكنها التي نقلت منها .

فمن الذي هدى هذه الأسماك الأمهات إلى المجيء من آلاف الأميال لتضع بيوضها ، ومن الذي هدى ذريتها إلى السفر الشاق الطويل لتصل إلى حيث كانت تعيش الأمهات ؟

﴿ رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ (١) .

﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَرَوَى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ (٢)

يقول (فانس باكار) : «يوجد في أفريقيا الوسطى طائر يسمى الكشف للعسل ، يتعاون مع الحيوانات الأرضية للحصول على الطعام ، فحيثما يعثر على خلية عسل في الغابة ، فإنه يشق الفضاء مرسلًا صوتاً خشناً مميزاً يردد المقاطع «نيتيه . . نيتيه . . نيتيه» فتُرى

(١) سورة طه / ٥٠ .

(٢) سورة الأعلى / ٣-١ .

جميع الحيوانات التي في البقعة التي يحوم فوقها تهرع نحو الخلية التي اكتشفها، وسرعان ما تلتهم العسل، ويكتفى هو بالبقية المتخلفة من الشمع. . وإن الطائر المسمى (النورس) له طريقة فنية عجيبة يستخدمها في فتح محارات حيوانات البحر التي تعيش على الشاطئ من نوع البطليموس ليتغذى بها، ومؤداها أنه يلتقط الحيوان المحار، ويرتفع به عالياً في الجو ثم يلقي به على الصخور فتسحق محارته، ويلتهم النورس جسم الحيوان الطير من داخل المحارة!»

وتقول إريناكا روزينا: «يقوم الطائر الاسترالي باليلي أى (ميزان الحرارة) بعمل حفرة في الأرض، ويضع فيها الأوراق الرطبة، ويغطيها بالرمال، وفي الوقت الحار من السنة تتعفن الأوراق مما يؤدي إلى رفع درجة الحرارة في الحفرة، وتسخين الرمال، وبعد انتهاء الفترة الحارة، وانخفاض درجة حرارة الوسط المحيط تقوم الأنثى بوضع البيض على الرمال، وبلا هوادة يقوم الذكر بتقليل الأوراق عاملاً على رفع، أو خفض درجة حرارة عشه المدهش ليحافظ بذلك على درجة حرارة ثابتة تقريباً. . وقد حاول العلماء الاستراليون تغيير درجة حرارة عش باليلي، وذلك باستبعاد الأوراق، أو على العكس بتسخين الرمال بوساطة الكهرباء، فلاحظ أن الذكر يقوم في الحال بمحاولة إرجاع درجة الحرارة إلى ما كانت عليه، وفي حالة فشله فإنه يهجر العش.

وهناك محاكمات للمجرمين في عالم الطير وتصل العقوبات إلى حد القتل وتخريب العش. بعد أن يدافع المجرم عن نفسه أمام القضاء. يذكر يعقوب صروف: أن (أدمند فسكى) كان راكباً جواده فسمع نعيماً شديداً ملاً الآفاق، فالتفت فإذا غدافان (الغربان في بلاد الإنجليز) كثيرة في حقل، فدنا منها، ووقف حيث يراها ولا تراه، وجعل يراقبها، فإذا هي منتظمة في حقلين حول غداف في الوسط، وكلها تصيح وتصفق

بأجنحتها شديداً كأنها تتميز غيظاً، وتهيج انتقاماً، والغداف في الوسط ينق ويصقق مثلها، ويقاومها ويخاصمها، والحرس تطير هنا وهناك. . . وبعد هنيهة تغيرت أحوال الغداف الذي في الوسط بغتة فنكس رأسه وخفض جناحيه، وأقل من النعيب كأنه أقر بذنبه فجعل يطلب الصفح عنه، وحينئذ وثبت عليه غدافان من الحلقة الداخلية، ومزقته بمناقيرها تمزيقاً، ونعبت الغدافان نعيماً شديداً، وطار بعضها بعيداً وبعضها قريباً، وربما يرجع ذلك إلى أن الغداف مشهور بالسرقة والاختلاس، فتسطر صغاره على عشاش كباره، وتسرق ما فيها من دقائق الخطب، وتبنى عشاشها بها تخفيفاً لمشقة جمعها، ولكنها لا تفعل ذلك إلا إذا كانت الكبار غائبة عن أعشاشها، فلا تراها، ثم متى عادت ووجدت أعشاشها مسروقة لا تزال تبحث عن السارق حتى تعرفه، فتشكو أمرها (ولا تنتقم لنفسها) إلى جماعة الغدافان، فتبعث ثمانية أو عشرة منها إلى عش السارق فتخربه ولا تبقى له أثراً.

ويذكر أيضاً أن بعض الصاعدين في جبال ألبا قال: كنت يوماً أصعد في جبل من جبال سويسرا فإذا بي أرى غراباً قد أحرق به ستون أو سبعون غراباً، وأكثر من النعيق والتصفيق كأنها تتشاور في أمره، وكانت تصمت أحياناً، فيبتدئ هو بالنعيق والتصفيق كأنه يدافع عن نفسه دفاع المتهمين أمام المحاكمين، ولا يزال يفعل ذلك حتى تعود جماعة الغربان إلى الصياح والغوغاء، ويضيع صوته بين أصواتها فيصمت، واستمر على تلك الحالة مدة، وكأنها أثبتت التهمة عليه، فأعملت فيه مناقيرها، حتى قتلت مزقته إرباً إرباً ثم طارت وتفرقت عن الأبصار!

ترى ما هي جريمة هذا الغراب؟ التي أوجبت قتله لا بد أن تكون جريمة كبرى (خيانة عظمى، أو قتل طائر آخر، أو انتهاك عرضه!).

ولعلنا نفهم شيئاً من ذلك من القصة التالية التي يذكرها يعقوب صروف أيضاً فيقول: إن جراحاً فرنسائياً مقيماً في أزمير رغب في الحصول على لقلق (طائر) رغبة شديدة، فلم يحصل عليه واتفق أنه عثر على عش للقلاليق فاقتلس بيضها وأبدله ببيض الدجاج، ولما أفرخ البيض إذ الفراخ كلها دجاج لا لقالق، فغاب الذكر ثلاثة أيام (إنه ذهب ليشكو زوجته على تدنيسها فراشه) ثم عاد ومعه لقالق كثيرة، فنزلت وأحاطت بالأنثى، وجعلت تقلق وتلغظ شديداً ثم وثبت على الأنثى ومزقتها تمزيقاً وطار!

وهكذا تسبب ذلك الجراح بفعلته تلك باتهام أنثى اللقلاق بالخيانة لزوجها بالزنا، وأقيم عليها الحد المقرر في شريعة اللقالق، وهو موافق لحد الزاني المحصن في الشريعة الإسلامية. ومما يؤكد هذا الحكم ما حدث أن لقلقين بنيا عشهما في مدخنة بيت في جوار مدينة برلين، فطلع صاحب البيت يوماً ووجد فيه بيضة فأخذها ووضع بيضة أوز مكانها، ولم يشعر بها، ثم أفرخت البيضة عن أوزة، فلما رآها الذكر طار وحلق فوق العش، وهو يقلق شديداً (يعلن ثورته وغضبه على زوجته) ثم غاب عن الأبصار (ذهب ليشكوها) وبعد أيام سمع أصحاب البيت لغطاً شديداً في حقل بجانبهم فنظروا فإذا جماعة من اللقالق، قد اجتمعت معاً، وأخذت تقلق شديداً حتى سدت أصواتها الفضا، ثم صمتت، ووقف لقلاق على عشرين ذراعاً منها، وجعل يصوت كأنه يخاطبها، ثم عاد ووقف آخر مكانه وقلق لرفاقه كالأول، وما زالت تفعل ذلك حتى قارب الزوال (وانتهت المرافعة لصالح الذكر) فطارت اللقالق كلها معاً طالبة العش، وأمامها الدليل الذكر، وكانت أنثاه ملازمة عشها، وهي خائفة خوفاً شديداً ولا تبدئ حراكاً (من هول المحاكمة) فلما دنا منها الذكر دفعها دفعاً شديداً حتى أخرجها

من العش (فلا مكان لمن تدنس عش الزوجية في هذا العش) ثم انقضت اللقائى عليها، ومزقتها ومزقت فرخ الأوز معها (فلا يريدون أولاد سفاخ) ثم طارت (١).

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ (٢).

يقول (أرثر تومسون): «أخذ خبير نحلة ووضعها في جيبه داخل علبة، وانتقل بها إلى مسافة ميل، ثم أطلق سراجها، فدارت فوقه في الهواء عدة مرات، ثم اتجهت نحو خليتها، ويقول: إن سرباً من النحل نقل عن طريق رحلة بالباخرة

استغرقت ثلاثة أيام إلى بيئة جديدة، فانهمك بالبحث أولاً عن الطعام، وما أن مضى على وصوله سوى خمس وأربعين دقيقة، إلا ويمت مواضع خلاياها. وقد قام أحد الباحثين بتجربة دقيقة، فنقل ثلاث عشرة نحلة ميزها بعلامات لمسافة نصف ميل تقريباً خارج المدينة، ثم أطلق سراجها في الخلاء المكشوف، وقد عادت جميعها إلى خليتها، بل إن إحدى عشرة نحلة منها وصلت قبل الباحث نفسه (٣).

والنمل يقوم بفلق الحبوب قبل تخزينها حتى لا تنبت، ويفلق حبة الكزبرة إلى ثلاثة أقسام لأنها تنبت إذا فُلقت إلى فلتتين فقط. أما الحبوب التي لا يستطيع فلقتها، فإنه يعمد إلى نشرها في الشمس بصفة دورية منتظمة حتى لا يصيبها البلل أو الرطوبة فتنبت.

(١) انظر ابن خليفة عليوى، مرجع سابق، ص ٢٧٥، ص ٤٠١: ٤٠٤، وانظر يعقوب صروف، فصول في التاريخ الطبيعى ص ١٤٩.

(٢) سورة الأنعام/ ٣٨.

(٣) أرثر تومسون، مشكلات تحير العلم، ترجمة زكريا فهمى، ص ١٣٩.

ومن العلماء المشاهير في شؤون النمل العالم (شنيرلا) فيقول: «إنّ النملة التي تجدد الطعام لا تفعل سوى نقل إحساسها بأن تندفع متبادلة اللمسات مع كل غملة أخرى تصادفها، ولكن كيف يعرف النمل الموجود في العش طريقه إلى الطعام؟

توصل بعض الباحثين إلى معرفة سر ذلك إذ تبينوا أن أفراداً من فصائل النمل التي تكشف الطعام تفرز من غددها الشرجية مادة نفاذة الرائحة في صورة خيوط تمتد مباشرة من المكان الذي يوجد فيه الطعام حتى العش، وإن الجموع من النمل تتبع تلك الآثار.

ومن التجارب الطريفة في هذا المجال ما قام به «ألن ديفو» فقد قام بتجربة مثيرة فقام بوضع طست غسيل على أرض المطبخ، وصب فيه الماء حتى بلغ نصفه، ووضع في وسط الماء مصباحاً قديماً ووضع عليه فطيرة حلوة موضوعة في طبق غسل وانتظر كيف يصل النمل إلى الطعام... وبعد أسبوع وجد الطعام يعج بالنمل. فقد استطاع النمل أن يبني جسراً على الماء ليعبر عليه، وهذا الجسر بني من القش فقد استطاع أن يجمع قشاً ويلصق بعضه ببعض بواسطة مادة خاصة يفرزها، وأقام بذلك جسراً عظيماً يمتد من حافة الماء إلى المصباح. بل إن هناك أعداداً من النمل اتجهت اتجاهها آخر فكانت تسبح في حوائط المطبخ حتى تصل إلى السقف ثم تسير على السقف مقلوبة حتى تقف فوق طبق الطعام تحديداً ثم تلقى بنفسها على الطعام واحدة بعد أخرى بدقة لا مثيل لها. إنها عملية إسقاط جوي يعجز عنها كثير من بني البشر^(١).

فسبحان الذي خلق فسوى والذى قدر فهدي!

والإنسان عندما يمسك بحبة من الفول أو الشعير يعجز عن فلقها

(١) انظر ابن خليفة عليوي، مرجع سابق، ص ٤٠٨.

بيده، فإذا ما وضعها في التربة وصبَّ عليها الماء تنفلق ويخرج النبات منها. ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ (١). وبعد فلق الحبة يتجه الجذر إلى أسفل، وتنمو الساق إلى أعلى أى أن الجذر يتجه عكس الساق. وظن العلماء أن ذلك بفعل الجاذبية التي تجذب الجذر إلى أسفل، والشمس التي يتجه الساق إليها. بيد أن علماء الفضاء تمكنوا في رحلات الفضاء من إنبات بعض البذور في مناطق انعدام الجاذبية فوجدوا أن الجذر يتجه إلى أسفل والساق إلى أعلى!

ويلاحظ أن عناصر تغذية النبات واحدة، ولكننا نرى كل شجرة بل كل نبتة تأخذ من هذه العناصر ما يناسبها، فنرى الزرع في مكان واحد، ويسقى بماء واحد، ولكن كل ثمرة لها طعم وشكل ولون ورائحة وحجم تختلف عن غيرها، فهذه حلوة وتلك لاذعة، وهذه كبيرة وتلك صغيرة، وهذه حمراء اللون وتلك صفراء، وهذه لها رائحة نفاذه وتلك لا رائحة لها... ففي حفلات قليلة من التراب تكمن قدرة لاستنبات هذه النباتات التي تحمل ثماراً مختلفة النوع واللون والمذاق والرائحة، فهذه شجرة تفاح وبجوارها شجرة برتقال، وتجاورهما شجرة رمان، وبينهم زهرة القرنفل، ومن حولهم عيدان قصب السكر! فمن الذي ألهم وهدى كل شجرة أن تأخذ ما يناسبها من الغذاء وتدع ما لا يناسبها!

﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لُبُّهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٢).

(١) سورة الأنعام / ٩٥.

(٢) سورة الرعد / ٤.

أما الهداية الثانية فهي التي بعث الله (عز وجل) بها رسله وهي هداية البيان والدلالة والتعريف بطريقي الخير والشر .

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١) .

﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ (٢) .

فهدي الله (عز وجل) هو ما أنزله على رسله ، وبعث به أنبياءه ، فقد اقتضت رحمة الله (عز وجل) أن يرسل الرسل ، وينزل معهم الكتب حتى لا تضل البشرية ولا تشقى ، وأيد كل رسول بمعجزة من جنس ما نبغ فيه قومه . فقوم موسى (عليه السلام) نبغوا في السحر فجاءت معجزته في هذا المضمار ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١١٨) فَخَلَبُوا هَنَالِكَ فَأَنْقَلَبُوا صَاعِرِينَ﴾ (١١٩) وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٢١) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ (٣) .

ونبغ اليهود في زمن عيسى (عليه السلام) في الطب فجاءت معجزته من جنس ما نبغوا فيه : ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٤) .

(١) سورة البقرة / ٣٨ . (٢) سورة طه / ١٢٣ - ١٢٦ .

(٣) سورة الأعراف / ١١٧ : ١٢٢ . (٤) سورة آل عمران / ٤٩ .

أما العرب فقد نبغوا في الفصاحة والبلاغة والبيان، فأرسل الله (عز وجل) محمداً (ﷺ) وجعل معجزته الكبرى القرآن الكريم وتحدي به العرب أن يأتوا بمثله. وقد أفسح لهم زمن التحدي، حتى بلغ ثلاثاً وعشرين سنة ثم هو ممتد إلى قيام الساعة. وقد نزل معهم في التحدي فتحداهم أن يأتوا بمثله، ثم بعشر سور مثله، ثم بسورة مثله، ثم بسورة من مثله.

﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (١).

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ﴾ (٢).

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ (٣).

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ (٤).

وجاء البيان القاطع: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ (٥).

فمن اتبع هدى الله (عز وجل) سعد في الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٦).

ويشرح ابن القيم (رحمه الله) هذه الحياة الطيبة قائلاً: «ولا بد لكل من عمل صالحاً أن يحييه الله حياة طيبة بحسب إيمانه وعمله، ولكن يغلط الجفاة الأجلاف في مسمى الحياة، حيث يظنونها التمتع في أنواع

(١) سورة الطور / ٣٤.

(٢) سورة هود / ١٣.

(٣) سورة يونس / ٣٨.

(٤) سورة البقرة / ٢٣. (٥) سورة الإسراء / ٨٨.

(٦) سورة النحل / ٩٧.

المآكل والمشارب والملابس والمناحك أو لذة الرياسة والمال وقهر الأعداء والتفن بأنواع الشهوات، ولا ريب أن هذه لذة مشتركة بين البهائم، بل قد يكون حظ كثير من البهائم منها أكثر من حظ الإنسان، فمن لم تكن عنده لذة إلا اللذة التي تشاركه فيها السباع والدواب والأنعام فذلك ممن ينادى عليه من مكان بعيد. ولكن أين هذه اللذة من اللذة بأمر إذا خالط بشاشته القلوب سلا عن الأبناء والنساء والأوطان والأموال والإخوان والمساكن، ورضى بتركها كلها والخروج منها رأساً، وعرض نفسه لأنواع المكاره والمشاق وهو منشراح الصدر يطيب له قتل ابنه وأبيه وصاحبه وأخيه، لا تأخذه في ذلك لومة لائم حتى إن أحدهم ليتلقى الرمح ب صدره ويقول: فزت وربّ الكعبة، ويستطيل الآخر حياته حتى يلقي قوته من يده ويقول: إنها حياة طويلة إن صبرت حتى أكلها، ثم يتقدم إلى الموت فرحاً مسروراً. ويقول الآخر مع فقره: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن عليه لجالدونا عليه بالسيوف. ويقول الآخر: إنه ليمر بالقلب أوقات يرقص فيها طرباً. وقال بعض العارفين: إنه لتمر بي أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفى عيش طيب» (١).

ومن أعرض عن هدى الله (عزّ وجلّ) ولم يتبع الذكر الذي أنزله (سبحانه وتعالى) هداية للناس ﴿فَإِنْ لَهُ مَعِيشَةٌ ضَنْكًا﴾ وقد فسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر، ﴿ونحشره يوم القيامة أعمى﴾ فذكر سبحانه وتعالى في هذه الآية عذاب البرزخ وعذاب الآخرة جزاء من أعرض عن هداية الله (عزّ وجلّ) التي أرسل بها رسوله.

والناس في استقبالهم لهذا الهدى على ثلاثة أقسام (٢).

(١) ابن القيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ص ٤٨.

(٢) ابن القيم الجوزية، المرجع السابق، ص ٣٧٦.

أحدهما: من عدم بصيرة الإيمان جملة، فهو لا يرى إلا الظلمات والرعد والبرق، ولا يجاوز نظره ما وراء ذلك من الرحمة والحياة الأبدية. فهذا القسم هو الذي لم يرفع بالدين رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي هدى به عباده ولو جاءته كل آية، ففائدة إنذار هذا إقامة الحجة عليه ليعذب بذنبه لا بمجرد علم الله فيه.

القسم الثاني: أصحاب البصيرة الضعيفة الخفاشية، الذين نسبة أبصارهم إلى هذا النور كنسبة أبصار الخفاش إلى جرم الشمس فهم تبع لآبائهم وأسلافهم، دينهم دين العادة والمنشأ. وهم الذين قال فيهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) أو منقاداً للحق لا بصيرة له في إصابة، وهؤلاء أتباع كل ناعق، يميلون مع كل صائح لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجأوا إلى ركن وثيق.

القسم الثالث: وهم خلاصة الوجود، ولباب بني آدم، وهم أولو البصائر النافذة الذين شهدت بصائرهم هذا النور المبين، فكانوا منه على بصيرة ويقين، ومشاهدة لحسنه وكماله، بحيث لو عرض على عقولهم ضده لرأوه كالليل البهم الأسود. وهم أولو الأبواب الذين يخصصهم الله في كتابه بخطاب التنبيه والإرشاد وهم المرادون على الحقيقة بالتذكرة قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَبَابِ﴾ (١).

أما الهداية الثالثة فهي هداية التوفيق والإلهام وتكون لمن سلك مسلك الهدى أو استقام في طريق الرشاد. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ (٢).

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ (٣).

(١) سورة الرعد/ ١٩ (٢) سورة محمد/ ١٧.

(٣) سورة العنكبوت/ ٦٩.

يقول ابن كثير (رحمه الله) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ وفقهم الله تعالى لها فهداهم إليها وثبتهم عليها وزادهم منها (١). وفي قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أى لنبصرنهم طرقنا في الدنيا والآخرة (٢).

فمن سلك طريق الرشاد أعانه الله (عز وجل) وثبته ووفقه وزاده من الخير والهدى. فالصحابي الجليل سلمان الفارسي (رضي الله عنه) يقصد الهدى ويبحث عنه ويظل يبحث عنه أياماً طويلاً متعرضاً للعبودية إلى أن وصل إلى رسول الله ﷺ في المدينة عبداً لأحد اليهود ودخل الإسلام وأعانه رسول الله ﷺ وأصحابه على العتق.

يقول أحد الذين اعتنقوا الإسلام حديثاً (فيصل كيانه): لم يخطر ببالى يوماً أننى سأعتنق الإسلام بسبب الدعايات المغرضة، ولكن حدث شيء غريب فقد مرض أحد أصدقائي مرضاً شديداً وكان في حالة سيئة جداً فرق له قلبى وذهبت إلى غرفة مجاورة وجلست وحدي ودعوت الله عز وجل أن يشفى صاحبي، ودعوت دعاءً كثيراً وبكيت ومع كثرة البكاء والدعاء أحسست ساعتها أن قلبى منشرح لنور الإسلام، فأخذت أبحث عن الهداية في كل مكان ولا أدرى أين أجدها، ومشيت على غير هدى. ومن وسط المدينة بدأت أسير في الطرقات أسأل عن مكتب توعية الجاليات. فلم أجد من يدلنى عليه من المارة ولكنى وجدتني أسير إليه دون أن يدلنى أحد عليه وأحسست عند دخولي الإسلام أننى ولدت من جديد (٣).

(١) إسماعيل بن كثير، مرجع سابق، ج٤، ص ١٧٧.

(٢) المرجع السابق، ج٣، ص ٤٢٢.

(٣) محمد ناصر الطويل، لا إكراه في الدين، ص ٢٠٠.

والذين اهتمدوا يزيدهم هدى، ويوفقهم إلى كثرة الطاعات؛ لينالوا أعلى الدرجات .

فقد كان السلف الصالح يختمون القرآن الكريم كل يوم وليلة، ومنهم من كان يختم في اليوم واللييلة أكثر من ذلك، ومنهم من كان يختم في كل ثلاث ختمة، ومنهم من كان يختم في كل شهر اشتغالا بالتدبر أو بنشر العلم أو تعليمه أو بنوع من التعبّد غير القراءة أو بغيره من اكتساب الدنيا (١) .

وكان الأسود بن يزيد وهو من خيار التابعين يختم في رمضان في كل ليلتين، وكان ينام بين المغرب والعشاء، وكان يختم في غير رمضان في كل ست ليال . وقد حجّ ثمانين ما بين حج وعمره (٢) .

وكان الربيع بن خثيم الثوري لا ينام فتقول له ابنته : يا أبتاه مالي أرى الناس ينامون ولا تنام؟ قال : إنّ جهنم لا تدعني أنام . وبات ليلة يصلي فمرّ بقوله تعالى : ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ الآية (٣) ، فمكث ليلته حتى أصبح ما يجاوز هذه الآية إلى غيرها . وقد قال له عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) : «لو رأك رسول الله ﷺ لأحبك» (٤) .

وكان صفوان بن سليم أعطى الله عهداً لا يضع جنبه على فراش حتى يلحق ربّه ، فلما نزل به الموت قيل له : رحمك الله ألا تضطجع ، قال : ما وفيت الله بالعهد إذاً . فاسند حتى خرجت روحه . قال عنه أنس بن عياض رأيت صفوان بن سليم ولو قيل له غداً القيامة ، ما كان عنده

(١) انظر مختصر منهاج القاصدين ، ص ٤٥ .

(٢) ابن الجوزي ، صفة الصفوة ، ج ٣ ، ص ٢٣ .

(٣) سورة الجاثية / ٢١ .

(٤) ابن الجوزي ، المرجع السابق ، ص ٥٩ ، ص ٦١ .

مزيد على ما هو عليه من العبادة (١).

فهؤلاء جدوا واجتهدوا فيسر الله لهم الخير، ووقفهم إلى حسن طاعته. قال محمد بن المنكدر: كابدت نفسي أربعين سنة حتى استقامت (٢).

وهؤلاء يقذف الله عز وجل في قلوبهم نوراً وإلهاماً يفرقون به بين الحق والباطل قال تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ (٣).

كان ميتاً بالكفر والجهل، فأحياه الله بالإيمان والعلم. وجعل له القرآن والإيمان نوراً يستضيء به في الناس على قصد السبيل، ويمشي به في الظلم (٤).

فهذه هي الهداية الثالثة وهي معونة من الله عز وجل وتوفيق وإلهام لمن سلك الطريق وأثر الحق على الباطل.

أما الهداية الرابعة: فتكون في الآخرة إلى الجنة حيث يهدي الله عباده المتقين إليها قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩) دَعَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأَخْرَجَ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٥).

يقول ابن كثير (رحمه الله) هذا إخبار عن حال السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين وامتلأوا ما أمروا به فعملوا الصالحات بأنه

(١) أبو الفرج بن الجوزي، مرجع سابق، ج ٢، ص ١٥٣.

(٢) المرجع السابق، ص ١٤١.

(٣) سورة الأنعام / ١٢٢.

(٤) ابن القيم الجوزي، مدارج السالكين، ج ٢ ص ٤٨٦.

(٥) سورة يونس آية ٩-١٠.

سيهديهم بإيمانهم .

ويحتمل أن تكون الباء هنا سببية فتقديره أى بسبب إيمانهم في الدنيا يهديهم الله يوم القيامة على الصراط المستقيم حتى يجوزوه ويخلصوا إلى الجنة ، ويحتمل أن تكون للاستعانة كما قال مجاهد في قوله تعالى ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ﴾ قال يكون لهم نور يشون به ، وقال ابن جريح في الآية : يمثل له عمله في صورة حسنة وريح طيبة إذا قام من قبره يعارض صاحبه ويبشره بكل خير فيقول له من أنت ؟ فيقول أنا عملك فيجعل له نوراً من بين يديه حتى يدخل الجنة (١) .

وتكون - أيضاً - هداية إلى النار ، قال تعالى : ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ (٢) .
أى أرشدوهم إلى طريق جهنم (٣) . ويعلق الراغب الأصفهاني على الآية السابقة قائلاً الهداية دلالة بلطف فلم استعملت ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ ، ﴿وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ (٤) فيقول : استعمل ذلك على التهكم مبالغة في المعنى كقوله ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٥) وقول الشاعر : تحية بينهم ضرب وجيع (٦) .

والعبد يسأل ربه دائماً الهداية هداية التعريف والبيان والتوفيق والإلهام ويسأله (عز وجل) أن يهديه طريق الجنة . ولكن كيف يسأل ربه هداية التعريف والبيان وهي حاصلة له وكذلك التوفيق والإلهام ؟

يجيب عن هذا السؤال ابن القيم (رحمه الله) فيقول : قد أجاب من أجاب بأن المراد التشبيت ودوام الهداية ، وقد أجاب وما أجاب وذكر

(١) إسماعيل بن كثير ، مرجع سابق ، ج ٢ ، ص ٤٠٨ .

(٢) سورة الصافات آية ٢٢ ، ٢٣ . (٣) إسماعيل بن كثير ، مرجع سابق ، ص ٥٣٨ .

(٤) سورة الحج ، آية : ٤ . (٥) آل عمران ، آية : ٢١ .

(٦) الراغب الأصفهاني ، مرجع سابق ، ص ٥٣٨ .

فرعاً لا قوام له بدون أصله وثمره لا وجود لها بدون حاملها . ونحن نبين بحمد الله أن الأمر فوق ما أجاب به وأعظم من ذلك بحول الله فاعلم أن العبد لا يحصل له الهدى التام المطلوب إلا بعد ستة أمور وهو محتاج إليها حاجة لا غني له عنها : الأمر الأول معرفته في جميع ما يأتيه ويذره بكونه محبوباً للرب تعالى مرضياً له فيؤثره ، وكونه مبغوضاً له مسخوطاً عليه فيجتنبه فإن نقص من هذا العلم والمعرفة شيء نقص من الهداية التامة بحسبه .

الأمر الثاني: أن يكون مريداً لجميع ما يحب الله منه أن يفعله عازماً عليه مريداً لترك جميع ما نهى الله عنه عازماً على تركه بعد خطوره بالبال . . فإن نقص من إرادته لذلك شيء نقص من الهدى التام بحسب ما نقص من إرادته .

الأمر الثالث: أن يكون قائماً به فعلاً وتركاً فإن نقص من فعله شيء نقص من هداه بحسبه .

فهذه ثلاثة أصول هي أصول الهداية ويتبعها ثلاثة هي من تمامها وكمالها :

أحدهما: أمور هدى إليها جملة ولم يهتدِ إلى تفاصيلها فهو محتاج إلى هداية التفصيل فيها .

الثاني: أمور هدى إليها من وجه دون وجه فهو محتاج إلى تمام الهداية فيها لتكمل له هدايتها .

الثالث: الأمور التي هدى إليها تفصيلاً من جميع وجوهها فهو محتاج إلى الاستمرار في الهداية والدوام عليها .

فالمسئول هو أصل الهداية على الدوام تعليماً ، وتوفيقاً ، وخلقاً ،

للإرادة فيه، وإقداراً له، وخلقاً للفاعلية، وتثبيتاً له على ذلك. فعلم أنه ليس أعظم ضرورة منه إلى سؤال الهداية، أصلها وتفصيلها علماً وعملاً، والتثبيت عليها والدوام إلى الممات. وسر ذلك أن العبد مفتقر إلى الهداية في كل نفس في جميع ما يأتيه ويذره أصلاً وتفصيلاً وتثبيتاً ومفتقر إلى مزيد علم بالهدي على الدوام فليس له أنفع ولا هو إلى شيء أحوج من سؤال الهداية فنسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم وأن يثبت قلوبنا على دينه^(١).

اللهم اهدني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت، وتولني فيمن توليت، وبارك لي فيما أعطيت وقني شر ما قضيت، فإنك تقضي ولا يقضي عليك، وإنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت، تباركت ربنا وتعاليت، وصلى الله على النبي محمد^(٢).

«اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى»^(٣).

«اللهم اغفر لي، وارحمني، واهدني، وعافني، وارزقني»^(٤).

«اللهم إني أسألك الهدى والسداد»^(٥).

«اللهم اهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت»^(٦).

(١) ابن القيم الجوزية، بدائع الفوائد، ج ٢، ص ٣٧، ص ٣٨.

(٢) رواه الترمذی، وقال: حديث حسن، ولا يعرف عن النبي ﷺ في القنوت شيء أحسن من هذا. وقال النووي: إسناده صحيح، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذی ١٤٤/٧.

(٣) أخرجه مسلم ٢٠٨٧/٤.

(٤) أخرجه مسلم ٢٠٧٢/٤ وفي رواية لمسلم «فإنّ هولاء الكلمات تجمع لك دنياك وآخرتك».

(٥) أخرجه مسلم ٢٠٩/٤ برقم ٢٧٢٥.

(٦) أخرجه مسلم ٥٣٤/١ برقم ٧٧١.

المؤمن (جل جلاله)

٩٩

المؤمن اسم من أسماء الله الحسنى، وقد ورد مرة واحدة في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١).

والمؤمن في صفات الله عز وجل على وجهين: أحدهما أن يكون من الأمان أي يؤمن عباده المؤمنين من بأسه وعذابه فيؤمنون ذلك فهو يؤمنهم من الفزع الأكبر، إما يخلق الطمأنينة في قلوبهم أو بإخبارهم أن لا خوف عليهم.

وهو الذي يؤمن خلقه من ظلمه، قال تعالى: ﴿وَمَا رُبُّكَ بظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (٢).

فالأمان هنا ضد الخوف، قال تعالى: ﴿وَأَمْنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ (٣) والأمان منه سبحانه وتعالى لا يقتصر على الآخرة فقط، وإنما يؤمن سبحانه في الدنيا من يتوكلون عليه، ويثقون فيه، ويستجيرون به، ويخلصون في توحيده: قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (٤).

وقال تعالى مخاطباً موسى عليه السلام: ﴿أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ (٥).

(١) سورة الحشر/ ٢٣. (٢) سورة فصلت/ ٤٦.

(٣) سورة قريش/ ٤. (٤) سورة الأنعام/ ٨٢.

(٥) سورة القصص/ ٣١.

ومن هذا الاسم اشتق الأمن والأمان، واسم العبد المؤمن فالله سبحانه هو المؤمن، وقد يطلق هذا الاسم على العبد فيقال: فلان مؤمن، بيد أن الموافقة في الأسماء لا تقتضي المشابهة في الذوات كما أسلفنا في المقدمة. فالله عز وجل مؤمن والعبد مؤمن بيد أن ذلك لا يقتضي مشابهة العبد الرب.

والملوك يأبون أن يجسر أحد من رعيته ويسمي نفسه ملكاً والله سبحانه سمي نفسه المؤمن، وسمى العبد مؤمناً، وسمى عباده مؤمنين وهذا لطف منه سبحانه.

والوجه الآخر: أن يكون المؤمن من الإيمان وهو التصديق فيكون ذلك على ضربين: أحدهما أن يقال: «الله المؤمن» أي مصدق عباده المؤمنين أي يصدقهم على إيمانهم فيكون تصديقه إياهم قبول صدقهم وإيمانهم وإثباتهم عليه. والآخر أن يكون الله المؤمن أي: مصدق ما وعده عباده. فالله عز وجل مصدق ما وعده عباده ومحققه (١).

والله عز وجل هو المؤمن أي المصدق لرسله وأوليائه بإظهار المعجزات والكرامات الدالة على صدقهم. . . وهو سبحانه المصدق لنفسه أنه صادق في وعده حيث قال: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو﴾ وهو سبحانه مؤمن أي خالق أسباب الأمن والأمان، فالخلق ضعفاء معرضون لأسباب التلف والهلاك من داخلهم بالأمراض والآفات، ومن خارجهم بالأعداء والأدواء، والله تبارك وتعالى هو الذي رزقهم أسباب الأمن من حواس وأدوية وحصون وجوارح وأسلحة وألهمهم استعمالها. . . والمحروم من كل ذلك رزقه وسائل الهرب: كالأجنحة

(١) أبو القاسم الزجاجي، اشتقاق أسماء الله، ص ٢٢١، ص ٢٢٣.

للطيور، والتخفي عن طريق التشكل والتلون^(١).

ومن آثار هذا الاسم ما شرعه المؤمن سبحانه وتعالى من حدود وقصاص لحفظ الدين، وحفظ النفوس، وحفظ العقول، وحفظ المال، وحفظ الأنساب، وحفظ الأعراض.

وبإقامة هذه الحدود يأمن الناس على دينهم وأنفسهم وعقولهم وأنسابهم وأموالهم وأعراضهم. فالناس يشعرون بالأمن على دينهم عندما يقتل المرتد الذي انسلك من المجتمع، وصار جرثومة ضارة وعضواً أشل فيه يسعى لنقض بنائه وتنكيس لوائه.

ولذلك قال رسول الله (ﷺ): «من بدل دينه فاقتلوه»^(٢).

وحرم الله (عزّ وجلّ) القتل وسفك الدماء ليشعر الناس بالأمن على أنفسهم ولذلك أوجب الله القصاص من القاتل، وجعل فيه حياة الناس قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٣).

فإعدام القاتل استبقاء لحياة الناس الآخرين، لأن من عرف أنه مقتول إذا قتل انزجر ولم يقدم على قتل غيره، وبذلك يحدث الأمن في المجتمع كله.

وأمن الله عزّ وجلّ الناس على عقولهم فحرم كل ما يغطيها أو يلغي وظيفتها من خمر ومخدرات، لأنها تشل تفكير الإنسان وتهبط بقيمته وكرامته مما يجعله يصير حيواناً تتحكم فيه غرائزه. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ

(١) ياسين رشدي، هو الله، ص ٢٣.

(٢) سورة البقرة/ ١٧٩.

(٣) رواه البخاري، وغيره.

فَاجْتَبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ ﴿١﴾ .

وحرّم الله عز وجل السرقة، وغلظ العقوبة ليرتدع الناس . قال تعالى :

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢) .

فيأمن بذلك الناس على أموالهم، ويشيع الأمن في المجتمع كله . وإذا ما تعاون اللصوص وكونوا عصابات لقطع الطريق، وسلب ونهب الأموال، والسطو المسلح على ممتلكات الآخرين تضاعفت العقوبة .

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ . إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَنْ تَقَدِّرُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٣) .

وحرّم الله (عزّ وجلّ) الزنا ووسائله ليأمن الناس على أنسابهم وحرماتهم . وجعل عقوبة الزاني البكر مائة جلدة مع تغريبه عن بلده الذي وقعت فيه الفاحشة .

قال تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤) .

أما الزاني المحصن (المتزوج) فحده الرجم بالحجارة حتى يموت .

(١) سورة المائدة / ٩٠ . (٢) سورة المائدة / ٣٨ .

(٣) سورة المائدة / ٣٣ ، ٣٤ . (٤) سورة النور / ٢ .

وكما أهتم الله سبحانه وتعالى بحفظ الحرمات عاقب على تجريحها والتعرض لها . فجعل عقوبة القذف ثمانين جلدة لمن يقعون في أعراض الناس وينسبون الإفك إلى الآخرين ويشيعون عنهم الحنأ . وقد طوّل هؤلاء بأن يأتوا على ما يقولون بأربعة شهداء وإلا جلدوا ثمانين جلدة قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ . إِلَّا الَّذِينَ قَابَلُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) . وإقامة هذا الحد تجعل الإنسان محاطاً بما يحفظ عرضه ، فيعيش بذلك آمناً هادئاً .

وكما آمن الله عز وجلّ حياة الإنسان ليعيش سعيداً آمناً آمناً أيضاً بقاء نوعه عن طريق الإنجاب بعد التقاء الزوجين الذكر والأنثى .

والتكاثر والبقاء ليست في الإنسان فقط بل هي وظيفة مشتركة بين الكائنات الحية . فعندما تبلغ الكائنات الحية في نموها مرحلة البلوغ تصبح قادرة على إنجاب أجيال جديدة من الفصيلة نفسها ، أي إنها تصبح قادرة على التناسل أو التكاثر ، ولولا أن الله (عز وجلّ) وهبها ذلك لانقرضت .

ومن عجب صنع الخالق المؤمن (سبحانه) أنه كلما ضعف الكائن الحي زادت أعداده في التكاثر وما ذاك إلا ليبقى ويستمر وجوده والمثال على ذلك الحشرات .

وقد ألهم المؤمن سبحانه الحيوان كيف يحمي نفسه ، فجعلها تعيش في مجتمعات وتسير في جماعات منتظمة فسرب الفيلة يسير وفي مقدمته أقوى الذكور لحمايتها . بينما الظباء يسير أقواها خلفها لأن

الذئاب لا تهاجمها إلا من الخلف . والحرباء تتلون بعدة ألوان لتهرب من أعدائها ، فهي صفراء في الصحراء ، فإذا ما صادفت شجرة أخذت لون ساقها البني الغامق ، وفي العشب الأخضر هي خضراء وتأخذ زرقة الماء على شاطئ الماء .

ومن آثار المؤمن (سبحانه) إظهاره الآيات والمعجزات الباهرات على أيدي رسله تصديقاً لهم . فقد عطل الله سبحانه وتعالى نوااميس الكون بهذه المعجزات لتكون دليلاً على صدق أنبيائه ورسله . وما المعجزة إلا رسالة من الحق (سبحانه) إلى الناس مضمونها (أنا أصدق ما جاء به عبدي فأمنوا به واتبعوه) .

ومن آثار هذا الاسم أيضاً ما نراه من طمأنينة وأمن عند الموحدين المخلصين ، فهم - دائماً - يثقون في ربهم وفي أنه - أبداً - لن يضيعهم وسينصرهم في الدنيا والآخرة . قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ (١) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴾ (٢) .

والأمن كل الأمن في دار السلام حيث لا خوف ولا فزع بعد ذلك .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِينَ . وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ . لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ (٣) .

(٢) سورة فصلت/ ٣٠، ٣١ .

(١) سورة غافر/ ٥١ .

(٣) سورة الحجر/ ٤٥-٤٨ .

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ . فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . يَلَبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ . كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ . يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ . لَا يَذُقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ . فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١).

فالله (سبحانه) هو المؤمن ، وهو الذي يعطي الأمن والأمان لعباده الصالحين . وكل أمن وأمان من غير الله (عز وجل) ما يلبث أن ينقلب إلى فزع وجزع . ولذلك قيل : «يؤتى الحذر من مأمنه» .

فالأمن الحقيقي لا يكون إلا من الله عز وجل .

وقيل لأحد الصالحين : من أين تأكل ؟

قال : من عرف خالقه لم يشك في رزقه .

فقيل له : ألا تخاف الفقر ؟

قال : خوف الفقر قرينة الكفر .

وقال تلميذ لأستاذه : إني أخاف من فلان .

فأجابه أستاذه : صحح عقيدتك .

فقال التلميذ : كيف ؟

قال الأستاذ بإخلاص التوكل على الله فإن قلب من تخاف بيد من

ترجو .

وكم رأينا في الحياة من بشر توكلوا على بشر ووثقوا فيهم وأسلموا

إليهم زمامهم فما لبثوا أن سلَّط الله بعضهم على بعض فأفنى بعضهم بعضاً!

وحتى ينال العبدُ الأمنَ من المؤمن (سبحانه) عليه أن يخلص عبوديته لله عزَّ وجلَّ ولا يشرك بربه أحداً، وقد ورد ذلك نصاً في قول الله عزَّ وجلَّ في سورة الأنعام ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (١).

والظلم الوارد في الآية هو الشرك، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (٢).

فالأمن مترتب على الإخلاص لله تعالى، والصدق في توحيده، وهذا الأمن يشمل الدنيا والآخرة، فالتوحيد الخالص له أشعة نورانية في القلوب، ويختلف هذا النور، ويتفاوت من عبد لآخر حسب توحيده قوة وضعفاً.

وهذا النور هو الذي يضيء للمؤمن طريقه يوم القيامة، قال تعالى ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُم يَوْمَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٣).

وهناك أعمال جعلها الحق سبحانه مع التوحيد الخالص سبباً للأمن يوم الفزع الأكبر، مثل الحب في الله عزَّ وجلَّ، وفعل الخيرات، ففي الحديث قال رسول الله (ﷺ): «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلَالِي؟ الْيَوْمَ أَظْلَهُمْ فِي ظِلِّي يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّي» (٤).

(٢) سورة لقمان/ ١٣.

(١) سورة الأنعام/ ٨٢.

(٣) سورة الحديد/ ١٢.

(٤) رواه مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة، باب في فضل الحب في الله.

وعن معاذ (رضي الله عنه) قال سمعت رسول الله (ﷺ) يقول :
«قال الله (عز وجل) : المتحابون في جلالي لهم من نور يغبطهم
النبيون والشهداء» (١).

وهناك حديث جامع في هذا المقام عن أبي هريرة (رضي الله عنه)
عن النبي (ﷺ) قال : «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ،
إمام عادل ، وشاب نشأ في عبادة الله (عز وجل) ورجل قلبه معلق
بالمسجد ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعت
امرأة ذات حسن وجمال ، فقال إني أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة
فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خالياً
ففاضت عيناه» (٢).

وقضاء حوائج المسلمين والتنفيس عنهم يشفع للعبد يوم القيامة ،
فيأمن من خوف ويغفل كثير من الناس عن هذا الأمر مع أنه من خير
الأبواب وأنفعها في الدنيا والآخرة ففي الحديث عن ابن عمر (رضي الله
عنهما) عن النبي (ﷺ) قال «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ،
من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ، ومن فرّج عن مسلم كربةً
فرّج الله عنه بها كربةً من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره الله
يوم القيامة» (٣).

والإيثار وإطعام الطعام يقى شر ذلك اليوم ، ويبدل الخوف أمناً ،

(١) رواه الترمذي ، وقال : حسن صحيح (في كتاب الزهد في ما جاء في الحب في)
وأخرجه ابن حبان في صحيحه في الإحسان .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ١٤٣ / ٢ ، كتاب الإيمان ، باب من جلس في المسجد ينتظر
الصلاة ، ومسلم في صحيحه ٧١٥ / ٢ ، كتاب الزكاة ، باب فضل إخفاء الصدقة .

(٣) رواه أبو داود في سننه ٢٧٣ / ٤ ، والترمذي في سننه ٣٢٥ / ٤ ، كتاب البر والصلة باب ما
جاء في ستر المسلم على المسلم وقال حسن غريب .

قال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ (٨) إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (٩) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (١٠) فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١) وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١﴾ .

فلنحمد الله عز وجل على نعمة الأمن التي هي هبة ومنحة من المؤمن سبحانه فلا أمن إلا من عنده، ولا سعادة إلا في ظلال أمنه .

اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا، اللهم إنا نسألك الأمن يوم الوعيد، والجنة يوم الخلود مع المقربين الشهود، الركع السجود، إنك رحيم ودود .

* * *

الغَفَّارُ - الغَفُورُ - العَفُوُّ - التَّوَّابُ

١٠٠ ١٠١ ١٠٢ ١٠٣

الغفر والغفران في اللغة: الستر، وكلّ شيء سترته فقد غفرته، والمغفرة من الله (عزّ وجلّ) ستره للذنوب، وعفوه عنها بفضلِهِ ورحمته، والغفار هو الذي أظهر الجميل وستر القبيح في الدنيا، وتجاوز عن عقوبته في الآخرة، وهو الذي يغفر الذنوب وإن كانت كبيرة، ويسترها وإن كانت كثيرة، والغفور السّتور يقال غفرت الشيء اغفره غفراً إذا سترته، والله عزّ وجلّ غفار غفور لذنوب عباده أي يسترها ويتجاوز عنها لأنه إذا سترها فقد صفح عنها وعفا وتجاوز، وغفار وغفور من أبنية المبالغة فالله عزّ وجلّ غفار غفور لأنه يفعل بعباده ذلك مرة بعد مرة إلى ما لا يحصى فهو من أوصاف المبالغة في الفعل، وليس من أوصاف المبالغة في الذات (١).

فالغفّار والغفور من أسماء الله عزّ وجلّ وهما من أبنية المبالغة ومعناها الساتر لذنوب عباده وغيوبهم، والمتجاوز عن خطاياهم وذنوبهم. وأصل الغفر السّتر والتغطية. فالله عزّ وجلّ يغفر ذنوب عباده مرة بعد مرة فهو غفور سبحانه.

قال ابن القيم:

وهو الغفورُ فليأتِ بقربها	من غير شركٍ بل من العصيانِ
لاقاه بالغفران ملءَ قربها	سبحانه هو واسع الإحسانِ

(١) الزجاجي، مرجع سابق، ص ٩٣، ص ٩٤.

وقد ورد اسم الغفار في القرآن الكريم خمس مرات منها :

قوله تعالى : ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ (١) .

﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴾ (٢) .

أما اسم الغفور فقد ورد في القرآن الكريم أكثر من تسعين مرة ،
منها :

قال تعالى : ﴿ يَغْفِرْ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٣) .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٤) .

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ (٥) .

والعفو اسم من أسماء الله الحسنى ، ومعنى العفو الذي يحو
السيئات ، ويتجاوز عن المعاصي ، وهو قريب من اسم الغفور ولكنه
أبلغ منه ، لأن الغفران ينبئ عن الستر ، والعفو ينبئ عن المحو ، والمحو
أبلغ من الستر .

فالعفو في حق الله عز وجل عبارة عن إزالة آثار الذنوب بالكلية ،
فيمحوها من ديوان الكرام الكاتبين ، ولا يطالبه بها يوم القيامة ،
وينسيها من قلوبهم ، . كيلا يخجلوا عند تذكرها ، ويثبت مكان كل
سيئة حسنة ، قال تعالى : ﴿ فَأُولَئِكَ يَدُلُّ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ (٦) .

وقد جاء ذكر العفو في آيات كثيرة من القرآن الكريم ، منها قوله

-
- (١) سورة نوح / ١٠ . (٢) سورة ص / ٦٦ .
(٣) سورة آل عمران / ١٢٩ . (٤) سورة الأنعام / ١٦٥ .
(٥) سورة فاطر / ٢٨ .
(٦) سورة الفرقان / ٧٠ .

تعالى: ﴿إِنْ تَبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تَخَفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءِ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا قَدِيرًا﴾ (١).

﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ غَفُورٌ﴾ (٢).

أما التواب فهو من التوبة، وهى تفيد معنى الرجوع، يقال: تاب إذا رجع، والتواب فعال من تاب يتوب أى يقبل توبة عباده، وفعال من أبنية المبالغة مثل ضراب للكثير الضرب. وجاء تواب على أبنية المبالغة لقبوله توبة عباده وتكرير الفعل منهم دفعة، وواحداً بعد واحد طول الزمان، وقبوله عز وجل ممن يشاء أن يقبل منه، فلذلك جاء على أبنية المبالغة، فالعبد يتوب إلى الله عز وجل، ويقطع عن ذنوبه، والله يتوب عليه أى يقبل توبته. فالعبد تائب والله تواب (٣).

فالتواب فى حق الله تعالى هو الذى يتوب على عبده، أى يعود عليه بالطفاه، ويوفقه إلى التوبة، ويسرها له، ثم يقبلها منه.

فهو التواب الذى يسر أسباب التوبة لعباده مرة بعد مرة بما يظهر لهم من آياته، ويسوق إليهم من تنبيهاته، ويطلعهم عليه من تخويفاته، وتحذيراته، حتى إذا اطلعوا بتعريفه على غوائل الذنوب استشعروا الخوف بتخويفه، فرجعوا إلى التوبة فرجع إليهم فضل الله تعالى بالقبول. فهو (سبحانه) التائب على التائبين أولاً بتوفيقهم للتوبة والإقبال بقلوبهم إليه، وهو التائب عليهم بعد توبتهم، قبولاً لها، وعفواً عن خطاياهم. قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾.

(١) سورة النساء/ ١٤٩. (٢) سورة الحج/ ٦٠.

(٣) أبو القاسم الزجاجي، مرجع سابق، ص ٦٣.

قال ابن القيم :

وكذلك التواب من أوصافه والتواب في أوصافه نوعان
إذن بتوبة عبده وقبولها بعد المتاب بمئة المنان
وعلى هذا تكون توبته على عبده نوعان :

الأول: يوقع في قلب عبده التوبة إليه ، والإنابة إليه ، فيقوم بالتوبة
وشروطها من الإقلاع والندم والعزم على ألا يعود إلى الذنب ،
واستبدال الذنب بالعمل الصالح .

الثاني: توبته على عبده بقبولها ، وإجابتها ومحو الذنوب بها ، فإنَّ
التوبة النصوح تجب ما قبلها .

وإذا كانت التوبة معناها الرجوع والعودة ، فإنَّ الله تعالى كثير العودة
بأصناف الإحسان على عباده ، فهو يوفقهم بعد الخذلان ، ويعطيهم بعد
الحرمان ، ويخفف عنهم أنواع الآلاء ، ومن توبته يقابل الدعاء بالعطاء ،
والاعتذار بالغفران ، والإنابة بالإجابة ، والتوبة بمحو الحوبة .

أما التوبة من قبل العبد فهي ترك الذنب على أجمل الوجوه ، وهي
أبلغ وجوه الاعتذار ، لأن الاعتذار على ثلاثة أوجه :

إما أن يقول المعتذر لم أفعل ، أو يقول فعلت لأجل كذا ، أو يقول
فعلت وأساءت وقد أقلعت ، وهذا الأخير هو التوبة . والتائب يقال :
لباذل التوبة ، ولقابل التوبة . فالعبد تائب إلى الله ، والله تائب على
عبده .

والعبد التواب هو العبد كثير التوبة ، وذلك بتركه كل وقت بعض
الذنوب على الترتيب حتى يصير تاركاً لجميعها . والله عز وجل تواب

لكثرة قبوله توبة العباد حالاً بعد حال وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً﴾. أى التوبة التامة التي تجمع بين ترك القبيح وتحريّ الجميل (١).

وقد ورد اسم التّواب في القرآن الكريم إحدى عشرة مرة. اقترن في تسع منها بالرحيم، مما يدل على أن توبته (سبحانه وتعالى) من رحمته. قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (٣).

وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ (٤).

وقال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾ (٥).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ (٦).

فما هي التوبة النصوح؟

اختلف العلماء في معنى التوبة النصوح، ولهم في ذلك أقوال متعددة منها (٧):

١ - التوبة النصوح هي توبة من يقطع عن الذنب، ويجتنب

(١) الراغب الأصفهاني، مرجع سابق، ص ٧٦.

(٢) سورة النساء / ٦٤. (٣) سورة التوبة / ١٠٤.

(٤) سورة النور / ١٠. (٥) سورة النصر / ٣.

(٦) سورة الترحيم / ٨.

(٧) عبد العزيز عبد الشهيد محمود، التوبة إلى الله، ص ٩٣، ص ٩٤.

- المعاصي، ولا يعود إلى ذنب آخر، ويندم على ما فعل.
- ٢- وقال عمر (رضي الله عنه) هي أن يتوب من الذنب ثم لا يعود إليه كما لا يعود اللبن إلى الضرع.
- ٣- وقال قتادة: النصوح الصادقة الناصحة.
- ٤- وقال الغزالي: النصوح: الخالص لله تعالى خالياً من الشوائب مأخوذ من النصح.
- ٥- وقال الحسن: النصوح: أن يبغض الذنب الذي أحبه، ويستغفر منه إذا ذكره.
- ٦- وقال الدقاق: التوبة النصوح: هي ردّ المظالم، واستحلال الخصوم، وإدمان الطاعات.
- ٧- وقال سعيد بن جبير: هي التوبة المقبولة ولا تقبل ما لم يكن فيها ثلاثة شروط: خوف ألا تقبل، ورجاء أن تقبل، وإدمان الطاعات.
- ٨- وقال القرطبي: يجمعها أربعة أشياء: الاستغفار باللسان، والإقلاع بالأبدان، وإضمام ترك العود بالجنان و، مهاجرة سئ الخلق.
- ويبدو من الأقوال السابقة أنّ التوبة النصوح لها خمسة شروط هي:
- ١- الإخلاص لله عزّ وجلّ، فلا يتوب من الذنوب لعجز أو لملامة من أحد، وإنما خوفاً من الله عزّ وجلّ.
- ٢- الندم على ما سلف من المعاصي والذنوب وبغضها، والنية على عدم العودة إليها.
- ٣- الإقلاع عن المعاصي كلّها واجتنابها، والبعد عن قرناء السوء الذين يزينونها.

٤- ردُّ المظالم إلى من ظلمهم ، واستحلال الخصوم (١) .

٥- المداومة على الطاعات ، والمصارعة في فعل الخيرات .

قال تعالى : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ (٢) .

قال ابن القيم : النصيح في التوبة يتضمن ثلاثة أشياء .

الأول : تعميم جميع الذنوب واستغراقها بها بحيث لا تدع ذنباً إلا تناولته .

والثاني : إجماع العزم والصدق بكلية عليها ، بحيث لا يبقى عنده تردد ، ولا تلوم ولا انتظار .

الثالث : تخليصها من الشوائب والعلل القادحة في إخلاصها ، ووقوعها لمحض الخوف من الله وخشيته ، والرغبة فيما لديه ، والرغبة مما عنده . لا كمن يتوب لحفظ جاهه وحرمة ، ومنصبه ورياسته ، أو لحفظ حاله أو قوته وماله ، أو استدعاء حمد الناس أو الهرب من مذمتهم . . . أو لإفلاسه وعجزه . . . (٣) .

ويفرق ابن القيم بين التوبة والاستغفار : فيقول عن التوبة : التوبة هي الرجوع مما يكرهه الله ظاهراً وباطناً إلى ما يحبه ظاهراً وباطناً .

أما الاستغفار فهو نوعان : مفرد ومقرون بالتوبة .

فالمفرد : كقول نوح عليه السلام لقومه : ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴾ (٤) .

(١) وسيأتى تفصيل ذلك فيما بعد إن شاء الله تعالى .

(٢) سورة طه / ٨٢ .

(٣) ابن القيم الجوزية ، مدارج السالكين ، ج ١ ، ص ٣١٠ .

(٤) سورة نوح / ١٠ ، ١١ .

وكقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١).

والمقرون كقوله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ (٢).

وقوله تعالى على لسان شعيب: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ (٣).

فالاستغفار المفرد كال்தوبة. بل هو التوبة بعينها مع تضمينه طلب المغفرة من الله وهو محو الذنب، وإزالة أثره، ووقاية شره.

وأما عند اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى. فالاستغفار طلب وقاية شر ما مضى والتوبة الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله.

فهنا ذنبان: ذنب قد مضى، فالاستغفار منه طلب وقاية شره. وذنب يخاف وقوعه، فالتوبة: العزم على أن لا يفعله والرجوع إلى الله يتناول النوعين: رجوع إليه ليقه شر ما مضى (استغفار) ورجوع إليه ليقه شر ما يستقبل من شر نفسه وسيئات أعماله.

فهنا أمران لا بد منهما: مفارقة شيء، والرجوع إلى غيره فخصت التوبة، بالرجوع، والاستغفار بالمفارقة، وعند أفراد أحدهما يتناول الأمرين. ولهذا جاء- والله أعلم- الأمر بهما مرتباً بقول: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾ فإنه الرجوع إلى طريق الحق بعد مفارقة الباطل. . وأيضاً فالاستغفار من باب إزالة الضرر. والتوبة طلب جلب

(١) سورة البقرة/ ١٩٩ (٢) سورة هود/ ٣.

(٣) سورة هود/ ٩٠.

المنفعة . فالمغفرة أن يقيه شرّ الذنب ، والتوبة : أن يحصل له بعد هذه الوقاية ما يحبه . وكل منهما يستلزم الآخر عند إفراده (١) .

وقد أمر الله تعالى عباده بالتوبة إليه واستغفاره في كثير من النصوص القرآنية والأحاديث النبوية :

قال تعالى : ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ٧٦٧ (٢) .

﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (٣) .

﴿ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٤) .

وقال رسول الله (ﷺ) : « والذي نفسى بيده لو لم تذبوا ، لذهب الله تعالى بكم ، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله تعالى فيغفر لهم » (٥) .

ورسل الله عزّ وجلّ - عليهم الصلاة والسلام - مع سمو أقدارهم ورفعة مراتبهم ، وعصمتهم من المعاصي كانوا يستغفرون لأنفسهم ولأعمهم :

قال الله تعالى في آدم (عليه السلام) وحواء :

﴿ قَالَا : رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا ، لَنَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٦) .

وقال تعالى عن نوح (عليه السلام) حين سأل ربه تعالى عن ابنه ، فنهاء ربه عن ذلك لأن ابنه كان كافراً ، فاستغفر نوح من ذلك .

(١) ابن القيم ، المرجع السابق ، ص ٣٠٦ : ٣٠٩ .

(٢) سورة المزمل / ٢٠ . (٣) سورة النساء / ١١٠ .

(٤) سورة النور / ٣١ .

(٥) رواه مسلم في صحيحه في كتاب التوبة ، باب سقوط الذنوب بالاستغفار والتوبة .

(٦) سورة الأعراف / ٢٣ .

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (١).

ومن دعاء نوح (عليه السلام) : ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ...﴾ (٢).

ومن دعاء إبراهيم (عليه السلام) : ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ (٣).

وقال تعالى على لسان موسى (عليه السلام) : ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (٤).

وقال أيضاً بعد قتل القبطى المعتدى : ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٥).

وقال تعالى عن داود عليه السلام : ﴿وَهَذَا دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَتَاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنْ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ (٦).

وقال تعالى عن سليمان (عليه السلام) : ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (٧).

وقال تعالى مخاطباً رسوله محمداً ﷺ : ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ (٨).

قال المفسرون في قوله تعالى : واستغفر لذنبيك هذا تهيبج للأمة على الاستغفار.

(١) سورة هود/ ٤٧.	(٢) سورة نوح/ ٢٨.
(٣) سورة إبراهيم/ ٤١.	(٤) سورة الأعراف/ ١٥١.
(٦) سورة ص/ ٢٤، ٢٥.	(٧) سورة ص/ ٣٥.
	(٨) سورة غافر/ ٥٥.
	(٥) القصص/ ١٦.

وفى الحديث الشريف أن رسول الله (ﷺ) كان يقول : اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي ، وإسرافي في أمري ، وما أنت أعلم به مني . اللهم اغفر لي جدي وهزلي ، وخطئي وعمدي ، وكل ذلك عندي . اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت ، وما أسرفت وما أنت أعلم به مني أنت إلهي لا إله إلا أنت (١) .

وعن عائشة (رضي الله عنها) قالت : ما صلى رسول الله (ﷺ) صلاة بعد أن نزلت عليه سورة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ إلا يقول : سبحانك ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي (٢) .

وعن الأغر المزني (رضي الله عنه) أن رسول الله (ﷺ) قال : « إنه ليغان (٣) على قلبي ، وإنني لا استغفر الله في اليوم مائة مرة » (٤) .

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال سمعت رسول الله (ﷺ) يقول : «والله إنني لاستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة» (٥) .

وعن ابن عمر (رضي الله عنهما) قال إن كنا نعد لرسول الله (ﷺ) في المجلس الواحد مائة مرة : رب اغفر لي ، وتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم (٦) .

فإذا كان رسول الله (ﷺ) وهو معصوم ، يؤمر بالاستغفار ، ويكثر

(١) رواه البخاري (١١ / ١٦٦ ، ١٦٧) ومسلم (٢٧١٩) . (٢) البخاري .

(٣) المقصود بالغين الفتور عن الذكر أحياناً .

(٤) رواه مسلم (٢٧٠٢) وغيره .

(٥) رواه البخاري (١١ / ٨٥) والنسائي والترمذي .

(٦) رواه أبو داود والترمذي وقال حديث صحيح وصحه الألباني في صحيح أبي داود .

من الاستغفار فما الظن بغيره؟!

فإن قيل : فماذا يُغْفَرُ للنبي (ﷺ) حتى يؤمر بالاستغفار ويكثر منه؟
قيل : كان رسول الله (ﷺ) يكثر من الاستغفار ، لأنه كان يستقصر نفسه
لعظم ما أنعم الله به عليه ، ويرى قصوره عن القيام بحق ذلك ذنباً
يستغفر منها (١) .

والمؤمنون مطالبون بالاستغفار والتوبة إلى الله عز وجل : قال
تعالى : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ
وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ
غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٣) .

وعن أنس (رضي الله عنه) قال : سمعت رسول الله (ﷺ) يقول :
«قال الله تعالى : يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرتُ لك على ما
كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم
استغفرتني، غفرتُ لك ولا أبالي يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض
خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً، لأتيتك يقربها مغفرة» (٤) .

وقد علمنا رسول الله ﷺ سيد الاستغفار :

عن شدداد بن أوس (رضي الله عنه) عن النبي (ﷺ) قال : «سيدُ
الاستغفار أن يقول العبد اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك
وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك

(١) أحمد البيهقي، التوبة، ج ٢، ص ١٩ .

(٢) سورة آل عمران/ ١٣٥ . (٣) سورة النساء/ ١١٠ .

(٤) رواه الترمذي . وقال حديث غريب وحسنه الألباني في صحيح الجامع ٥٤٨/٥ .

بنعمتك على، وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت من قالها من النهار موقناً بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح، فهو من أهل الجنة» (١).

وللتوبة والاستغفار ثمرات وبركات لعل من أبرزها:

أولاً - البركة في الرزق والقوة وحسن المتاع:

قال تعالى على لسان نوح (عليه السلام):

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِيَنَّ لَكُمْ جَنَاتٍ وَيَجْعَلَ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴾ (٢).

وقال تعالى على لسان هود (عليه السلام)

﴿ يَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ ﴾ (٣).

وفى الحديث الشريف: «من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجاً، ومن كل هم فرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب» (٤).

ولهذا روى أن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) صعد المنبر يوماً ليستسقي، فلم يزد على الاستغفار، وقراءة آيات الاستغفار ثم قال لقد طلبت الغيث بمخارج السماء، التي يستنزل بها المطر.

وقد جاء في الأثر أن الحسن البصري شكا إليه رجل الجذب فقال له: استغفر الله، وشكا إليه آخر الفقر فقال له: استغفر الله، وشكا إليه

(١) رواه البخاري في صحيحه (٩٧/١١) في الدعوات.

(٢) سورة نوح / ١٠ - ١٢. (٣) سورة هود / ٥٢.

(٤) رواه أبو داود والنسائي والحاكم وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

ثالث جفاف بستانه فقال له : استغفر الله وشكا إليه رابع عدم الولد فقال له : استغفر الله ثم تلا هذه الآية :

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴾ (١).

فالعيش الطيب الهنيء مقرون بالاستغفار.

قال تعالى : ﴿وَأَن اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ (٢).

ثانياً :- مغفرة الذنوب: قال تعالى : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (٣).

وقد مضى الحديث القدسي الجليل الذي يقول فيه الله عز وجل . . . « يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي ».

وعن ابن مسعود (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله ﷺ من قال استغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه غفرت ذنوبه وإن كان قد فرّ من الزحف (٤).

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أنه سمع رسول الله ﷺ يقول إن عبداً أصاب ذنباً، فقال : يارب إنني أذنبت ذنباً فاغفره فقال له ربه علم عبدى أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، فغفر له، ثم مكث ما شاء الله ثم

(١) سورة نوح / ١٠-١٢ . (٢) سورة هود / ٣ .

(٣) سورة النساء / ١١٠

(٤) رواه أبو داود والترمذي والحاكم وقال حديث صحيح على شرط البخاري ومسلم ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الترمذي ١٨٢ / ٣ .

أصاب ذنباً آخر وربما قال : ثم أذنب ذنباً آخر ، فقال : يارب إنني أذنبت ذنباً آخر فاغفره لي قال ربه علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذه ، فغفر له ، ثم مكث ما شاء الله ، ثم أصاب ذنباً آخر ، وربما قال : ثم أذنب ذنباً آخر فقال : يارب إنني أذنبت ذنباً فاغفره لي ، فقال ربه : علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذه ، فقال ربه غفرت لعبدي فليعمل ما شاء (١) .

وقوله : (فليعمل ما شاء) معناه والله أعلم أنه كلما أذنب ذنباً استغفر وتاب منه ثم لم يعد إليه وإنما أصاب ذنباً آخر . فإذا كان هذا دأبه كلما أذنب ذنباً استغفر فإن الله عز وجل يغفر له ويدل هذا الحديث على عظم فائدة الاستغفار ، وكثرة فضل الله عز وجل وسعة رحمته .

وعن عمران بن الحصين (رضي الله عنه) أن امرأة من جهينة أتت رسول الله (ﷺ) وهي حبلى من الزنا . فقالت : يا رسول الله أصبت حداً فأقامة عليّ فدعا نبي الله (ﷺ) وليها فقال : أحسن إليه ، فإذا وضعت فأتني بها ففعل ، فأمر نبي الله (ﷺ) فشدت عليها ثيابها ثم أمر بها فرجمت ثم صلى عليها ، فقال له عمر : تصلى عليها يا رسول الله ، وقد زنت؟ قال لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم ، وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله عز وجل (٢) .

وعن أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) أن نبي الله (ﷺ) قال : «كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً ، فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب . فأتاه ، فقال : إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) رواه مسلم (١٦٩٦) .

من توبة؟ فقال: لا: فقتله فكمل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على رجل عالم فقال: إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ فقال: نعم من يحول بينه وبين التوبة انطلق إلى أرض كذا وكذا. فإن بها أناساً يعبدون الله، فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا نصف الطريق، فأتاه ملك السموات فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى، وقالت ملائكة العذاب إنه لم يفعل خيراً قط، فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم، فقال: قيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقيسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة.

وفى رواية: فكان إلى القرية الصالحة أقرب بشبر فجعل من أهلها.
وفى رواية: فأوحى الله إلى هذه أن تباعدى، وإلى هذه أن تقربى، وقال: قيسوا بينهما فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر فغفر له.
وفى رواية: قال قتادة قال الحسن: ذكر لنا أنه لما أتاه الموت نأى ب صدره نحوها» (١).

من الأحاديث السابقة يتبين أن توبة الله عز وجل لا تحجب عن عاصٍ، وأنه سبحانه وتعالى يغفر الذنوب جميعاً للمستغفرين التائبين.
قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٢).

(١) رواه البخارى (٣٧٣ / ٦)، ومسلم (٢٧٦٦) وابن ماجه بنحوه.

(٢) سورة الزمر / ٥٣.

وقد روى عن ابن عباس (رضي الله عنه): أن وحشياً لما قتل حمزة (رضي الله عنه) ذهب إلى الطائف، وندم على فعله، فكتب إلى النبي (ﷺ) هل لي من توبة؟

فنزّل قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (١).

فقال وحشى: لعلي لا أدخل تحت هذه المشيئة.

فنزّل قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ (٢). إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ (٣).

فقال وحشى: لعلي لا يكون لي عمل صالح.

فنزّلت هذه الآية: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ...﴾ (٤) الآية.

وفي هذه الآية نلاحظ ما يلي:

١- لم يقل الله سبحانه وتعالى الذين فسقوا أو شربوا الخمر أو زنوا بل ستر ذلك عليهم. فقال: ﴿الَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾ فإذا اقتضى كرمه صيانة العبد عن الخجل في الدنيا فهل يليق به إن تاب العبد أن يعذبه في الآخرة؟

٢- قوله تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ﴾ فأضافهم إلى نفسه، فعيبهم ظهر منهم بإسرافهم في الذنوب، وزينتهم ظهرت من مولاهم بإضافتهم إليه ﴿يَا عِبَادِيَ﴾ وما يظهر من المولى أقوى مما يظهر منهم، فالإضافة أقوى من الإسراف وفيها ستر وكرم من المولى يوجب الحياء والتوبة من العبد.

٣- قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾ يعنى أنهم قصرُوا في حق أنفسهم

(١) سورة النساء، آية: ٤٨.

(٢) سورة الفرقان، آية: ٦٨.

(٣) سورة الفرقان، آية: ٧٠.

(٤) سورة الزمر، آية: ٥٣.

لا في حقي فكفاهم ضرراً أن قصرُوا في حق أنفسهم ، فإسرافهم على أنفسهم مصيبة أصابتهم ، فمن كرم الكريم ألا يلحق بهم مصيبة أخرى بتعذيبهم ، ولذلك فتح لهم باب المغفرة والتوبة ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلَمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بُعْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (١) .

٤ - قوله في آخر الآية : ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أى لا ينبغي أن تظنوا أنه سبحانه وتعالى إنما شرع المغفرة والرحمة من أجلكم خاصة ، وإنما هذه صفة أزلية من صفاته سبحانه وتعالى ، فهو غفور رحيم لكم ولغيركم من الأزل إلى الأبد . ونظيره قوله تعالى : ﴿استغفروا ربكم إنه كان غفاراً﴾ فلم يقل إنه غفار بل كان غفاراً أى أنه من الأزل إلى الأبد موصوف بهذه الصفة فلا ينبغي أن تتعجبوا أن يغفر ذنوبكم .

ثالثاً: النجاة من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة:

قال تعالى : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَكْفِرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ

(١) سورة الزمر / ٥٤ ، ٥٥ (٢) سورة الأنفال / ٣٣ .

(٣) سورة التحريم / ٨ .

(١٣٥) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١﴾ .

وعن ابن عمر (رضي الله عنه) أن النبي (ﷺ) قال: « يا معشر النساء تصدقن، وأكثرن من الاستغفار، فإني رأيتكن أكثر أهل النار » قالت امرأة منهن: مالنا أكثر أهل النار؟ قال: تكثرن اللعن، وتكفرن العشير... الحديث (٢) .

ورابعاً: فرحة الله (عز وجل) بتوبة عبده:

عن أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ) « لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله في أرض فلاة » (٣) .

وفى رواية لمسلم: « لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها، وقد أيس من راحلته فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدى وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح » .

فالله سبحانه وتعالى خلق الإنسان وأعد له أنواع كرامته، وفضله على غيره، وجعله محل معرفته، وأنزل إليه كتبه، وأرسل إليه رسله، واعتنى بأمره ولم يهمله ولم يتركه سدى، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة. فبينما هو حبيب المقرب المخصوص بالكرامة، إذ انقلب أبقاً

(١) سورة آل عمران / ١٣٥، ١٣٦ .

(٢) رواه مسلم برقم (٧٩) .

(٣) متفق عليه (البخارى ١١/٩١، ٩٢، ومسلم برقم ٢٧٤٧) .

شارداً، راداً لكرامته، مائلاً إلى عدوه، فبينما هو مع العدو في طاعته وخدمته، ناسياً سيده ومولاه، منهمكاً في موافقة عدوه... إذ عرضت له فكره فتذكر بر سيده وعطفه وجوده وكرمه، وعلم أنه لا بد له منه، وأن مصيره إليه، وأنه إن لم يقدم عليه بنفسه قدم عليه على أسوأ الأحوال، ففر إلى سيده من بلد عدوه، وجدّ في الهرب إليه حتى وصل إلى بابه، فوضع خده على عتبة بابه، وتوسد ثرى أعتابه. متذللاً متضرعاً، خاشعاً باكياً أسفاً. يتملق سيده ويسترحمه، ويستعطفه ويعتذر إليه... قد استسلم له وأعطاه قياده، وألقى إليه زمامه فكيف يكون فرح سيده به؟! وقد عاد إليه حبيبه ووليه طوعاً واختياراً... وفتح طريق البر والإحسان والجود. التي هي أحب إلى سيده من طريق الغضب والانتقام والعقوبة لله (١).

خامساً: ومن هذه الثمرات إجابة الدعاء:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِي تُمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا لَهُمْ تَتَوَبُّوا إِلَى اللَّهِ إِنْ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ (٢).

وقد روى عبد الله بن الفضل بن الربيع عن أبيه أن أبا جعفر المنصور حجّ سنة سبع وأربعين ومائة فقدم المدينة وقال: ابعث إلى جعفر بن محمد من يأتينا به تعباً، قتلني الله إن لم أقتله، فتغافل عنه الربيع لينساه، ثم اعاد ذكره للربيع وقال أرسل إليه من يأتني به تعباً، فتشاغل عنه، ثم أرسل إلى الربيع برسالة قبيحة في جعفر وأمره أن يبعث إليه

(١) ابن القيم، مرجع سابق، ص ٢١٣.

(٢) سورة هود/ ٦٢.

ففعّل . فلما أتاه قال له : يا أبا عبد الله اذكر الله فإنه قد أرسل إليك التّى لا سوى لها (١) .

قال جعفر : لا حول ولا قوة إلا بالله . ثم أعلم أبا جعفر حضوره . فلما دخل أوعده وقال : أئى عدو الله اتخذك أهل العراق إماماً يجبون إليك زكاة أموالهم ، وتلحد في سلطانى ، وتبغيه الغوائل ؟ قتلنى الله إن لم أقتلك .

فقال : يا أمير المؤمنين إنّ سليمان (عليه السلام) أعطى فشكر ، وإن أيوب ابتلى فصبر ، وإن يوسف ظلّم فغفر ، وأنت من ذلك السّبح (٢) .

فقال له أبو جعفر : إلّى وعندى ، أبا عبد الله . البرئ السّاحة ، السليم النّاحية القليل الغائلة ، جزاك الله من ذى رحم أفضل ما جزى ذوى الأرحام عن أرحامهم . ثم تناول يده فأجلسه معه على فراشه ثم قال : على بالمنجف فأتى بدهن فيه غاليه (٣) فغلفه بيده حتى خلت لحيته قاطرة . ثم قال : في حفظ الله وفى كلاءته . ثم قال : يا ربيع ألحق أبا عبد الله جائزته وكسوته ، انصرف أبا عبد الله في حفظ الله وفى كنفه . فانصرف ولحقته فقلت له : إننى قد رأيت قبل ذلك ما لم تره ، ورأيت بعد ذلك ما قد رأيت ، فما قلت يا أبا عبد الله حين دخلت ؟

قال : قلت اللهم احرسنى بعينك التّى لا تنام ، واكنفنى بركنك الذي لا يُرام ، واغفر لي بقدرتك على لا أهلك وأنت رجائى . اللهم إنك أكبر وأجل ممن أخاف وأحذر ، اللهم بك أدفع في نحره ، واستعيذ بك من شره (٤) .

(٢) الأصل .

(١) أي القتل .

(٤) ابن الحوزى ، صفة الصفوة ، ج ٢ ، ص ١٨٩ .

(٣) أخلاط من الطيب .

وحتى ينال العبد المغفرة من الغفار (سبحانه وتعالى): هناك أسباب للمغفرة ينبغي أن تراعى، نذكر منها:

أولاً: الإيمان بالله وعمل الصالحات.

قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾ (٢).

ومن أفضل الأعمال الصالحة الجهاد في سبيل الله عز وجل، ولذلك يوجب الغفران:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُجِيبُكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (١) تُوَمِّنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ (٣).

ثانياً: تقوى الله عز وجل والخوف من عقابه:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ (٤).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ...﴾ (٥).

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن النبي (ﷺ) قال: «كان رجل يسرف على نفسه فلما حضره الموت قال لبيته: إذا أنا مت فأحرقوني ثم

(١) سورة الحج/ ٥٠.

(٢) سورة التغابن/ ٩.

(٣) سورة الصف/ ١٠-١٢.

(٤) سورة المائدة/ ٦٥.

(٥) سورة الأحزاب/ ٧٠-٧١.

اطحنوني ثم ذروني في الريح، فوالله لئن قدر الله عليّ ليعذبني عذاباً ما عذبه أحداً، فلما مات فُعل به ذلك، فأمر الله الأرض فقال: اجمعي ما فيك ففعلت، فإذا هو قائم فقال: ما حملك على ما صنعت؟ قال: خشيتك يارب، أو قال: مخافتك: فغفر له» (١).

وعن ابن عمر (رضي الله عنه) قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: «كان الكفل من بنى إسرائيل لا يتورع من ذنب عمله، فأثته امرأة فأعطاهما ستين ديناراً عليّ أن يطأها فلما أرادها عليّ نفسها ارتعدت وبكت، فقال: ما يبكيك؟ قالت: لأن هذا عمل ما عملته، وما حملني عليه إلا الحاجة، فقال: تفعلين أنت هذا من مخافة الله، فأنا أحرى، اذهبي فلك ما أعطيتك، ووالله ما أعصيه بعدها أبداً، فمات من ليلته، فأصبح مكتوباً عليّ بابه: إن الله قد غفر للكفل فعجب الناس من ذلك» (٢).

ثالثاً: الاعتراف بالذنب والندم على فعله :

قال الله تعالى: ﴿وآخِرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣).

فالمذنبُ يعترفُ بأنه فعل الذنبَ، وأنه ما فعله استهانة بربه، ولا جهلاً به، ولا إنكاراً لا اطلاعه عليه، وإغما من غلبة الهوى، وضعف القوة عن مقاومة الشهوة، وطمعاً في مغفرة ربه، واتكلاً على عفوه، ورجاء لكرمه.

(١) رواه البخاري (٤٩٤/٦)، ومسلم (٢١٠٩).

(٢) رواه الترمذي وحسنه، والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

(٣) سورة التوبة / ١٠٢.

فاعتراف العبد بالذنب، وندمه على فعله، ولوم نفسه عليه توبة.

عن حميد الطويل قال: قلت لأنس بن مالك (رضي الله عنه): أقال النبي (ﷺ): الندم توبة؟ قال: نعم (١).

رابعاً: البذل والإنفاق والتجاوز عن المعسرين:

قال تعالى: ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يضاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٢) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٣).

وفي الحديث الشريف: «الصدقة تطفيء الخطيئة كما يطفىء الماء النار» (٤).

وفي الحديث الشريف أيضاً، قال رسول الله (ﷺ): «حوسب رجلٌ ممن كان قبلكم، فلم يوجد له من الخير شيء إلا أنه كان يخلط الناس أئى يعاملهم بالبيع والمداينة، وكان موسراً، وكان يأمر غلمانَه أن يتجاوزوا عن المعسر. قال الله عز وجل: نحن أحق بذلك منه، تجاوزوا عنه» (٥).

خامساً: العفو والصفح:

ومن أسباب المغفرة العفو والصفح عن زلات البشر، وقد أمر الله (عز وجل) رسوله أن يلتزم هذا الخلق لأنه سبحانه عفو يحب العفو.

(١) رواه ابن حبان في صحيحه.

(٢) سورة التغابن/ ١٧. (٣) سورة آل عمران/ ١٣٣، ١٣٤.

(٤) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

(٥) رواه مسلم (١٥٦١).

فقال تعالى مخاطباً نبيه (ﷺ): ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ (٢).

وأمر بذلك المؤمنين، فقال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٣).

وأثنى سبحانه على العافين، فقال تعالى: ﴿وَالْكَافِرِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٤).

وجاءت الآية صريحة في أن من عفا وصفح غفر الله له:

قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِلْ أَوْلُوا الْفَضْلَ مِنْكُمْ وَالسَّعَةَ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٥).

وقيل نزلت هذه الآية الكريمة في أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) حين حلف ألا ينفع مسطح بن أثاثه بنافعة أبداً. وكان ابن خالته. ولكنه تكلم في عرض أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) في قصة الإفك. . فلما أنزل الله (عز وجل) براءتها، وطابت النفوس واستقرت، وتاب الله على من تاب، وأقيم الحد على من أقيم عليه ومنهم مسطح. حثاً (سبحانه وتعالى) أبا بكر على الإنفاق على مسطح.

(١) سورة الأعراف/ ١٩٩.

(٢) سورة الحج / ٨٥.

(٣) سورة الجاثية / ١٤.

(٤) سورة آل عمران / ١٣٤.

(٥) سورة النور / ٢٢.

بقوله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

فأجزاء من جنس العمل، فكما تغفر ذنب من أذنب في حقك؛ يغفر الله لك، وكما تصفح يصفح عنك.

فعند ذلك قال الصديق: بلى والله إنا نحب أن تغفر لنا يا ربنا! ثم رجع إلى مسطح بما كان يصله به من النفقه، قائلاً: «والله لا أنزعها منه أبداً»

وفي هذا المعنى أيضاً يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١).

وفي الحديث الشريف: «ارحموا تُرحموا واغفروا يغفر لكم» (٢).

سادساً: ذكر الله (عز وجل):

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَالَّذَاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالَّذَاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٣).

وفي الحديث الشريف قال رسول الله (ﷺ): «من سبَّح الله في دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين، وحَمِدَ الله ثلاثاً وثلاثين، وكَبَّرَ الله ثلاثاً وثلاثين، وقال تمام المائة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، غُفِرَتْ خطاياهم وإن كانت مثل زبد البحر» (٤).

(١) سورة التغابن / ١٤.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد، وصححه الألباني وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم ٨٢.

(٣) سورة الأحزاب / ٣٥. (٤) رواه مسلم (٥٩٧).

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ) «إن لله تعالى ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله (عز وجل) تنادوا: هلموا إلى حاجتكم، فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا، فيسألهم ربهم - وهو أعلم - :

ما يقول عبادي؟

قال: يقولون: يسبحونك، ويكبرونك، ويحمدونك، ويمجدونك.

فيقول: هل رأوني؟

فيقولون: لا والله ما رأوك.

فيقول: كيف لو رأوني؟

قال: يقولون: لو رأوك كانوا أشد لك عبادةً، وأشد لك تمجيذاً، وأكثر تسبيحاً.

فيقول: فماذا يسألون؟

قال: يقولون: يسألونك الجنة.

قال: يقول: وهل رأوها؟

قال: يقولون: لا والله يارب ما رأوها.

قال: يقول: فكيف لو رأوها؟

قال: يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً، وأشد لها طلباً، وأعظم فيها رغبةً.

قال: فمم يتعوذون؟

قال يقولون: يتعوذون من النار.

فيقول: وهل رأوها؟

قال: يقولون: لا والله ما رأوها.

فيقول: فكيف لو رأوها؟

قال: يقولون: لو رأوها كانوا أشدّ منها فراراً، وأشدّ لها مخافةً.

قال: فيقول: فأشهدكم أنني قد غفرتُ لهم.

قال: يقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء حاجة.

قال: هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم» (١).

سابعاً: الرحمة بالبهائم وإمالة الأذى عن الطريق:

عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله (ﷺ) قال: «بينما رجلٌ يمشي بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئراً فنزل فيه فشرب، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان قد بلغ مني، فنزل البئر فملأ خفه ماءً ثم أمسكه بفيه، حتى رقى فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له».

قالوا: يا رسول الله إن لنا في البهائم أجراً؟ فقال: «في كل كبد رطبة أجر» (٢).

وفي رواية أخرى: «بينما كلب يطيف بركية» (٣) قد كاد يقتله العطش إذ رأته بغي من بغايا بني إسرائيل، فنزعت موقها (٤) فاستقت له به، فسقته فغفر لها به».

(١) رواه البخاري (١٧٧/١١، ١٧٩) ومسلم (٢٦٨٩)، والترمذي (٣٥٩٥).

(٢) رواه البخاري (٣٢، ٣١/٥) ومسلم (٢٢٤٤).

(٣) بئر.

(٤) خفها.

وعنه أيضاً عن النبي (ﷺ) قال: «بينما رجل يمشى بطريق وجد غصن شوك على الطريق، فأخره فشكر الله له، فغفر له» (١).

ثامناً: اجتناب الكبائر:

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكْفِرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ (٢).

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن رسول الله (ﷺ) قال: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر» (٤).

وهناك أسباب أخرى كثيرة لا يتسع المقام لذكرها مثل إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، والتعب في تحصيل الرزق، وافتتاح اليوم واختتامه بخير، وحسن الخلق، ومصافحة الإخوان، وإطعام الطعام، وحمد الله تعالى بعد الطعام ولبس الثياب الجديدة، وطلب العلم، والإصلاح بين الناس، وفعل الحسنات بعد السيئات، وعيادة المرضى، واتباع الجنائز. كل هذه الأسباب من موجبات مغفرة الغفار سبحانه وتعالى.

وحتى يقبل الله عز وجل توبة عبده ويغفر له لا بد من تحقق شروط

(١) رواه البخاري (١١٦/٢) ومسلم (١٩١٤).

(٢) سورة النجم / ٣٢.

(٣) سورة النساء / ٣١.

(٣) رواه مسلم (٢٣٣).

التوبة، فما هي هذه الشروط؟

قال العلماء : التوبة واجبة من كل ذنب، فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى أى لا تتعلق بحق آدمى، فلها ثلاثة شروط : أحدهما: أن يقطع عن المعصية .

والثانى: أن يندم على فعلها .

والثالث: أن يعزم على أن لا يعود إليها أبداً .

فإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته .

وإن كانت المعصية تتعلق بآدمى فشروطها أربعة : هذه الثلاثة، وأن يبرأ من حق صاحبها، فإن كان مالا أو نحوه رده إليه، وإن كانت حد قذف ونحوه مكنه منه أو طلب عفو، وإن كانت غيبة استحله منها .

وقد قسم العلماء ذلك إلى ثلاثة أقسام :

(أ) ترك واجبات الله (سبحانه وتعالى) من صلاة أو صوم أو زكاة أو حج وغيرها، وهذه الخلاص منها بقضاء ما يمكن قضاؤه منها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

فمن ترك الصلاة عمداً من غير عذر، مع علمه بوجوبها وفرضها ثم تاب وندم، هل يقضى الصلاة الفائتة؟

اختلف العلماء في هذه المسألة : فقالت طائفة توبته بالندم والاشتغال بأداء الفرائض المستأنفة، وقضاء الفرائض المتروكة . وهذا قول الأئمة الأربعة وغيرهم .

وقالت طائفة توبته بالندم واستئناف العمل في المستقبل، ولا ينفعه تدارك ما مضى بالقضاء .

وخلاصة القول في هذه المسألة: أن الإنسان إذا تاب إلى الله عز وجل، وكان عليه صلاة واستطاع أن يقضى هذه الصلاة، فليفعل وهذا هو الأفضل وخروجاً من الخلاف. وإن لم يستطع فعليه أن يستغفر الله تعالى ويندم على تفريطه في حق الله سبحانه وتعالى. ويكثر من النوافل ففي الحديث الشريف: «إن أول ما يحاسب منه العبد يوم القيامة من عمله صلاته فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر. فإن انتقص من فريضة شيء، قال الرب تبارك وتعالى: انظروا هل لعبدي من تطوع؟ فيكمل بها ما نقص من الفريضة، ثم يكون سائر عمله على ذلك» (١).

أما بالنسبة لقضاء الزكاة فيحسب جميع ماله، وعدد السنين من أول ملكه للنصاب ثم يؤديها.

وقضاء الصيام يكون بصيام الأيام التي ترك صيامها لسفر أو لمرض أو أظرفها عمداً. فيتعرف على مجموع ذلك بالتحري والاجتهاد، ويشغل بقضائه ويستغفر الله من تفريطه وتأخره.

وأما الحج، فإن كان قد استطاع في بعض السنين ولم يتفق له الخروج فعليه الخروج، فإن كان مفلساً فعليه أن يكتسب من الحلال قدر الزاد، فإن لم يكن له كسب ولا مال، فعليه أن يكثر من الاستغفار والندم، وينوى مع ذلك أنه متى استطاع الحج خرج إليه على الفور.

(ب) ذنوب بين العبد وربّه سبحانه وتعالى كشرب الخمر، وإضاعة الوقت في اللهو العابث واللهو المريب، وأكل الربا، وغيرهما. فالتوبة

(١) أخرجه الترمذي وحسنه وابن ماجه والنسائي وصححه شعيب الأرناؤوط وزميلاه في تخريج رياض الصالحين.

من هذه الذنوب تكون بالندم على فعلها، ويجتهد في أن يأتي بحسنات كثيرة تقابل هذه السيئات وتمحوها أخذاً من قول الله عز وجل ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ (١).

وقول الرسول (ﷺ): « اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن » (٢).

فيكفر سماع الملاحى بسماع القرآن، وبمجالس الذكر، ويكفر شرب الخمر بالتصدق بشراب الحلال . . وهكذا . . والمقصود من ذلك سلوك الطريق المضاد لأن المرض يعالج بضده (٣).

(ج) ذنوب بين العباد: وهذه المظالم إما في النفس أو في المال أو في الأعراض.

فإذا كانت الذنوب في النفس فإن شروط التوبة أن يمكن صاحب الحق أو أولياءه في القصاص أو طلب العفو، وإن جرى عليه قتل خطأ، فتوبته بتسليم الدية ووصلها إلى المستحق، ولا يجوز له الإخفاء.

وإذا كانت الذنوب في المال فمن شروط التوبة أن يرده لأصحابه. فمن سرق ثم تاب عن السرقة لابد أن يعيد ما سرقه لأصحابه. فإن عجز عن ذلك لسبب فقد المال فيستحل من صاحبه أو يطلب منه مسامحته.

وهنا مسألة: وهى من غضب مالاً أو سرقه أو اختلسه، ثم تاب

(١) سورة هود/ ١١٤.

(٢) رواه الترمذي وصححه وهو كما قال (رياض الصالحين شعيب الأرناؤوط وزميلاه).

(٣) أبو حامد الغزالي/ إحياء علوم الدين، ج ١، ص ٢١٢٦.

وتعذر عليه رده إلى صاحبه، أو إلى ورثتهم لجهله بهم، أو لانقراضهم، أو لغير ذلك فاختلف في توبة هذا، هل له توبة أم لا؟
قالت طائفة: لا توبة له إلا بأداء هذه المظالم إلى أربابها، فإذا كان قد تعذر عليه ذلك فقد تعذرت عليه التوبة، والقصاص أمامه يوم القيامة بالחסنات والسيئات.

وقالت طائفة أخرى: بل باب التوبة مفتوح لهذا، ولم يغلقه الله عنه ولا عن مذنب، وتوبته: أن يتصدق بتلك الأموال عن أربابها، فإذا كان يوم استيفاء الحقوق (يوم القيامة)، كان لهم الخيار بين أن يجيزوا ما فعل، وتكون أجورها لهم، وبين أن لا يجيزوا، ويأخذوا من حسناته بقدر أموالهم، ويكون ثواب تلك الصدقة له.

وهذا مذهب جماعة من الصحابة، كما هو مروى عن ابن مسعود، ومعاوية وحجاج ابن الشاعر. فقد روى أن ابن مسعود اشترى من رجل جارية، ودخل يزن له الثمن. فذهب ربّ الجارية، فانتظره حتى يش من عوده، فتصدق بالثمن وقال: «اللهم هذا عن ربّ الجارية فإن رضى فالأجر له، وإن أبى فالأجر لى. وله من حسناتى بقدره»

وغلّ رجل من الغنيمة ثم تاب، فجاء بما غلّه إلى أمير الجيش وقد تفرقوا فأتى حجاج بن الشاعر. فقال: يا هذا، إن الله يعلم الجيش وأسماءهم وأنسابهم، فادفع خمسة إلى صاحب الخمس، وتصدق بالباقي عليهم، فإن الله يوصل ذلك إليهم ففعل فلما أخبر معاوية قال: لأن أكون أفتيت بذلك أحب إلى من نصف ملكى (١).

(١) ابن القيم، مدارج السالكين، ج ١، ص ٣٨٨.

أما إذا كانت الذنوب في الأعراض بأن يكون قد اغتاب إنساناً، أو بهته، أو شتمه، أو قذفه. فهل يعلمه بذلك ليتحلل منه أم لا؟

قال ابن القيم: « وإن كانت المظلمة بقدرح فيه، بغيبة أو قذف، فهل يشترط في توبته منها إعلامه بذلك بعينه والتحلل منه؟ أو إعلامه بأنه قد نال من عرضه، ولا يشترط تعيينه؟ أو لا يشترط لا هذا ولا هذا، بل يكفي في توبته أن يتوب بينه وبين الله من غير إعلام من قذفه واغتابه؟

قالت طائفة يشترط الإعلام والتحلل لأن الذنب حق آدمي، فلا يسقط إلا بإحلاله منه وإبرائه. لحديث رسول الله (ﷺ): « من كان لأخيه عنده مظلمة من مال أو عرض، فليتحلله اليوم من قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إلا الحسنات والسيئات ».

وقالت طائفة أخرى: أنه لا يشترط الإعلام بما نال من عرضه وقذفه واغتيابه بل يكفي توبته بينه وبين الله. وأن يذكر المغتاب والمقذوف في مواضع غيبته وقذفه بضد ما ذكره من الغيبة فيبدل غيبته بمدحه والثناء عليه، وذكر محاسنه وقذفه بذكر عفته وإحصانه، ويستغفر له بقدر ما اغتابه.

واحتج أصحاب هذه المقالة بأن إعلامه مفسدة محضة، لا تتضمن مصلحة، فإنه لا يزيده إلا أذى وحنقاً وغماً، وربما كان ذلك سبباً للعداوة والحرب بينه وبين القبائل فيتولد لذلك شر أكبر من شر الغيبة والقذف. وهذا ضد مقصود الشارع من تأليف القلوب، والتراحم والتعاطف والتحابب.

وهناك فرق بين إعلامه بالحقوق المالية وجنابات الأبدان وهذه، لأن

الأولى تسره وتفرحه، والأخيرة تضره وتهيجه (١).

بقي سؤال وهو ما علامات قبول توبة العبد؟

يجيب ابن القيم - رحمه الله - عن هذا السؤال يقول: «فالتوبة المقبولة الصحيحة لها علامات: منه: أن يكون بعد التوبة خيراً مما كان قبلها.

ومنها أنه لا يزال الخوف مصاحباً له لا يأمن مكر الله طرفة عين، فخوفه مستمر إلى أن يسمع قول الرسل لقبض روحه: ﴿لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾ فهناك يزول الخوف.

ومنها: انخلاع قلبه، وتقطعه ندماً وخوفاً، وهذا على قدر عظم الجناية وصغرهما فالخوف الشديد من العقوبة العظيمة يوجب انصداع القلب وانخلاعه. وهذا هو تقطعه حسرة على ما فرط منه، وخوفاً من سوء عاقبته.

ومنها: كسرة خاصة تحصل للقلب لا يشبهها شيء، ولا تكون لغير المذنب، وهي تكسر القلب بين يدي الرب كسرة تامة، قد أحاطت به من جميع جهاته، وألقته بين يدي ربه طريحاً ذليلاً خاشعاً، والخضوع والتذلل والإخبات، والانطراح بين يديه والاستسلام له. فله ما أحلى قوله في هذه الحال: «أسألك بعزك وذلي إلا رحمتني، أسألك بقوتك وضعفي، وبغناك عنى وفقرى إليك، هذه ناصيتي الكاذبة الخاطئة بين يديك، عبيدك سوائى كثير، وليس لى سيد سواك. لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك. أسألك مسألة المساكين وابتهل إليك ابتهاال الخاضع الدليل. وأدعوك دعاء الخائف الضرير، سؤال من خضعت لك رقبته،

(١) ابن القيم، مدارج السالكين، ج١، ص ٢٩١.

ورغم لك أنفه، وفاضت لك عيناه، وذل لك قلبه» (١).

فهذا وأمثاله من آثار التوبة المقبولة. فمن لم يجد ذلك في قلبه فليتهم توبته وليراجع إلى تصحيحها، فما أسهل التوبة لساناً ودعوى وما أصعبها حقيقةً وفعلاً والله المستعان.

رب إنني ظلمت نفسي فاغفر لي إنك أنت الغفور الرحيم

﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ (٢).

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ (٣).

اللهم اغفر لي وارحمني وأهدني وعافني وارزقني (٤).

اللهم اغفر لي ذنبي كله، دقه وجله، أوله وآخره، وسره وعلايته (٥).

اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت (٦).

رب اغفر لي وتب علي، إنك أنت التواب الرحيم (٧).

اللهم إنك عفوف تخب العفوف فاعف عني (٨).

(١) ابن القيم، مرجع سابق، ص ١٨٧.

(٢) سورة نوح/ ٢٨. (٣) سورة إبراهيم/ ٤١.

(٤) رواه مسلم ٢٠٧٢/٤. (٥) رواه مسلم (٤٨٣).

(٦) رواه مسلم (سبق تخريجه).

(٧) رواه أبو داود والترمذي وقال حديث صحيح، وصححه الألباني في صحيح الترمذي

١٨٢/٣.

(٨) رواه الترمذي، وانظر صحيح الترمذي ٢٧/٣ وقال: حسن صحيح.

الخاتمة

﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (١).

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

ونختم الكتاب بهذه الآية، حامدين لله، مثنين عليه بما هو أهل له، وبما أثنى به على نفسه. فالحمد لله رب العالمين حمداً طيباً مباركاً فيه، كما يحب ربنا ويرضى، وكما ينبغي لكرم وجهه، وعز جلاله. ونسأله أن يوزعنا شكر نعمته، وأن يوفقنا لأداء حقه، وأن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته. وأن يجعل ما قصدنا له - في هذا الكتاب وفي غيره - خالصاً لوجهه الكريم، ونصيحة لعباده.

فيا أيها القاريء له، لك غُتْمه وعلى مؤله غُرمه. لك ثمرته وعليه تبعته، فما وجدت فيه من صواب وحق فاقبله. ولا تلتفت إلى قائله. بل انظر إلى ما قال لا إلى من قال. وما وجدت فيه من خطأ: فإن قائله لم يألُ جهد الإصابة. ويأبى الله إلا أن يتفرد بالكمال كما قيل:

والنقص في أصل الطبيعة كامن فبنوا الطبيعة نقصهم لا يجحد

وكيف يعصم من الخطأ من خلق ظلوماً جهولاً؟ ولكن من عدت غلطاته كان أقرب إلى الصواب ممن عدت إصاباته .

فالحمدُ لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله اللهم صلي على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم . وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد .
هذا والله تعالى أجلّ وأعلم .

المؤلف

د/ زين محمد شحاته محمد

الرياض - ليلة السابع والعشرين من

رمضان من عام ١٤١٧هـ الموافق الخامس من فبراير ١٩٩٧م

المراجع

- ١- إبراهيم الحازمي، الفرج بعد الشدة والضيقه، الرياض: دار الشريف، ١٤١٦.
- ٢- ابن خليفه علوي، سبعون برهاناً علمياً على وجود الذات الإلهية، دمشق: دار الإيمان، ط ٢، ١٤٠٤/١٩٨٤.
- ٣- ابن قدامة المقدسي، ذم التأويل، تحقيق بدر البدر، الكويت: الدار السلفية، ١٤٠٦هـ.
- ٤- أحمد بن الحسين (البيهقي) الأسماء والصفات، تحقيق عماد الدين حيدر، بيروت: دار الكتاب العربي ١٤٠٥.
- ٥- أحمد بن حنبل، المسند، بيروت: دار صادر، ١٣٨٩.
- ٦- أحمد الشرباصي، موسوعة له الأسماء الحسنى، بيروت: دار الجيل، ١٤٠٢/١٠٨٢.
- ٧- أحمد بن عبد الحليم (بن تيمية) مجموع الفتاوي، جمع عبد الرحمن بن قاسم، الرياض: عالم الكتب: ١٤١٢/١٩٩١.
- ٨- أحمد الأصبهاني (أبو نعيم)، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، بيروت: دار الكتاب العربي، ط ٥، ١٤٠٧.
- ٩- أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، القاهرة: دار الريان للتراث، ١٤٠٧.
- ١٠- أحمد مخيمر، ديوان أسماء الله الحسنى، القاهرة مطبعة الشعب.
- ١١- إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، القاهرة: دار التراث العربي.

- ١٢- ج. دار ديكيلف، تعرف إلى أعضاء جسمك، ترجمة يوسف شكري.
- ١٣- جماعة من العلماء، خلق لا تطور، تعريب إحسان حقي، بيروت: دار النفائس.
- ١٤- جمال الدين عياد، وحدانية الله دلائلها من العلم الحديث، جدة، عكاظ للنشر والتوزيع، ١٤٠٢، ١٩٨٢.
- ١٥- جون هـ، طرائف من عالم الحيوان، ترجمة عبد الحافظ حلمي.
- ١٦- الحاكم النيسابوري، المستدرک علی الصحیحین، وبذيله التلخيص للذهبي، بيروت، دار الفكر.
- ١٧- حامد أحمد حامد، رحلة الإيمان في جسم الإنسان، دمشق: دار القلم، ١٤١٢هـ.
- ١٨- حسن هويدي، الوجود الحق، المكتب الإسلامي.
- ١٩- الحسين بن محمد (الراغب الأصفهاني)، المفردات في غريب القرآن، تحقيق محمد سيد كيلاني، بيروت: دار المعرفة.
- ٢٠- محمد بن محمد الخطابي، شأن الدعاء، تحقيق أحمد الدقاق، دار المأمون للتراث، ١٤٠٤.
- ٢١- خالص جلبي، الطب محراب الإيمان، مؤسسه الرسالة، ١٩٨٦.
- ٢٢- خلوق نور باقي، الإنسان ومعجزة الحياة، ترجمه أوراخان محمد علي، جده: الدار السعودية للنشر والتوزيع، ١٤٠٧.
- ٢٣- داود علي الناعوري، العقيدة الإسلامية من القرآن والسنة، عمان: دار الفكر، ١٩٨٩.
- ٢٤- زكريا هاشم إبراهيم، آراء فلاسفة وعباقرة الغرب في الإسلام، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٨.

- ٢٥- زين محمد شحاتة، المرشد في تعليم التربيہ الإسلامية، الرياض: مكتبه الشباب، ١٤١٣.
- ٢٦- سعيد حوى، الله جل جلاله، بيروت: دار الدعوة، ١٩٨٩/١٩٦٩.
- ٢٧- سعيد بن علي بن وهف القحطاني، شرح أسماء الله الحسنى، الرياض: مطبعة سفير: ط ٤، ١٤١٥.
- ٢٨- سعيد بن علي بن وهف القحطاني، شروط الدعاء وموانع الإجابة، الرياض: مطبعة سفير: ط ٤، ١٤١٥.
- ٢٩- سعيد النورسي، النوافذ، ترجمة إحسان الصالحى، الموصل مطبعة الزهراء، ١٤٠٦.
- ٣٠- سعيد النورسي، الاسم الأعظم، ترجمة إحسان الصالحى، الموصل مطبعة الزهراء، ١٤٠٧.
- ٣١- سيد قطب، في ظلال القرآن، القاهرة، بيروت: دار الشروق الطبعة الثالثة والعشرون، ١٤١٥.
- ٣٢- صالح الفوزان، شرح العقيدة الواسطية، الرياض: الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، ١٤١١.
- ٣٣- صلاح الدين حفني، مختصر النهاية في غريب الحديث والأثر، الكويت: دار البحوث العلمية، ١٤٠٧/١٩٨٦.
- ٣٤- عبد المؤمن شرف الدين الدمياطي، المتجر الرابع في ثواب العمل الصالح، تحقيق عبد الملك الدهيش، بيروت: دار خضر، ١٤١٧.
- ٣٥- عبد الحميد كشك، أسماء الله الحسنى، القاهرة: المرشد الإسلامي، ١٩٩٠.
- ٣٦- عبد الرحمن بن أحمد (ابن رجب الحنبلي) جامع العلوم والحكم، تحقيق شعيب الأرنؤوطي، وإبراهيم باجس، بيروت: مؤسسة

الرساله ١٩١٢/١٩٩١ .

٣٧- عبد الرحمن بن إسحق الزجاجي، اشتقاق أسماء الله الحسنى، تحقيق

عبد الحسين المبارك، بيروت: بيروت مؤسسه الرسالة ١٤٠٦ .

٣٨- عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ، فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، الرياض .

٣٩- عبد الرحمن بن علي (أبو الفرج بن الجوزي)، صفة الصفوة، تحقيق

محمود فاخوري، ومحمد رواسي قلعة جي، حلب: دار الوعي

١٣٨٩ .

٤٠- عبد الرحمن بن ناصر السعدي: القواعد الحسان في تفسير القرآن،

الرياض: مكتبة المعارف، ١٤٠٠ .

٤١- عبد الرحمن بن ناصر السعدي، التوضيح والبيان لشجرة الإيمان،

الرياض: مكتبة المعارف، ١٤٠٦ .

٤٢- عبد الرحمن بن ناصر السعدي، الحق الواضح المبين، الدمام: دار ابن

القيم، ١٤٠٧ .

٤٣- عبد الرحمن بن ناصر السعدي تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام

المنان، تحقيق محمد النجار، المكتب الإسلامي، ١٣٨٧ .

٤٤- عبد الرزاق نوفل، الله والعلم الحديث، القاهرة: الناشر العرب،

١٩٧١ .

٤٥- عبد العزيز بن باز، مجموع الفتاوي ومقالات متنوعة، جمع محمد

الشويعر، الرياض: مطابع العبيكان، ١٤٠٨ .

٤٦- عبد العزيز بن عبد السلام، شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال

والأعمال، تحقيق الطباع، دمشق ١٤١٠ .

٤٧- عبد العزيز مصطفى، شرح الأسباب العشرة الموجبة لمحبة الله، الرياض، دار طيبة، ١٤١٧.

٤٨- عبد العزيز بن ناصر الجليل، متى نصر الله، الرياض: دار طيبة، ١٤١٤.

٤٩- عبد القادر عودة، التشريع الجنائي الإسلامي، بيروت: دار الكتاب العربي.

٥٠- عبد الكريم القشيري، شرح أسماء الله الحسنى، تحقيق الحلواني، دار آزال، ١٤٠٦.

٥١- عبد الغصن، أسماء الله الحسنى، الرياض: دار الوطن، ١٤١٧هـ.

٥٢- عبد المحسن صالح، دورات الحياة، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦م.

٥٣- فتاوي اللجنة العلمية الدائمة، جمع وترتيب أحمد الدويش، الرياض: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والإرشاد، ١٤١١.

٥٤- كريستي موريسون، العلم يدعو للإيمان، ترجمة الفلكي، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧١.

٥٥- محمد بن أبي بكر (ابن قيم الجوزية)، بدائع الفوائد بيروت: دار الكتاب العربي.

٥٦- محمد بن أبي بكر (ابن قيم الجوزية) مدارج السالكين، تحقيق محمد حامد الفقي، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٩٣/١٩٧٣.

٥٧- محمد بن أبي بكر (ابن قيم الجوزية) زاد المعاد، تحقيق شعيب الأرنؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٧/١٩٨٧.

- ٥٨ - محمد بن أبي بكر (ابن قيم الجوزية) مفتاح دار السعادة، الرياض: دار نجد ١٤٠٢/١٩٨٢، أعلام الموقعين، بيروت: دار الجيل.
- ٥٩ - محمد بن أبي بكر (ابن قيم الجوزية) طريق الهجرتين، تحقيق محب الدين الخطيب، القاهرة: الطبعة السلفين، ١٣٧٥.
- ٦٠ - محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق الأرنؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٢هـ.
- ٦١ - محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري بحاشية السندي، بيروت، دار المعرفة.
- ٦٢ - محمد بن إسماعيل الصنعاني، سبل السلام، القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٦٩.
- ٦٣ - محمد بن محمد المحمود، النهج الأسمنى فى شرح أسماء الله الحسنى، الكويت: دار السياسة، ١٤٠٨.
- ٦٤ - محمد بن صالح بن العثيمين، القواعد المثلى فى صفات الله وأسمائه الحسنى، الإحساء: دار ابن القيم، ١٤٠٦.
- ٦٥ - محمد بن صالح بن العثيمين، المجموع الثمين، جمع وترتيب فهد السلطان، الرياض: دار الوطن، ١٤١١هـ.
- ٦٦ - محمد بن صالح بن العثيمين، تقريب التدمريه، الرياض: دار الوطن، ١٤١٢هـ.
- ٦٧ - محمد عبد الله (الخطيب التبريزي)، مشكاة المصابيح، تحقيق الألباني، المكتب الإسلامي، ١٣٨٢.
- ٦٩ - محمد بن عبد الله الزركشي، معنى لا إله إلا الله، تحقيق على داغر، دار البشائر الإسلامية، ١٤٠٦.

- ٧٠- محمد بن عبد الرحمن المباركفوري، تحفة الأحوزي بشرح جامع الترمذي تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، القاهرة، مطبعة المدني، ١٣٨٣.
- ٧١- محمد بن عمر الرزاي، شرح أسماء الله الحسنى، القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٧٦/١٣٩٦.
- ٧٢- محمد الغزالي، خلق المسلم، القاهرة: دار الريان للتراث، ١٩٨٧/١٤٠٨.
- ٧٣- محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، القاهرة: دار الفكر، ١٩٨٦/١٤٠٦.
- ٧٤- محمد اللحيان، المقصد الأسني في بيان ضعف سرد الأسماء الحسنى، الرياض: مكتبة أولى النهي، ١٤١١هـ.
- ٧٥- محمد بن محمد (أبو حامد الغزالي)، المقصد الأسني في شرح معاني أسماء الله الحسنى، القاهرة: مكتبة الجندي.
- ٧٦- محمد ناصر الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة، عمان: المكتبة الإسلامية، ومكتبه المعارف بالرياض، ١٤٠٦.
- ٧٧- محمد ناصر الألباني، صحيح سند أبي داود، تعليق زهير الشاويش، الرياض: مكتب التربية العربي.
- ٧٨- محمد ناصر الألباني، صحيح الجامع الصغير وزيادته، المكتب الإسلامي، ١٤٠٦.
- ٧٩- محمد ناصر الألباني، صحيح سند ابن ماجه، الرياض: مكتب التربية العربي، ١٤٠٨.
- ٨٠- محمد ناصر الألباني، خطبة الحاجة: المكتب الإسلامي، ١٣٩٧.

٨١- محمد ناصر الطويل، لا إكراه في الدين، الرياض: دار طريق، ١٤١٤هـ.

٨٢- محمود الحزندار، هذه أخلاقنا، الرياض: دار طيبة، ١٤١٦/١٩٩٦.

٨٣- مروان القيسي، معالم التوحيد، بيروت: المكتب الإسلامي.

٨٤- مسلم بن الحجاج النيسابوري، الجامع الصحيح، بيروت: دار المعرفة.

٨٥- ناصر العمر، حقيقة الانتصار، الرياض: دار الوطن، ١٤١٢هـ.

٨٦- نخبة من العلماء الأمريكيين، الله يتجلى في عصر العلم، ترجمة الدمراش سرحان.

٨٧- ياسين رشدي، هو الله، القاهرة، نهضة مصر، ١٤٠٩/١٩٨٩.

* وهناك مراجع أخرى اقتبست منها أشياء يسيره، وأثبتت في الهامش.

* * *

الفهرس

الصفحة

الموضوع

الكريم الأكرم الجواد المحسن البرّ

٥٩ ٥٨ ٥٧ ٥٦ ٥٥

- ٤١٢ * معنى الكريم .
- ٤١٣ * معنى الأكرم .
- ٤١٤ * ورود الاسمين في القرآن الكريم .
- ٤١٤ * معنى الجواد .
- ٤١٥ * ورود الاسم في الحديث القدسي .
- ٤١٥ * ورود اسم المحسن في الحديث الصحيح .
- ٤١٦ * الإحسان نوعان .
- ٤١٦ * معنى البرّ .
- ٤١٧ * وروده في القرآن الكريم .
- ٤١٧ * من آثار الكريم الجواد المحسن البرّ .
- ٤١٨ * الكرم الإلهي في خلق الإنسان .
- ٤٢٠ * الكرم الإلهي في تعليم الإنسان .
- ٤٢٠ * الكرم الإلهي في تسوية الأعضاء وتوزيعها .
- ٤٢٣ * مضاعفة الثواب .
- ٤٢٣ * الجنة وما فيها من نعيم .
- ٤٢٤ * جوده عم الوجود .
- ٤٢٥ * إحسان الخلق (في الإنسان - في الطير - في الأسماك) .
- ٤٣٢ * أشرف إحسان رؤية المحسن في جنات النعيم .
- ٤٣٤ * شكر الكريم الجواد بالجوود والإحسان .
- ٤٣٥ * الإحسان إلى الخلق .

الصفحة

الموضوع

٤٣٧ * دعاء .

القابض الباسط

٦٠ ٦١

٤٣٨ * معنى القابض الباسط .

٤٣٩ * ورود الاسمين في الحديث الصحيح .

٤٣٨ * القبض والبسط اختبار وامتحان .

٤٣٩ * صاحب الجنتين .

٤٤١ * قارون .

٤٤٤ * قد يكون القبض نعمة .

٤٤٥ * الرضا بقضاء الله وقدره من أركان الإيمان .

٤٤٦ * الذنوب والمعاصي أساسها عدم الرضا .

٤٤٨ * قضاء الله (عز وجل) لعبده المؤمن كله خير .

٤٤٨ * دعاء .

الحكيم

٦٢

٤٥٠ * معنى الحكيم .

٤٥١ * حكمته نوعان .

٤٥٢ * ورود هذا الاسم في القرآن الكريم .

٤٥٣ * من آثار حكمته :

٤٥٣ * في خلق الأرض .

٤٥٤ * في الماء .

٤٥٥ * التوازن في خلق المخلوقات .

الصفحة

الموضوع

- ٤٥٨ * دقة التصميم والملاءمة .
- ٤٥٩ * إحكام الصنعة في الإنسان .
- ٤٦٠ * التخطيط والإحكام في ثمرة التفاح .
- ٤٦٤ * حكمته في شرعه .
- ٤٦٤ * الحكمة في العقوبات .
- ٤٦٤ * الحكمة في الحدود .
- ٤٦٨ * الحكمة في القصاص .
- ٤٧٠ * المؤمن دائم التفكير في المخلوقات .
- ٤٧٠ * الأحكام الشرعية من لدن حكيم خبير .
- ٤٧١ * الحكمة ضاله المؤمن .
- ٤٧٢ * دعاء .

السميع البصير

٦٤ ٦٣

- ٤٧٣ * معنى السميع .
- ٤٧٣ * ورود هذا الاسم في القرآن الكريم .
- ٤٧٤ * معنى البصير .
- ٤٧٥ * ورود هذا الاسم في القرآن الكريم .
- ٤٧٥ * علة اقتران هذين الاسمين .
- ٤٧٦ * سمع الله عز وجل وبصره حقيقة على ما يليق به .
- ٤٧٨ * إن الله لا يخفي عليه شيء في الأرض ولا في السماء :
- ٤٧٨ * الرسول (ﷺ) في رجوعه من الطائف .
- ٤٧٩ * موسى (عليه السلام) يسأل ربه .

الصفحة

الموضوع

- * زكريا (عليه السلام) يسأل ربه . ٤٧٩
- * يوسف (عليه السلام) يستعيز بالله من النسوة . ٤٧٩
- * يا سامع كل صوت . ٤٨٠
- * اعبد الله كأنك تراه فإن تكن تراه فإن يراك . ٤٨٠
- * مراقبة السلف لله عز وجل . ٤٨١
- * دعاء . ٤٨٤

العالم العليم الخبير

٦٧ ٦٦ ٦٥

- * معنى العالم العليم . ٤٨٦
- * علم الله عز وجل وعلم الخلق . ٤٨٧
- * معنى الخبير . ٤٨٨
- * الفرق بين معنى العليم والخبير . ٤٨٨
- * ورود هذه الأسماء في القرآن الكريم . ٤٨٩
- * علام الغيوب . ٤٩٠
- * من آثار علمه سبحانه وتعالى . ٤٩١
- * العلم الشامل المحيط لأمد الزمان وآفاق المكان . ٤٩١
- * مفاتيح الغيب . ٤٩٢
- * من أنباء القرآن الكريم . ٤٩٥
- * كل العلوم مصدرها العليم الخبير . ٤٩٦
- * دعاء . ٥٠٥

الصفحة

الموضوع

الرقيب الشهيد الحافظ الحفيظ

٦٨ ٦٩ ٧٠ ٧١

- * معنى الرقيب . ٥٠٦
- * ورود الاسم في القرآن الكريم . ٥٠٦
- * معنى الشهيد . ٥٠٧
- * الفرق بين معاني العليم والخبير والشهيد . ٥٠٧
- * الفرق بين معنيين الرقيب والشهيد . ٥٠٧
- * ورود اسم الشهيد في القرآن الكريم . ٥٠٨
- * الفرق بين معاني الرقيب والشهيد والمحيط . ٥٠٨
- * معنى الحافظ والحفيظ . ٥٠٨
- * حفظ الله لخلقه نوعان . ٥٠٩
- * ورود الحافظ والحفيظ في القرآن الكريم . ٥١٠
- * من آثار رقابته ورعايته وحفظه (سبحانه) . ٥١١
- * تسجيل أعمال العباد . ٥١١
- * كل كلمة أو حركة محفوظة في الفضاء . ٥١٣
- * الغلاف الهوائي وحفظ الحياة . ٥١٣
- ١- من آثار الحفيظ في داخل جسم الإنسان (كتائب الدفاع) . ٥١٤
- ٢- تدريب هذه الكتائب . ٥١٦
- ٣- تحول هذه الكتائب للبحث عن الغزاة . ٥١٦
- ٤- وصف لمعركة بين هذه الكتائب وجراثيم السل . ٥١٧
- ٥- حرس الحدود . ٥١٧
- ٦- صفارة الإنذار . ٥١٧

الصفحة

الموضوع

- ٧- سحب مياة الخلايا . ٥١٨
- ٨- الخلايا الميلانينية . ٥١٨
- ٩- طبقة الأدمة (ساحة معركة خارج المدن) . ٥١٨
- ١٠- منظومة الدفاع في جسم الإنسان والأنظمة الدفاعية في الدول المتقدمة . ٥١٩
- ١١- الاحتياطي في جسم الإنسان . ٥١٩
- * حفظ الله عز وجل لأنبيائه وأوليائه . ٥٢٤
- * المؤمن يراقب ربه بصيانه الظاهر والباطن . ٥٢٤
- * من آثار المراقبة الاستسلام لأوامر الله (عز وجل) . ٥٢٥
- * معارضة أوامر الله وشرعه لا تصدر عن مؤمن . ٥٢٦
- * المؤمن كأنه يرى ربه مطلعاً عليه ناظراً إليه . ٥٢٦
- * فهم هذه الأسماء يوجب الأدب مع الله . ٥٢٧
- * أنواع الأدب مع الله عز وجل . ٥٢٧
- * من أدب الأنبياء والمرسلين مع ربهم . ٥٣٢
- * ومن الأدب حفظ اللسان . ٥٣٢
- * كيف ننال حفظ الله (عز وجل) . ٥٣٣
- * دعاء . ٥٣٤

المهيمن المحيط

٧٣ ٧٢

- * معنى المهيمن . ٥٣٥
- * وروده في القرآن الكريم . ٥٣٦
- * معنى المحيط وورده في القرآن الكريم . ٥٣٧

الصفحة

الموضوع

- * من آثار المهيمن المحيط . ٥٣٧
- * السنن الكونية . ٥٣٨
- * دوران الملايين من النجوم والكواكب والمذنبات . ٥٣٩
- * رعاية المخلوقات . ٥٣٩
- * مراقبة العبد ربه . ٥٤١
- * فهم سنن الله الكونية . ٥٤٢
- * دعاء . ٥٤٤

الرب الرفيق اللطيف

٧٦ ٧٥ ٧٤

- * معنى الرب . ٥٤٥
- * وروده في القرآن الكريم . ٥٤٥
- * معنى الرفيق . ٥٤٦
- * وروده في الحديث الصحيح . ٥٤٦
- * معنى اللطيف . ٥٤٧
- * وروده في القرآن الكريم . ٥٤٧
- * اقتران اسمي اللطيف والخبير . ٥٤٨
- * من آثار ربوبية الله عز وجل ورفقه ولطفه : ٥٤٩
- * تغذية المخلوقات . ٥٤٩
- * وصول الغذاء إلى الأعضاء . ٥٥٠
- * خلق الصوص أو الكتكوت في البيضة . ٥٥١
- * النحل الأفريقي وصغاره . ٥٥٢
- * لطف الله (عز وجل) بيوسف (عليه السلام) . ٥٥٣

الصفحة

الموضوع

- ٥٥٤ * التدرج في التشريع من لطف الله عز وجل ورفقه بعباده .
- ٥٥٦ * الفرق من أخلاق المؤمن .
- ٥٥٧ * بمن نرفق؟ .
- ٥٥٨ * قسوة القلوب وعلاجها .
- ٥٦٠ * قضاء حوائج الإخوان .
- ٥٦١ * دعاء .

الرحمن الرحيم الرؤوف

٧٩ ٧٨ ٧٧

- ٥٦٢ * ورود الرحمن الرحيم في القرآن الكريم .
- ٥٦٣ * الفرق بين معنى الرحمن ومعنى الرحيم .
- ٥٦٣ * معنى الرؤوف .
- ٥٦٤ * وزود الاسم في القرآن الكريم .
- ٥٦٥ * من آثار رحمه الله عز وجل في الكون والحياة .
- ٥٦٦ * رحمة الله عز وجل لا حدود لها .
- ٥٦٦ * من أعظم رحمه إرسال الرسل لهداية البشر .
- ٥٦٩ * من آثار رحمته إعداد الأرض لسكني البشر .
- ٥٧٠ * من آثار رحمه الله عز وجل في الإنسان .
- ٥٧٢ * ومن أعظم آثار رحمته الجنة ونعيمها .
- ٥٧٣ * ومن آثار رحمه الله عز وجل في عالم الحيوان .
- ٥٧٦ * شبهه ودحضها .
- ٥٨٢ * كيف ننال رحمة الله (عز وجل)؟ .

الصفحة

الموضوع

٥٨٣ * دعاء

الشافى الطيب

٨١ ٨٠

٥٨٤ * معنى الشافى .

٥٨٤ * ورود هذا الاسم فى الحديث الصحيح .

٥٨٤ * معنى الطيب .

٥٨٤ * ورود هذا الاسم فى الحديث الصحيح .

٥٨٥ * القرآن الكريم الشفاء التام من جميع الادواء .

٥٨٥ * الامراض التى تصيب الإنسان وما أنزل الله لها من شفاء :

* الامراض القلبية (الشبهه، والشك، والشهوه، الغفله، والرياء

٥٨٦ والكبر).

٥٨٨ * علاج هذه الامراض .

٥٨٨ * أمراض البدن .

٥٨٩ * قواعد طب الأبدان (حفظ الصحة، الحميه، التداوي).

٥٩٢ * العسل والقرآن وطب الأبدان .

٥٩٣ * الامراض الروحيه والنفسيه .

٥٩٣ * السحر والحسد والقلق والهم والكرب .

٥٩٦ * علاج هذه الامراض .

٥٩٨ * الدعاء ودفع الامراض .

٥٩٩ * دعاء .

الحليم الحى السّير

٨٤ ٨٣ ٨٢

٦٠١ * معنى الحليم .

الصفحة

الموضوع

- ٦٠٢ * ورود الاسم في القرآن الكريم .
- ٦٠٢ * معنى الحيي .
- ٦٠٣ * معنى السَّيِّر .
- ٦٠٣ * ورود هذين الاسمين في الحديث الصحيح .
- ٦٠٦ * من آثار حلم الله عز وجل .
- * الله يحلم على الكافرين وهم يستعجلون العذاب . (قوم نوح - عاد - فرعون)
- ٦٠٦ * أصحاب الأخدود .
- ٦٠٧ * تعذيب المسلمين في مكة .
- (بلال - عمار وأبوه وأمه - خباب) .
- ٦٠٩ * أمثله من حلم رسول الله (ﷺ) .
- ٦١١ * أسباب الحلم ، والخير الذي يعود على المؤمن من ورائه .
- ٦١٦ * الحلم سيد الأخلاق .
- ٦١٧ * الحياء من الإيمان .
- ٦١٧ * أسمى منازل الحياء .
- ٦١٨ * أقسام الحياء .
- ٦١٨ * الفرق بين الحياء والخجل .
- ٦٢٠ * لماذا اقترن الحياء بالستر .
- ٦٢١ * ستر عيوب النفس والإخوان .
- ٦٢١ * الفرق بين الستر والإنكار .
- ٦٢٣ * دعاء .

الصفحة

الموضوع

الحميد الشاكر الشكور الودود

٨٨ ٨٧ ٨٦ ٨٥

- ٦٢٥ * معنى الحميد .
- ٦٢٦ * وجهها الحمد .
- ٦٢٧ * ورود الحميد في القرآن الكريم .
- ٦٢٩ * معنى الشاكر والشكور .
- ٦٢٩ * ورود الشاكر والشكور في القرآن الكريم .
- ٦٣١ * معنى الودود .
- ٦٣١ * ورود الودود في القرآن الكريم .
- ٦٣٢ * من نعم الله العظيمة التي توجب الحمد والشكر :
- ٦٣٢ * تسخير ما في السموات والأرض .
- ٦٣٣ * خلق الإنسان من ماء مهين .
- ٦٣٥ * رعاية الإنسان صغيراً .
- ٦٣٦ * انفراد الله بالملك .
- ٦٣٧ * إنزال القرآن الكريم .
- ٦٣٧ * شكر العبد يقابلة شكر من الرب .
- ٦٣٧ * شكر الله عز وجل لنبيه نوح (عليه السلام) .
- ٦٣٧ * شكر الله عز وجل لإبراهيم (عليه السلام) .
- ٦٣٨ * شكر الله عز وجل ليوسف (عليه السلام) .
- ٦٣٩ * شكر الله عز وجل لحمد (ﷺ) .
- ٦٤٢ * أمثلة من شكر الله (عز وجل) لعباده المؤمنين .
- ٦٤٢ * قواعد الشكر .

الصفحة

الموضوع

- ٦٤٣ * الفرق بين الحمد والشكر .
- ٦٤٥ * الحمد في السراء والضراء .
- ٦٤٥ * التسبيح والحمد أحب الكلام إلى الله (عز وجل) .
- ٦٤٦ * شكر الناس من شكر الله (عز وجل) .
- ٦٤٧ * محبة الرب لعبده والعبد لربه .
- ٦٤٧ * علامات هذه المحبة .
- ٦٤٨ * الأسباب الجالبة لمحبة الله (عز وجل) لعبده .
- ٦٤٩ * دعاء .

الولي المولى النصير القريب المحيب

٩٣ ٩٢ ٩١ ٩٠ ٨٩

- ٦٦٠ * معنى الولي .
- ٦٦١ * معنى المولى .
- ٦٦٢ * معنى النصير .
- ٦٦٢ * معنى القريب .
- ٦٦٣ * قرب الله (عز وجل) نوعان .
- ٦٦٤ * معنى المحيب .
- ٦٦٥ * إجابة الله عز وجل نوعان .
- ٦٦٦ * ورود هذه الأسماء في القرآن الكريم .
- ٦٦٧ * من آثار نصر الله عز وجل لأوليائه .
- ٦٦٩ * نصر المرسلين .
- ٦٧٠ * قد يبطي نصر الله (عز وجل) لحكم كثيرة .
- ٦٨٠ * أمثله من دعوات الأنبياء وإجاباتها .

الصفحة

الموضوع

- * الدعاء والبلاء . ٦٨١
- * شروط إجابة الدعاء . ٦٨٤
- * فوائد إخفاء الدعاء . ٦٨٦
- * موانع إجابة الدعاء . ٦٨٩
- * آداب الدعاء . ٦٩٣
- * أوقات يستجاب فيها الدعاء . ٦٩٥
- * مواضع الدعاء في الصلاة . ٦٩٩
- * أماكن يستجاب فيها الدعاء . ٦٩٩
- * دعاء مستجاب . ٧٠٢
- * خير الدعاء . ٧٠٧
- * دعاء . ٧٠٨

الحاسب الحسيب الوكيل

٩٦٩٥٩٤

- * معنى الحاسب والحسيب . ٧٠٩
- * ورد الاسمين في القرآن الكريم . ٧٠٩
- * معنى الوكيل . ٧١٠
- * وروده في القرآن الكريم . ٧١٠
- * الفرق بين الوكيل والكفيل . ٧١١
- * من آثار الحسيب الوكيل في الحياة . ٧١١
- * رزق جميع الأحياء . ٧١٢
- * مع ابن القيم في منافع النخلة . ٧١٢
- * تكفل الحسيب الوكيل بأساسيات الحياة . ٧١٤

الصفحة

الموضوع

- * حفظ الله عز وجل لمن توكل عليه . ٧١٥
- * إبراهيم (عليه السلام) في النار . ٧١٥
- * محمد ﷺ وأصحاب بعد غزوة أحد . ٧١٦
- * محمد ﷺ وصاحبه في الغار . ٧١٦
- * يعقوب (عليه السلام) . ٧١٧
- * التوكل على الوكيل نصف الدين . ٧١٨
- * الرسول ﷺ أعظم المتوكلين . ٧١٨
- * أعظم ثمرات التوكل . ٧١٩
- * التوكل في كل الأمور . ٧٢٠
- * قواعد التوكل . ٧٢٣
- * محاسبة النفس قبل محاسبة الخاسب الحسيب . ٧٢٤
- * أمثلة من محاسبة السلف الصالح لأنفسهم . ٧٢٦
- * دعاء . ٦٢٧

الهادي المبين

٩٨ ٩٧

- * معنى الهادي . ٨٢٨
- * أنواع الهداية . ٧٢٨
- * ورود الاسم في القرآن الكريم . ٧٣٠
- * معنى المبين . ٧٣٠
- * ورود الاسم في القرآن الكريم . ٧٣٠
- * من آثار الهادي في الكون والحياة . ٧٣٠
- * ١ - هداية الفطرة والإلهام . ٧٣٠

الصفحة

الموضوع

- ٧٣١ * هداية الحيوان المنوى إلى البويضة .
- ٧٣٢ * هداية الأعضاء إلى وظائفها .
- ٧٤٠ * أمثلة من هداية الحيوانات .
- ٧٤١ * هداية النباتات .
- ٧٤١ ٢ - هداية الدلالة والبيان .
- ٧٤٤ * سعادة الدنيا والآخرة في هذه الهداية .
- ٧٤٤ * أقسام الناس في استقبال هذه الهداية .
- ٧٤٦ ٣ - هداية التوفيق والإعانة .
- ٧٤٦ * والذين اهتموا زادهم هدى .
- ٧٤٧ * أمثلة .
- ٧٤٧ ٤ - هداية الآخرة .
- ٧٤٨ * هداية إلى الجنة .
- ٧٤٨ * هداية إلى النار .
- ٧٥٠ * سؤال الله الهداية .
- ٧٥١ * دعاء .

المؤمن

٩٩

- ٧٥٢ * ورود الاسم في القرآن الكريم .
- ٧٥٢ * المؤمن له معنيان .
- ٧٥٢ * من الأمان .
- ٧٥٣ * من الإيمان .
- ٧٥٥ * من آثار المؤمن تشريع الحدود والقصاص .

الصفحة

الموضوع

- ٧٥٦ * ومن آثاره أيضاً تأمين بقاء النوع .
- ٧٥٦ * إظهار المعجزات لتصديق الرسل .
- ٧٥٧ * الطمأنينة والأمن لدئى الموحدين .
- ٧٥٨ * والأمن كله في المقام الامين (في الجنة) .
- ٧٥٨ * التوحيد والأمن متلازمان .
- ٧٦٠ * الحب في الله وفعل الخيرات سبب للأمن يوم القيامة .
- ٧٦١ * دعاء .

الغفار الغفور العفو التواب

١٠٠ ١٠١ ١٠٢ ١٠٣

- ٧٦٢ * معنى الغفار والغفور .
- ٧٦٣ * ورود الاسمين في القرآن الكريم .
- ٧٦٣ * معنى العفو .
- ٧٦٣ * الفرق بين معنى العفو ومعنى الغفور .
- ٧٦٤ * معنى التواب .
- ٧٦٥ * توبة الله على عبده نوعان .
- ٧٦٦ * التوبة النصوح .
- ٧٦٨ * الفرق بين التوبة والاستغفار .
- ٧٧٠ * أمر الله عبادة بالتوبة والاستغفار .
- ٧٧١ * توبة الأنبياء واستغفارهم .
- ٧٧٣ * والمؤمنون مطالبون بالتوبة والاستغفار .
- ٧٧٤ * ثمرات وبركات التوبة والاستغفار .

الصفحة	الموضوع
٧٨٣	* أسباب نيل المغفرة .
٧٩١	* شروط قبول التوبة .
٧٩٦	* علامات قبول التوبة .
٧٩٧	* دعاء .
٧٩٨	* ختام .
٨٠٤	* المراجع .
٨٠٥	* الفهرس